التاريخ السياسي

للدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين

- ١ -

الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامى

ورئيس قسم التاريخ

بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة السابعة

١٩٨٢

مزيدة ومنقحة



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

التاريخ السياسي

للدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة السابعة

١٩٨٢

مزيدة ومنقحة

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

« إن التأليف على سبعة أقسام ، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه » .

حاجي خليفة

فهرس الكتاب

إفتتاح :

الجزء الأول :

الجزء الثانى :

الخاتمة :

الجداول :



إفتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسى للدولة العربية ، أى تاريخ الدولة التى قامت بقيام الإسلام حتى سقوط دولة بنى أمية فى سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م ؛ إذ أن الدولة التى جاءت بعد بنى أمية ، وهى الدولة العباسية ، بدأت عصراً إختلف طابعه كل الإختلاف عمّا سبق : فالدولة العربية طابعها عربى ، أما الدولة العباسية فغلب عليها طابع الشعوب التى تحولت إلى الإسلام: الفرس أولاً ثم الترك ، وقد لاحظ المؤرخون القدامى ذلك ، فقالوا : إن دولة بنى العباس أعجمية ودولة بنى أمية عربية ، مما جعل تاريخ الدولة العربية قطاعاً قائماً بذاته فى تاريخ الإسلام العام. ولكن هذا لايعنى إنعدام الصبغة العربية للدولة العباسية،المستمدة من اللغة،التى أودعت فيها سر قوةالتوحيد بين شعوب الإسلام .

ونحن لاندعى أننا عثرنا على مصادر جديدة مكنتنا من خلق تاريخ دولة العرب خلقاً جديداً ، لأن هذا الموضوع تناولته كتب عديدة من تأليف مؤرخى الشرق والغرب الحديثين ، الذين استنفذوا معظم مراجعه؛ إلاّ أنه فى الشرق — على الخصوص — ينقصنا عرض دقيق لتاريخ الدولة العربية على أساس منهجى حديث ، فضلاً عن أننا وضعنا نصب أعيننا الإعتماد على مصادره الأولى من وثائق وآثار ونقوش ومسكوكات ، وهى مصادر لم تستغل فى البحث التاريخى الإسلامى إلاّ منذ عهد قريب .

وإنى لأرجو أن يكون هذا الكتاب إسهاماً منى فى جعل تاريخ الدولة العربية أكثر جلاء ، وأيسر فهماً ، وخصوصاً أنه فترة مجـــد وعظمة للعرب : ففيها طعنوا بسيوفهم فى كل مكان ، وامتدت سيطرتهم من سور الصين حتى قرب باريس ، كما تكونت فيها حضارتهم الكلاسيكية أو التقليدية التى لا تزال شعوب الإسلام تحيا على تراثها حتى الآن .

تصدير الطبعة الثانية

انتهزنا فرصة إعادة طبع الكتاب ؛ فأصلحنا عدداً من الأخطاء المطبعية ، والغلطات التى وجـــه نظرنا إلى شىء منها ، بعض الأساتيذ المصريين والأجانب ، وقد ضم إلى الكتاب قدر صغير من المواد الإضافية فى النص والهوامش ، وإن أضيف عدد لا بأس به من المصادر والمراجع ، التى فاتتنا فى الطبعة الأولى .

المؤلف

* كل نسخة مباعة تكون ممضاة من المؤلف .

تصدير الطبعة الثالثة

إن طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة ، دليل على أن العمل الشاق المخلص أصبح يلقى تقديره فى أقاليم بلاد العروبة . فهذا المبحث ، لايعتمد على سرد الحوادث ، بقدر ما يتتبع بالأولى أسبابها وعللها ، ثم يغوص وراء الحقيقه حتى يراها أو يقترب منها ؛ بالفهم والاعتماد على أوثق المصادر . وعلاوة على ذلك ، فيه إنصاف وعدل لكل من دخل باب التاريخ ، الذى هو محكمة كبرى . إن التاريخ السياسى للدولة العربية ، تاريخ دولة ملأت فراغاً سياسياً ، وعملت على تطوير الحضارة والحياة ، وعمرّت قلوباً بعقيدة الإسلام .

المؤلف

تصدير الطبعة الرابعة

كلمات قليلة لتقديم الطبعة الرابعة ، التى مثل سابقاتها مزيدة ومنقحة . فقد ثبتت قدم هذا الكتاب ؛ بسبب مادته المتطورة ، التى استندت إلى مصادر ومراجع متعددة ، شرقية وغربية ، قديمة وحديثة . ولما كان الإسلام حركة دينية إصلاحية كبرى ؛ فإن الكتاب استعرض كل حركة دينية إصلاحية سابقة على الإسلام ، للربط وللمقارنة . ثم إن الفتوحات التى ذكرت فيه ؛ لاتتناول فقط المعروف منها ، وإنما أيضاً ألقت ضوءاً على فتوحات غير واضحة ؛ مما جعلها أبحاثاً مبتكرة . كذلك أبرز دور شخصيات مطموسة ، وأنصف بعضها . فيجمع الكتاب فى مادته نماذج للسياسة والمغازى والترجمة ، وصوراً موضوعية وافية للأديان والحضارة . وأعشم أن يلمس القارىء التحرر فى أسلوب الكتاب من الحدود التى كان يكتب فيها تاريخ الإسلام قبلاً .

المؤلف

موارد تاريخ الدولة
العربية

وثائق ـ آثار ـ نقوش ـ مسكوكات ـ مصادر أصلية ـ مراجع حديثة

إن المصادر الخاصة بتاريخ الدولة العربية كثيرة ومتنوعة ، وسنرتبها فى الصفحات التالية حسب أهميتها :

* * *

فمن الممكن أن نستند قبل كل شيء فى دراسة تاريخ الدولة العربية إلى **الوثائق** السياسية ، إذا أنها من أوثق مصادر التاريخ[1]. ولكن البحث شاق عن المستندات الرسمية لأمة العرب السابقة على ظهور الإسلام — ونقصد بها العرب المتحضرة فى أطراف الجزيرة — لطبيعة هذه الأمة فى عدم ميلها للكتابة كثيراً ، ولذلك فمعلوماتنا عن وثائقها قليلة جداً[2].

كذلك لم نعثر ـ لسوء الحظ ـ على معظم أصول المستندات الرسمية الخاصة بالدولة العربية نفسها ـ ونقصد بها فى الإسلام ـ على الرغم من أن هذه المستندات كانت تكتب من عهد النبى[3]، وذلك لأن الدولة العربية كان أعداؤها كثيرين ، بحيث أننا نسمع عن احتراق الديوان فى الكوفة سنة ٨٢/٧٠١[4]، بما فيه من أصول الوثائق أثناء إحدى الثورات ضد الحجاج ابن يوسف الثقفى. ومن ناحية أخرى قد يفسر أيضاً ضياع المستندات الخاصة بالدولة

(١) أنظر . Sauvaget : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman. Paris, 1946. p. 19; 122. ؛ ماجد ، مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٧ .

(٢) أنظر بخصوص هذه الوثائق النادرة (وهى مكتوبة بخط اليد) Cohen : Documents Sud-arabiques. Paris, 1934, p. 27 sqq.

(٣) أنظر . مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، جمعها حميد الله الحيدر آبادى ، القاهرة ١٩٤١ .

(٤) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ص ٦٨ .

العربية بقيام الدولة العباسية التى أتت بعدها: فقد كانت هذه الدولة عدواً لدوداً لدولة العرب، فلم تكتف بالقضاء على دولتهم، وإنما قضت أيضاً على أوراقها الرسمية.

وإذن فلم يبق لنا من مستندات الدولة العربية غير مجموعة قليلة خاصة بمصر على الخصوص فى مجموعة الأوراق البردية[١]، المكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية[٢]، وهى تفيد — إلى حدما — فى التعرف على أحوال الدولة العربية فى ممتلكاتها فى مصر. وفوق ذلك لدينا نصوص ووثائق كثيرة خاصة بجميع عصور الدولة العربية: من العهد النبوى، والخلافة الراشدة[٣]، إلى نهاية العصر الأموى، فى كتب المتأخرين أمثال: ابن سعد (م ٨٤٥/٢٣٠) والبلاذرى (م ٨٩٢/٢٧٩) والقلقشندى (م ١٤١٨/٨٢١)[٤] وغيرهم، ويشتمل أغلبها على كتب الأمان والمحالفات والخطب والمراسلات. ومع ذلك يجب أخذ هذه النصوص بحذر شديد، لأنها قد نُقل معظمها من كتب متقدمة، وليس من الأصل، كما أنها قد لا تخلو من تزييف، مثل العهود التى زُعم أن النبى كتبها للنصارى واليهود والمجوس[٥].

---

(١) البردى هو المادة المستعملة قديماً للكتابة، وتتكون من ألياف لزجة لنبات مائى كان ينمو فى مستنقعات الدلتا، ومن الكلمة Papyrus، اشتقت الكلمة الدالة على الورق فى العصر الحديث فى أوربا. أنظر. بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة عواد وعبد اللطيف، القاهرة ١٩٥٤، ص ٩ — ٢٠ هامش (١).

(٢) للبحث عن كل ما يتعلق بمجموعات الأوراق البردية الخاصة بالدولة العربية. أنظر. La Documentation papyrologique de l'époque arabe. : Cheïra Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant L'Egypte. Alexandrie,1948. وأيضاً: Sauvaget : Introd, p. 19 ; 122.

(٣) عن وثائق العهد النبوى والخلافة الراشدة، انظر. حميد الله، مجموعة الوثائق، القاهرة.

(٤) توجد أغلب النصوص الخاصة بوثائق الدولة العربية فى كتاب: القلقشندى، صبح الأعشى، الجزء السادس. أنظر.

(٥) أنظر Sauvaget : Introd, p. 20. لا نستطيع مثلاً أن نؤكد صحة الكتب التى أرسلها النبى للملوك زمانه يدعوهم إلى الإسلام، وذلك كما يقول Caetani — للاختلاف فى تواريخ لرسالها، وأسماء حامليها، وكيفية مقابلتهم للملوك، وللاختلاف فى أشخاص نقلتها. أنظر. Caetani : Annali del'Islam, 1905, anno 9 : 50—54. وعلى العكس يؤيد Hamidullah صحة كتاب النبى لهرقل، انظر. La lettre du Prophète à Héraclius. Cf. Arabica .Janvier, 1955, t 2, 1, p. 97 - 110.

ويلى الوثائق السياسية الآثار [١]، وهى التى وصفها ابن خلدون بأنها تكون على نسبة قوة الدولة [٢]، مما يدل على أهميتها فى فهم تاريخ العرب [٣]. وهذه الآثار الباقية يرجع بعضها إلى ماقبل الإسلام ، وبعضها الآخر إلى مابعد ظهوره حتى سقوط دولة العرب . فنجد من آثار العرب قبل الإسلام آثار ممالك النبط والآراميين فى الشام [٤]، وآثار ممالك العرب الجنوبيين فى اليمن [٥]، أما فى الحجاز فإن أهم آثار العرب «الكعبة» فى مكة .

ونجد من آثار الدولة العربية آثاراً كثيرة فى معظم البلاد التى فتحها العرب من أقصى الغرب فى أسبانيا إلى أقصى الشرق فى التركستان ، تجلو لنا طابع الدين الجديد [٦]. ولكن أهم آثار الدولة العربية كان من عهد الدولة الأموية [٧]، التى أراد خلفاؤها ـ الذين أعجبوا بفخامة الكنائس النصرانية ـ أن يظهروا اقتدارتهم على إقامة مبانى لاتقل عظمة عن مبانى البيزنطيين، بحيث أننا نستطيع أن نكمل نظرتنا فى تاريخ دولتهم بتتبع آثارهم فى الشام من مساجد وقصور ، وعواصم صحراوية . ولا ريب أن بقاء آثار الدولة العربية شامخة بأنفها إلى الآن يدفعنا

---

(١) ماجد ، مقدمة ص ٢١ ؛ انظر . Sauvaget : Introd, p. 51—53.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢هـ ، ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٥٦/ ١٩٣٨ — ١٣٦٦ / ١٩٤٧ ، ١ ص ٧٢ .

(٤) أنظر . Kammerer : La Mer Rouge. L'Abyssinie et l'Arabie, depuis l'Antiquité. Essai d'Histoire et de Teographie Historique. Mém. de la Soc. Roy. de Geog. t. xv. Le Caire, 1929, p. 83 sqq.

(٥) أنظر على الخصوص Nabih Faris : The Antiquities of South, Arabia. Princeton, 1938.

(٦) أنظر . تراث الإسلام ، ترجمة زكى حسن، القاهرة ١٩٣٦، ٢ ص ١١٥ ـ ١٢٦ .

(٧) أنظر . Cres well : Early Muslim Architecture, I, : Umeyyads, : Oxford, 1935 ; أنظر أيضاً : Jaussen et Savignac : Les Chateaux, arabes de Qessir 'Amra, Kharâneh et Tûba. Paris. 1922.

إلى القول بأن ابن خلدون قد بالغ حينما ذكر أن المباني التي يختطها العرب كان يسرع إليها الخراب(١).

كذلك تعتبر النقوش(٢) عماد البحث الحديث في تاريخ هذه الدولة، فهي تحل محل المصادر الأرشيفية في سرد وقائع تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده؛ إذ هي الكتابة الموجودة على الآثار. فقد عرف النقش - منذ قديم الزمان - في مواطن استقرار العرب بخطوط الجزيرة العربية القديمة(٣)، مثل: الخط السبئي والحميري أو ما يعرف عند العرب بالخط المسند في اليمن(٤)، حيث كانت أكثر النقوش القديمة مكتوبة به، والخطوط(٥) اللحيانية والثمودية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٥ .

(٢) أنظر . Sauvaget : Introd, p. 48-50. ؛ ماجد ، مقدمة ، ص ٢٣ .

(٣) معظم النقوش القديمة أوردها الرحالة الأوربيون ، وللبحث عن كل ما يتعلق بها ، انظر على الخصوص المجموعة الهائلة المعروفة باسم : Corpus Inscriptionum, Semiticarum, t. 4, vol I. 1889, 1892, 1900, 1908; t. 4, vol 2.1911, 1914، وأيضاً الكتاب الهام : Répertoire d'Epigraphie Sémitique. Publié par la commission du Gorpus. Paris, 1900 sqq.

(٤) ابن النديم، كتاب الفهرست، تحقيق Flugel ، طبعة Leipzig، ص ٥-٦؛ ابن خلدون، المقدمة ، ص ٣٣٢ س ٤ ؛ جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد ١٣٧٩ / ١٩٥٠، ١ ص ٥٠ وما بعدها. هذا الخط كما يبدو ليس له علاقة بالخط العربي (أنظر. يحيى نامي، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، «جامعة القاهرة »، القاهرة ١٩٣٥ ، ص٣ — ٤) ، ويقال إنه أول خط في الجزيرة (جواد، نفس المرجع ، ١ ص١٨٦)؛ وان قيل إن أصله في الخط النبطي في شمال الجزيرة (أنظر. Hommel : Crundriss der, Geogr. und Gesch. des Alten Orients. München, 1904, 1, p.157.؛ جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ١٨٨) . ولم يفسر العلماء سبب تسمية «المسند» مسنداً ، ولعله بسبب أن الحروف على شكل العمارة التي تستند إلى أعمدة (جواد ، نفس المرجع، ١ ص١٩٧).

(٥) نسبة إلى شعوب من الجنس العربي ظهرت في شمال الجزيرة العربية وفي الشام ، وقد اندثر معظمها قبل الإسلام . جواد ، نفس المرجع ، ١ ص ٢٠٠ .

والصفوية والآرامية والنبطية والعبرانية فى الشام ، وأغلبها يشبه الكتابة الكوفية فيما بعد . أما عن النقوش القديمة بالعربية قبل الإسلام[١]، فهذه نادرة ، وليس لدينا منها غير أربعة نقوش ، أقدمها — وهو الأهم — نقش نمارة الخاص بقبر أمرىء القيس ، وهو مكتوب بالخط النبطى .

ولكن أصبح الخط العربى أساس النقش فى الإسلام ، وبخاصة حينما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٦٨٥/٨٦—٧٠٥) بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية[٢]، بحيث أن الخطوط القديمة فى الجزيرة العربية ، أو فى بلاد الخلافة بدأت تنعدم أمام الخط العربى[٣]، مثل : النبطية والآرامية والسريانية والفارسية . ومع ذلك فإن نقوش الدولة العربية قليلة جداً ، وأغلبها يوجد على الآثار المعمارية الأموية فى الشام[٤].

المسكوكات[٥]، وهى الأخرى من مصادر الدرجة الأولى فى تاريخ الدولة العربية ، وهى تشمل العملة الرسمية أو مايسمى : «بالسكة»[٦]،فهى تساعدنا

---

(١) أنظر Combe وSauvaget وWiet : Répertoire Chronologique, d'Ep igraphie arabe, t. 1, p. 1-4.؛ نامى، أصل الخط العربى. أنظر النقوش الأربعة، وهى : نقش نماره فى ٣٢٨ م ، ونقش زيد فى ٥١٢ م ، ونقش حران فى ٥٦٨ م، ونقش آخر من القرن السادس الميلادى .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٣ س ٧.

(٣) حاجى خليفة « ملا كاتب شلبى » ، كشف الظنون ، استنبول ١٣٢١هـ ، الطبعة الأولى، ١ ص ٤٦٤ .

(٤) توجد نقوش الدولة الأموية فى موسوعة Van Berchem : Matériaux, pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum,t .2. (Inst. F. d'Arch Or. t 44).Le Caire ,1927. ؛ وفى مجموعة Combe و Sauvaget و Wiet : Répertoire Chronologique d' Epigraphie arabe , t 1, p. 7-29. أما عن النقوش قبل الدولة الأموية فلدينا منها ثلاثة نقوش فقط عديمة الأهمية ، الأول فى سنة ٢٢هـ ، والثانى فى سنة ٢٩هـ ،والثالث فى سنة ٣١هـ. أنظر Répertoire,t 1, p. 5-6.

(٥) أنظر Sauvaget : Introd. p. 51. ؛ ماجد ، مقدمة ، ص ٢٧ .

(٦) المقريزى ، النقود الإسلامية ، قسطنطينية ١٢٩٨هـ، ص ٦ .

أيضاً على تتبع التطور السياسى . ولم يكن العرب — فى أول عهدهم — يعرفون العملة إلا فى يد تجار قريش(١)، وإن عرفتها ممالكهم قبل الإسلام(٢)، مثل: اليمنيين واللخميين والنبط والغساسنة . ومع ظهور الدولة العربية بمجىء الإسلام، فقد بقيت العملة المتداولة هى العملة التى كانت سائدة فى الأقطار المفتوحة، تحمل نقوشاً بيزنطية أو فارسية أو لاتينية ، وإن نُقش عليها أيضاً — فى بعض الأحيان — العقيدة الإسلامية، واسم الخليفة أو الأمير عامل الدولة العربية، ولم تصبح عملة إسلامية صرفة إلا على يد عبد الملك بن مروان، الذى أمر أن تُنقش بالعربية وحدها(٣).

بعد هذه المصادر من الدرجة الأولى نذكر مصدرين هامين فى تاريخ الدولة العربية قائمين بذاتهما : أحدهما القرآن والآخر الحديث ، فكلاهما جدير بالتخصيص ؛ لاحتوائهما على رسالة الإسلام من دين وتشريع .

---

(١) المقريزى ، النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، طبعة Leyden ، ١٨٨٨ ، ص ٩ . ذكر ذلك بصدد التنافس التجارى بين الأمويين والهاشميين قبل الإسلام.

(٢) أنظر . Hill : Catalogue of the Greek Coins of : Arabia Mesopotamia and Persia (British Museum). London, 1922.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ص ٢٠٧ س ١٠ — ١٤ ؛ Lavoix : Catalogue. des monn. musul. de la Bibl. Nat. Khalifes Orientaux t. 1. Paris, 1887, préf; p. IV, 59-131(59-552) ; Walker : A Catalogue, of the Arab, Byzantine and Post — Reform Umaiyad Coins. London, 1956 -لدينا فصول قيمة عن تاريخ العملة الإسلامية بما فيها عملة الدولة العربية من تأليف المؤرخين: البلاذرى وابن خلدون والمقريزى والقلقشندى وغيرهم. (أنظر. أنستاس مارى، النقود الإسلامية وعلم النميات. القاهرة ١٩٣٩؛ Sauvaire : Matériaux, pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie musulmanes. Paris, 1882) . أما عن قوائم النقود وصورها فتوجد فى كتاب Lavoix ؛ انظر .

فالقرآن[١]: وهو كتاب المسلمين الديني، ظهر منذ أن كُلف النبي بالدعوة؛ وإن كان جمعه النهائي قد تأخر إلى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٤ — ٣٥/٦٤٤ — ٦٥٦م)، الذي جمع سوره على أساس تلاوة الرسول، وليس بحسب ترتيبها التاريخي[٢]. وتظهر أهمية القرآن التاريخية في أنه يبيّن تطور دعوة النبي[٣]، ويشير في مناسبات عديدة إلى الدور الذي قام به الرسول في تكوين الدولة الإسلامية؛ بحيث أن كل سورة فيه تذكّر بفترة معينة في حياته أو حادثة[٤]. وفوق ذلك تضمّن القرآن معلومات هامة عن الجاهلية وأخبار دولها — أيدتها الكشوف الأثرية الحديثة[٥] — بحيث نجد سورة على اسم مملكة في جنوب الجزيرة قبل الإسلام اسمها: «سبأ»[٦]؛ بل إن بعض أسلوبه يوافق ألفاظ وتصوير الجاهلية[٧].

---

(١) بقي القرآن زمناً لم يحاول أحد ترجمته، وترجم في أوربا لأول مرة باللاتينية على يد الأب Cluny (١٠٩٢ — ١١٥٦م)، بقصد العيب في الإسلام. وقد كان اهتمام الجمهور الأوربي بمعرفة محتوياته سبباً في أن وجد في القرن ١٧ م أكثر من خمس ترجمات له في فرنسا وهولندا وإنجلترا وألمانيا، ولكن في القرن ١٩ م، كثرت الترجمات له في كل بقاع الأرض، وامتدت حتى الهند. بل إن المسلمين أنفسهم مثل الفرس والترك ترجموه إلى لغاتهم الأصلية.

أنظر. Blachère: Introduction au Coran. Paris, 1947, p. VII—XIX.

(٢) أنظر القرآن حيث نجد في أوله سوراً مدنية وأخرى مكية. ولقد حاول بعض المستشرقين في ترجمتهم للقرآن ترتيب سوره ترتيباً تاريخياً، على حسب نزولها. أنظر مثلاً:

Blachère: Le Coran. Traduction selon un essai de reclassement des sourates, 3vols. Paris, 1949—1951. (وهو أربعة أجزاء بالمقدمة)؛

Bell: The Qur'ân. Translated, with a critical rearrangement of the Surahs. 2 vols. Edinbourg, 1937-1939.

(٣) أنظر. Gibb: La Structure de La Pensée religieuse de l'Islam, traduit de l'Anglais par Félix Arin. Paris, 1950, p. 20.

(٤) أنظر. هيكل، حياة محمد، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٨.

(٥) أنظر. جورجي زيدان، كتاب العرب قبل الإسلام، القاهرة ١٩٠٨، ١، ص ١٠. (فصل المصادر الكتابية).

(٦) سورة (٣٤) وهي مكية إلا آية (٦) فمدنية.

(٧) القرشي، جمهرة أشعار العرب، بولاق ١٣٣٨هـ، ص ٣ — ٤؛ انظر. طه حسين، في الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٢٧، ص ٧٠.

ولكن لما بَعُد المسلمون عن عهد النبي أصبحوا فى حاجة ملحة إلى توضيح ما يستغلق عليهم من معانى القرآن وتعابيره ، مما كان سبباً فى ظهور علم « التفسير »[١] ، بحيث أن الكتب التى ألفت فى هذا العلم تُلقى لنا — هى الأخرى — ضوءاً ساطعاً على مضمونه ؛ وتفيد فى السرد التاريخى [٢] .

أما **الحديث**، فيقصد به أقوال النبى وأفعاله[٣]، التى نُقلت عنه فى مناسبات عديدة بالرواية الشفوية[٤] ، أو من صحائف قديمة دونت فيها[٥] . ومع أن الحديث قد دوّن فى وقت متأخر، وذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى — بعد سقوط الدولة العربية — إلاّ أنه يُعتبر من أصح المصادر فى

---

(١) السيوطى ، كتاب الإتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٣٦٠هـ ، ١٩٤١ ، ١ ص ٤ ، ٢ ص ٢٩٤ ؛ انظر . Nöldke : Geschichte des Qorâns. Göttingen, 1860. p. xxvii sqq.

(٢) أنظر . الطبرى (م ٣١٠/٩٢٣) ، جامع البيان فى تفسير القرآن ، ٣٠ جزءاً ، القاهرة ١٣٢١م/١٩٠٣ ؛ طبعة دار المعارف ؛ البغوى (م ٥١٦/ ١١٢٢) ، معالم التنزيل ، جزءان ، طبعة بومباى ١٣٠٩ / ١٨٩١ ؛ الزمخشرى (م ٥٢٨ / ١١٣٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦ ؛ وتحقيق Lees ، طبعة كلكتا ١٨٥٦ ، الرازى « فخر الدين » (م ٦٠٦ / ١٢٠٩) ، التفسير الكبير ، ٦ مجلدات ، القاهرة ١٢٧٨ / ١٨٦٢ ؛ البيضاوى (م ٦٨٥/١٢٨٦) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، جزءان ، بولاق ١٢٨٢—١٢٨٣/١٨٦٥ — ١٨٦٦ ، وتحقيق Fleischer ، جزءان ، طبعة Lipsiae ، ١٨٤٦ — ١٨٤٧ . أنظر أيضاً ما كتبه : Nöldeke : Geschichte des Qorâns, p. xxvi sqq. ; Barth : Studien zur Kritik und Exegese des Qorans. Strassbourg, 1921.

(٣) حاجى خليفة ، ١ ص ٤٢٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art. Hadîth), t. 2, p. 201.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٩ ، انظر . Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam, trad. Felix, Paris, 1920, p. 33.

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، طبعة Lugduni Batavorum ، ٢ ص ١١٤—١٢٨ ؛ انظر . Goldziher : Etudes sur la tradition islamique. Extraites du tome II des «Muhammedanische Studien» ,traduites par Léon Bercher. Paris, 1952 ,p. 10 — 11.

تاريخ القرنين الأولين فى الإسلام(١)، بسبب الدقة التى اتبعت فى نقله : فقد كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة الحفاظ، أوما يعرف « بالسند » أو « الإسناد »(٢) ، حتى تصل إلى النبى أو إلى السلف الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين؛(٣) وقد استحدثت هذه الطريقة حتى يطمئن جامعو الحديث إلى صحتها . ويُعرف الحديث باسم آخر هو «السنة»(٤) ، أى ماتعود عليه المسلمون « usus »، وإن كان الشيعة يسمونه بالأخبار(٥)، حيث أن الأحاديث لا تنتقل عندهم بالسند من الحفاظ الموثوق بهم ، وإنما عن أئمة الشيعة وحدهم . ويبدو أن الحديث فى مظهره على أنه مصدر فقهى أكثر منه تاريخى(٦) ؛ إلا أنه يعيننا على فهم حقائق كثيرة فى تاريخ الدولة العربية ، ويربط لنا حلقات مفقودة من حكم الخلفاء الأوائل .(٧)

(١) أنظر . Gold : Etudes, p. 6.

(٢) إبن خلدون ، المقدمة ، ص٤٥٢ س ١١ ؛ انظر. Gold : Etudes, p. 6.

(٣) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٤٢٣ ؛ وأيضاً :
Ency. de l'Islam, (art Hädith), t. 2, p.201.; Gold : Etudes, p. 1.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ . ؛ انظر . Gold: Etudes, p. 3 sqq; 13 sqq ; Lamairesse et Dujarric : Vie de, Mahomet d' après la Tràdition. Paris, 1897, I,p. 50.

(٥) النعمان ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيضى ، القاهرة ١٩٥١ ، ١ ص ٦١ .

(٦) أنظر . Blachère: Le Problème de Mahomet. Paris, 1952,p.7.

(٧) أنظر . Wellhausen: Das arabische Reich und sein Sturz. Berlin, 1902. Trad. Angl. Graham Weir : The Arab Kingdom and its Fall. Calcutta, 1927. Préf, XIII,
عن متون الحديث ، انظر . مالك (م ١٧٩/٧٩٥) ، الموطأ ، ١٣٠٧هـ؛ البخارى(م ٢٥٦ / ٨٧٠) ، صحيح ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٢٧٨/١٨٦١ ؛ مسلم (م٢٦١/٨٧٥) ، الجامع الصحيح ، مجلدان ، بولاق ١٢٩٠ ، ١٨٧٣ ؛ ابن ماجه (٢٧٣ / ٨٨٦) ، السنن ، مجلدان ، القاهرة ١٣١٣ / ١٨٩٥ ؛ أبو داود (٢٧٥ / ٨٨٨) ، كتاب السنن، القاهرة ١٢٨١ / ١٨٦٤ ؛ الترمذى (م ٢٧٩ ، ٧٩٢ — ٨٩٣) ، جامع الصحيح ، مجلدان، بولاق ١٢٩٤ / ١٨٧٥ ؛ النسائى(م ٣٠٣/٩١٥) ، السنن ، مجلدان ، القاهرة ١٣١٢ / ١٨٩٤ . وفوق ذلك لدينا عدة شروح للبخارى ومسلم منها النووى (م ٦٦٧ ، ١٢٦٨) ، شرح مسلم على هامش كتاب القسطلانى (م ٩٢٣ / ١٥١٧) ، إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، ١٢ جزءاً ، مصر ١٣٢٦هـ ؛ العسقلانى (م ٨٥٢ / ١٤٤٩ =

بعد القرآن والحديث نرجع إلى **المصادر الاصلية** ، ونقصد بها الإنتاج الأصلي من الكتب لمؤرخي الدولة العربية ، ينقلون فيها حوادث معاصرة أو يعتمدون على مصادر معاصرة ليس من السهل الرجوع إليها[١] . ولكن هذا الإنتاج الأصلي — مع أهميته — يجب أن نأخذه بحذر شديد ؛ لأن معظم ما وصلنا منه عن تاريخ الدولة العربية يعتمد على الرواية الشفوية — وهو طابع أولى لكتابة التاريخ الإسلامي — لتأخر التدوين حتى العصر العباسي بسبب طبيعة العرب البدوية التي كانت تميل إلى الحفظ أكثر من التدوين[٢]. ولكي يطمئن المؤرخون الأوائل إلى صحة الرواية الشفوية التجأوا كجامعي الحديث إلى الأسانيد[٣] ؛ بأن كل حادثة تاريخية تكون مسبوقة برواتها ، الذين كان بعضهم أيضاً من رواة الحديث[٤] ، لذلك كان يطلق على المؤرخين الأوائل: « أصحاب الأخبار »[٥] ، أو « إخباري »[٦] ، أو «راوية»[٧] ؛ لقصدهم جمع

= فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ١٣ جزءاً ، مصر ١٣٤٨ / ١٩٢٩ ؛ العينى (٨٥٥ ١٤٥١) ، عمدة القارىء في شرح صحيح البخارى ، ١١ جزءاً ، طبع القسطنطينية ، ١٣٠٩ — ١٨٩١/١٣١٠ — ١٨٩٣ . ولتسهيل البحث عن الأحاديث ، انظر الكتاب الحديث : فنسك ، مفتاح كنوز السنة ، معجم مفهرس تفصيلي ، نقله إلى العربية فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

(١) أنظر . ماجد ، مقدمة ، ص ٣١ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ص ٢٦ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٤) مثل : وهب بن منبه (م ١١٤ / ٧٣٢) ؛ أنظر. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٧٥ / ١٨٥٩ ، ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ . أو على بن المدائنى (م ٢٢٥ / ٨٤٠). ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة رفاعى ، ١٤ ص ١٢٤ — ١٣٩ ؛ انظر. Sauvaget: Introd, p. 30.

(٥) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، تحقيق Brockelmann ، طبعة Berlin ، ١٩٠٠ ، ٤ ص ٧١ س ٤ .

(٦) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩هـ ، ص ٤٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، طبعة دار الكتب ١٩٢٣ ، ١ ص ٣٧٤ س ٦ ؛ انظر. العبادى ، التاريخ عند العرب ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥٧ .

(٧) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣ .

الأخبار. ومع أن معظم الرواية الشفوية وصلتنا فى أسلوب شعرى أو قصصى أو أساطير، فقد كان من حسن الحظ أن العرب كانوا أحفظ من غيرهم[١]، فوصلنا من تاريخهم الشيء الكثير. ومن ناحية أخرى يجب الحذر فى تلقى هذه الروايات لأن معظم الكتب عن الدولة العربية وصلتنا من العهد العباسى، الذى كان فى عداء مع العرب، وعليه فإن مؤرخ الدولة العربية الحديث عند اطلاعه على الكتب الأصلية مضطر إلى تقبل تكرار أسماء الرواة وتحرى صحة الحقيقة التاريخية بنفسه، لأن قصد مؤرخى الإسلام الأوائل لم يكن غير استيعاب الأخبار، والمحافظة على كيفية اتصالها[٢]. ومع ذلك فإن الكتب الأصلية هى الأساس الذى يعتمد عليه مؤرخ الدولة العربية الحديث، لكثرتها وتنوع موضوعاتها.

فنعتمد على الكتب التى ألفت فى السيرة النبوية، وبخاصة الكتاب المشهور باسم: «سيرة ابن هشام» «أو سيرة سيدنا محمد رسول الله»[٣]، من تأليف أبى محمد عبد الملك بن هشام[٤] (م ٢١٣ / ٨٢٨ أو ٢١٨ / ٨٣٤). ومع أننا لا نعلم كثيراً عن حياة المؤرخ القديم غير أنه من البصرة، وأنه من كبار المحدثين، فكتابه هو أول كتاب تاريخى متصل وصلنا عن سيرة النبي وتاريخ العرب قبل الإسلام، لذلك نجده يعتمد غالباً فى نقل أخباره على الرواية

(١) حاجى خليفة، كشف الظنون، ١ ص ٢٦؛ انظر. الألوسى، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، الطبعة الثانية ٢، ١٣٤٢/ ١٩٢٤، ١ ص ٣٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢ و٣ و ٧ وما بعدها.

(٣) لدينا طبعات متعددة، وستكون طبعتنا المختارة من تحقيق Wüstenfeld، فى Göttingen، ١٨٥٩). ولأهمية سيرة ابن هشام تناولها المؤلفون بالشرح والتعليق، مثل: أبى الحسن الخثعمى (م ٥٨١/ ١١٨٥)، كتاب الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام، فى جزءين، طبعة القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤؛ وكذلك أبى ذر بن مسعود الخشنى (م ٦٠٤/ ١٢٠٧)، شرح السيرة النبوية، تحقيق Bronnle، فى جزءين، طبعة القاهرة ١٣٢٩ / ١٩١١؛ وقد ترجمها حديثاً Guillaume، الى اللغة الإنجليزية، بعنوان: The Life of Muhammad, a translation Ishâq's Sîrat Rasûl Allah. Oxford, 1955,

(٤) وفيات، ١ ص ٤١١ — ٤١٢.

الشفوية . وهذا الكتاب — كما يبدو — ليس إلا مختصراً لكتب ضاعت ولم تصلنا ، وبخاصة من تأليف أبى عبدالله محمد بن اسحق (م ١٥٠ أو ١٥١/ ٧٦٧—٧٦٨)[١]، الذى كان أول من ألف فى سيرة النبى ؛ بناء على طلب الخليفة العباسى المنصور ، واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له بالأستاذ[٢]

ونعتمد أيضاً على ماألفه المؤرخون الاوائل فى المغازى والفتوح ، وقد لقى هذا النوع من التاريخ إقبالاً شديداً منهم ، لما فيه من دلالة على قوة الإسلام ، ولدينا منه عدة كتب هامة . ولعل أقدم من ألف فيه هو أبو عبد الله محمد المعروف بالواقدى[٣]، فنعرف عنه أنه ولد فى أول سنة ١٣٠/٧٤٧ ، وتولى القضاء فى بغداد فى عهدى هرون والمأمون ، وتوفى فى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧/٨٢١ أو ٨٢٣ . ولقد صنّف الواقدى فى موضوعات عديدة ، أخصها المغازى والفتوح ، حتى قيل : إن ما خلفه من كتب عند موته يملأ ستمائة قمطر كبير[٤]، وإن كانت قد ضاع معظمها : أما مابقى منها فهو قليل مثل كتاب : « التاريخ والمغازى والمبعث »[٥]، وإن كان من العجيب حقاً أنه لايذكر فى مراجعه سلفه ابن اسحق كما فعل ابن هشام[٦].

---

(١) نفس المصدر ، ١ ص ٦٨٩ — ٦٩٠ ؛ انظر . Fück : Muhammad Ibn. Ishâq. Frankfort-sur Mein, 1925.

(٢) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٧٥ س ٩ ، س ١١ .

(٣) وفيات ، ١ ص ٧٢٢ — ٧٢٣ ؛ الفهرست ، ص ٩٨ — ٩٩ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك (بعنوان : Annales) ، تحقيق de Ceoje ، سلسلة ٣ ص ١٠٣٧ ؛ انظر . Ency. de Islam, (art. al-Wàkidi), t. 4, p. 1163—1164 ألف فيها قبل الواقدى عروة بن الزبير (م ٩٤ / ٧١٢) والزهرى (١٢٤ / ٧٤٢) ؛ ولكن لم تصلنا مؤلفاتهما . عن ذلك بأسباب ، انظر . Duri : A Study on the, Beginnings of History writing in Islam (Bull. of the Sch. Or and Afric. Studies) vol. XIX. part I. 1957.

(٤) الفهرست ، ص ٩٨ .

(٥) حققه Kremer، طبعة Calcutta ، ١٨٥٦ ؛ وترجمه إلى الألمانية Wellhausen، بعنوان : Muhammed in Medina. Berlin, 1882.

(٦) أنظر . Horovitz : De Wâqidû libro qui Kitâb al-maghâzî, Inscribitur Commentatio Critica quam Scripsit. Berlini ,1898, p. 9 ; Ency. de l'Isl, t. 4, p. 1164.

أما تلك الكتب التي تحمل اسمه ، وربما تكون من تأليفه ، حيث أن ابن النديم قد ذكر بعضها ، فهي عديدة وأهميتها كبرى في تاريخ فتوح الدولة العربية ، مثل : « فتوح الشام » و « فتوح مصر » و « فتوح إفريقية » و « فتوح الجزيرة » . وعلى العكس لدينا كتاب آخر عن « فتوح الشام » - يشبه كتاب الواقدي - من تأليف أبي إسماعيل بن عبد الله الأزدي ، الذي لا يذكره مؤرخو المعاجم أمثال ابن خلكان وياقوت ، وإن حاول محققه أن يجعل وفاته في سنة ١٧٨ / ٧٩٤[1]. فهل يكون هو مؤلف كتب الفتوح السابقة أو يكون مؤلفه ابن اسحق ، الذي يحمل كتاب « فتوح مصر » اسمه[2]، وليس اسم الواقدي ! !

ونذكر من كتب الفتوح أيضاً : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم[3] (م ٢٥٧/٨٧١) ، الذي يُعتبر أول مؤرخ عربي لمصر ، إذ ولد بالفسطاط في أسرة عُرفت بنشاطها الأدبي والديني . وتبدو أهمية هذا الكتاب في أنه يتناول تاريخ مصر منذ القدم ، ويعرض بإسهاب لفتح العرب مصر ، وتنظيمها المالي في عهد الإسلام الأول ، ولذلك يُعتبر المرجع الأول لمؤرخي مصر المتأخرين كالسيوطي والمقريزي .

وأخيراً نذكر الكتاب النفيس : « فتوح البلدان » من تصنيف العالم الفارسي أحمد بن يحيي البلاذري (م ٢٧٩/٨٩٢)[4]، الذي كان من خاصة الخليفتين العباسيين المتوكل والمعتمد . ففيه ينقل البلاذري بالرواية المسندة أخبار حروب النبي مع اليهود ، وحروب الردة ، وفتوح العرب في

---

(١) الأزدي ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٩٤ ، (أنظر . Preface, p. III;V)

(٢) أنظر . طبعة القاهرة ١٢٧٥هـ .

(٣) أنظر . وفيات ، ١ ص ٣٩٢ ؛ Ency. de l'Isl, (art Ibn'Abd al-Hakam) t. 2, p. 375.

(٤) ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة رفاعي ، ٥ ص ٨٩ — ١٠٢ ؛ انظر . Ency. de l.Isl, (art al-Baladhori), I, p. 624—625. اسمه مشتق من حب البلاذري ، وهو مادة مخدرة يقال إنها تسببت في موته .

الشام ، والجزيرة وأرمينية ومصر والمغرب وفارس . ويقول المسعودى الجغرافى (م ٣٤٥/ ٩٥٦) عن هذا الكتاب — الذى يُعتبر مختصراً لكتاب كبير آخر — إنه : « لا يُعلم فى فتوح البلدان أحسن منه »[١] .

كذلك نتناول من الإنتاج الأصلى ما ألفه المؤرخون القـــدامى فى موضوع الطبقات والأنساب ، ويقصدون به تاريخ الأرستقراطية العربية على حسب طبقاتها أو أنسابها ، فنذكر «كتاب الطبقات الكبرى » لمؤلفه محمد بن سعد (م٢٣٠/٨٤٥)[٢] ، وهو أشبه بدائرة المعارف لسيرة النبى ومغازيه ، وللخلفاء الراشدين والأمويين والصحابة وغيرهم حتى عهده . ويظهر أن ابن سعد — وهو معاصر للواقدى — قد أخذ كثيراً عنه . ولذلك يسمى — أحياناً — بكاتب الواقدى ، بل إنه سمى مؤلفه على اسم كتاب للواقدى يُعرف أيضاً : « بطبقات الواقدى »[٣] .

ونذكر كتاب: «أنساب الأشراف» للبلاذرى(م٢٧٩/٨٩٢)،وهو لا يقل قيمة عن كتابه السابق فى الفتوح،حيث يتناول تاريخ الأرستقراطية العربية[٤]، فى جاهليتها وإسلامها إلى القرن العباسى الأول . وهو لا يرتبه على حسب سنى الهجرة ، بل يسوقه على شكل قصص يتناول تاريخ الشخصية وأسرتها بالرواية الشفوية ، وقد استأثرت فيه أخبار بنى أمية بأكثر من الثلث . ولسوء الحظ ضاع الجزء الأكبر منه[٥] ، ولم يصلنا غير الجزء الخامس الذى يروى فيه سيرة الخليفة عثمان وأولاده وعبد الله بن الزبير[٦] . وكذلك

(١) المسعودى، مروج الذهب ،تحقيق وترجمة Barbier de Meynard وPavet، طبعة Paris ، ١٨٦١ — ١٨٧٧ ، النص العربى ، ص ١٤ .

(٢) الفهرست، ص ٩٩؛ أنظر. Ency.de l'Isl. (Ibn Sa'd), t 2, p. 439

(٣) الفهرست ، ص ٩٨ .

(٤) أنظر. Sauvaget : Historiens Arabes. Paris, 1946, p. 15.

(٥) يقول حيد الله ، وكذا Becker: إن هذا الكتاب يوجد كاملاً فى القسطنطينية، فى جزءين كبيرين ؛ يشمل الأول ١١٩٦ صفحة ، والثانى ١٢٦٨ صفحة ، كما توجد منه فى القاهرة نسخة مصورة أنظر . Hamidullah : Le Livre des Généologies, d'al-Baladhury. Bull. d'Et. ar. t. XIV. Damas, 1952 — 54, p. 197. sqq. ؛ Ency. de. l'Isl. t. 1, p. 625 .

(٦) أنساب الأشراف ، تحقيق Goitein ، الجزء الخامس، طبعة القدس ١٩٣٦ .

لدينا مصنف مجهول عبارة عن الجزء الحادى عشر ، وهو — ولا ريب — جزء من كتاب أنساب الأشراف يعرض فيه لسيرة مصعب بن الزبير إلى عهد الحجاج(١)، كما ترجم الجزء الخاص بمعاوية(٢) . فأهمية كتاب البلاذرى أنه يتناول مرحلة حاسمة فى تاريخ الدولة العربية

وتستعين أيضاً بكتب الأخبار والتاريخ ، وهى أشبه بصحف الأخبار يغترف منها الباحث أخباراً عديدة ، قد تصل أحياناً إلى حد التناقص ، منقول أغلبها عن طريق الرواية الشفوية ، كما يحمل معظمها طابع التآليف الإسلامية الأولى فى التاريخ ، بربط تاريخ النبى بآدم، تقليداً للقرآن فى ذلك، ونذكر منها الكتب الآتية :

كتب أبى مخنف (م ١٥٧ / ٧٧٤)(٣) ،وهو الذى ينقل عنه معظم مؤرخى الإسلام القدامى ،ويُعتبر أحد رواة التاريخ المشهورين ،وكل مانعرفه عنه أنه ولد بالكوفة فى سنة ٨٢/٧٠١ ، وأنه على حسب ملاحظة ابن النديم تخصص فى جمع أخبار الدولة العربية : من فتوح وحوادث . وقد ضاعت معظم كتب أبى مخنف ، وإن وصلتنا بعض نتف منها فى كتب المؤرخين المتأخرين ،كما بقى لنا كتابان يحملان اسمه ذكرهما ابن النديم ، وهما : «كتاب مقتل الحسين عليه السلام » و« رسالة أخذ الثار وانتصار المختار على الطغاة الفجار»(٤) ، وكلاهما يتناول ظروف الإسلام السياسية فى عهد الأمويين(٥)، ويدلان على أن أبا مخنف كان من الشيعة المتحمسين للعلويين .

---

(١) حققه Ahlwardt ، طبعة Greifswald ، ١٨٨٣ ؛ انظر . Brockelmann: Geschichte derArabischen Litteratur(GAL). Weimar,1898,I,p.142.

(٢) أنظر . Levi della Vida و Pinto : Il Califfo Moawiya, I, secondo il Kitâb Ansâb al-Achrâf. tradotto e annotato. Roma, 1938.

(٣) الفهرست، ص ٩٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Abu Mikhnaf) GAL. I, p. 65 : Brock : I, p. 103.

(٤) يذكر ابن النديم عنواناً آخر هو : «كتاب المختار بن أبى عبيد » انظر . الفهرست ، ص ٩٣ . وقد نشر محمد الشيرازى الكتابين ، طبعة بومباى ، ١٣٦١ هـ .

(٥) أنظر . Well : The Arab King. Pref. X—XI.

ثم كتاب أبي المنذر هشام بن الكلبي الأخباري (م ٢٠٤/٨١٩ أو ٢٠٦/٨٢٢)[١]، المعروف باسم: «كتاب الأصنام». وتبدو أهمية هذا الكتاب في أنه المصنف الوحيد الهام الذي بقي لدينا من كتب عديدة يذكرها ابن النديم في حوالي أربع صفحات من كتاب الفهرست، وهو يتناول بالتفصيل الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام، فيذكر أصنام القبائل المختلفة في الجزيرة العربية، بحيث يُعتبر المرجع الأصلي في هذا الموضوع.

ثم أيضاً كتاب: «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (م ٢٨٢/٨٩٥)[٢]؛ وفيه نجد صفحة من تاريخ الإسلام في القرنين الأولين بعبارات مختصرة، وإن أطنب المؤلف على الخصوص عند التحدث عن أخبار فارس قبل الإسلام، وفتح العرب لها، وظروف سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس؛ ولا ريب فقد كان الدينوري فارسياً يؤرخ لوطنه.

ثم كتاب: «التاريخ الكبير» لأحمد بن جعفر بن أبي يعقوب بن واضح الأخباري العباسي (م ٢٨٤/٨٩٧)[٣]؛ وفيه نجد نبذاً قيمة عن أخبار الجاهلية وشعرائها وأسواقها، وتاريخ الأمم السابقة على الإسلام حتى سنة ٢٥٩/٨٧٢. ويظهر جلياً من ثنايا سطور هذا الكتاب أن اليعقوبي شيعي، وإن لم يجرؤ على إعلان ميله للعلويين خوفاً من العباسيين.

ثم الكتاب المعروف: «تاريخ الأمم والملوك» لمؤلفه العالم محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠/٩٢٣)[٤]، الذي اشتهر بذاكرته القوية، ودأبه الذي لا يكل

---

(١) الفهرست، ص ٩٥ – ٩٨؛ معجم الأدباء، ١٩ ص ٢٨٧ – ٢٩٢؛ تصدير كتاب الأصنام، تحقيق زكي باشا، القاهرة ١٩١٤؛ انظر Ency. d'Isl. (art. al - Kalbi), t2, p. 730—731.

(٢) الفهرست، ١ ص ٧٨؛ انظر Ency. de l'Isl. (art al-Dinwari), 1, p. 1004 — 1005.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ٥ ص ١٥٣ – ١٥٤؛ انظر Ency. de l'Isl, (art al - Ya 'kûbi), t. 4, p. 1215 - 1217.

(٤) وفيات، ١ ص ٦٥١، انظر Sauvaget: Historiens arabes, Paris, 1946, p. 18; Ency. de l'Isl. (art al-Tabari), t. 4, p. 607-8.

فى جمع الأخبار التى تتصل بالبشر منذ خلق آدم حتى عصره ، على ترتيب السنين، سواء أكان بالرواية الشفوية أو من كتب المتقدمين، أمثال: ابن اسحق وأبى مخنف والواقدى والمدائنى[١]. ومع أن معظم مصادر الطبرى من العراق، إلاّ أنه اتخذ موقف المؤرخ المحايد الذى غرضه استيعاب الأخبار، والمحافظة على صحتها من أفواه الرواة .

ثم الكتاب الممتع : « العقد الفريد » من تأليف أبى عمر بن عبدربه[٢] (م٣٢٧/٩٣٩) ، حيث نجد فيه روايات تاريخية عديدة ، رتبها المؤلف فى فصول من اختياره كالعقد ، تتناول أخبار العرب فى الجاهلية والإسلام ، مع عرض موجز لسيّر الخلفاء الأوائل . ولكن الظاهرة الهامة فى هذا الكتاب ، حذف الإسناد طلباً للتخفيف ، وهرباً من التطويل .

ثم كتاب: « الكامل فى التاريخ » لأبى الحسن علىّ المعروف بابن الأثير[٣] (م٦٣٠/١٢٣٣)، وهو المؤرخ الذى كرّس حياته لكتابة تاريخ كامل للإسلام حتى عصره ، وعُرف بحصافته فى تحرى الأخبار، ونقلها ، وإن رتبها كالطبرى على نظام الحوليات، وبدأها بالتكلم على تاريخ البشرية منذ أول الزمان. وهذا الكتاب ـ كما يقول ابن خلكان ـ من خيار التواريخ ، ويحتوى علىّ مادة قيّمة لتاريخ الجاهلية والإسلام.

ثم كتاب: « المختصر فى أخبار البشر » من تأليف إسماعيل بن علىّ الملقب بأبى الفداء[٤] (م٧٣٢/١٣٣١)، وهو تاريخ مطول للأمم حتى سنة ٧٢٩/١٣٢٩،

---

(١) جواد على ، مواد تاريخ الطبرى ، فى مجلة المجمع العلمى العراقى، عدد ٢، ١٩٥٢، ص ١٣٥ ــ ١٩٠ ، عدد ٣ ، ١٩٥٤ ، ص ١٦ ــ ٥٦ .

(٢) وفيات ، ١ ص ٤٥ ــ ٤٦ . يبدو أن نعت كتابه : بالعقد الفريد ، جاء متأخراً؛ وأن ابن عبد ربه كان سماه العقد فى الأخبار . أنظر . ياقوت ، إرشاد الأريب ، مصر ١٩٢٤ ، ٢ ص ٦٧ ؛ انظر . جبرائيل جبور ، ابن عبد ربه وعقده ، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٢٩ .

(٣) وفيات ، ١ ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥ .

(٤) حققت أجزاء هذا الكتاب وترجمت فى أوربا منذ عهد مبكر ، فالجزء الخاص بالعصر الجاهلى حققه Fleisher ، وترجمه بعنوان: Abulfedae historia anteislamica. Leipzig, 1831.

كذلك حققت منه سيرة النبى وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية . أنظر . Encv. de l'Isl (ar. Abu'l-Fidâ') ,I, p. 88.

ولا يهمنا منه غير الجزء الذى يتناول فيه تاريخ العرب فى الجاهلية، وسيرة النبي ، وسيّر الخلفاء حتى سقوط دولة بنى أمية .

ثم كتاب : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » للعلامة عبد الرحمن أبى زيد ابن خلدون (م٨٠٨/١٤٠٦)[١] ، وفيه أخبار العرب والشعوب الأخرى وبخاصة البربر ، ومقدمة هذا الكتاب تحتل مكانة خاصة فى تاريخ الدولة العربية ، بسبب أن ابن خلدون لم يعرض فيها التاريخ كسابقيه من المؤرخين، وإنما فلسف ظروف المجتمع العربى منذ نشأته ، وتتبع تطوره ونظامه فى الإسلام ، مما جعلها مرحلة حاسمة فى تطور منهج علم التاريخ[٢] .

ثم كتاب لمؤلف مجهول بعنوان : « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق »[٣] ، يظهر أنه الجزء الثالث من كتاب تام ، يتناول تاريخ الخلفاء من عهد الوليد حتى المعتصم ، أى من سنة ٨٦ إلى ٢٢٧ / ٧٠٥-٨٤٢ . والواقع أن أهمية هذا الكتاب كبيرة جداً ، لجمعه مادة تاريخية منظمة عن الخلفاء الأمويين الأواخر، وثورات الخوارج فى عهد كل منهم .

وأخيراً أشير إلى عدة كتب لها قيمتها فى نقل أخبار الدولة العربية، مثل : كتاب « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى (حوالى القرن السابع/١٣)، و« تاريخ دولة الإسلام » لشمس الدين أبى عبدالله الذهبى (م٧٤٨/١٣٤٨)[٤]، و « نفح الطيب » للمقّرى (م ١٠٤١/١٦٣٢) .

ثم تصانيف مفيدة فى الترجمة للأشخاص، تتناول تاريخ حياة الأشخاص وأنسابها، منها : كتابا أبى الفرج جمال الدين الملقب بابن الجوزى[٥] (م٥٩٧/١٢٠٠) : « مناقب عمر بن الخطاب » و« مناقب عمر بن عبد العزيز »، فكلاهما

---

(١) أنظر . Ency. de l'Isl. (art Ibn Khaldûn) 2, p. 418—419

(٢) أنظر . ماجد ، مقدمة ، ٣٠ و ٨٧ .

(٣) سنستخدم نسخة de Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٦٩ ، وإن كان Juynboll و Anspach حققا فقط الجزء الخاص بالوليد وسليمان ، انظر .

(٤) أنظر . The Ta'rikh al-Islam of adh-Dhahabi :De Somogyi J.R.A.S. Oct 1932, p. 815—856.

(٥) وفيات ، ١ ص ٣٩٥ – ٣٩٦ .

يعرض لموضوع فى التاريخ يتناول الصفات العالية للخليفتين العربيين، وإن كانا فى نفس الوقت يشتملان على معلومات هامة عن سياسة كل منهما .

ثم كتاب أبى الحسن علىّ بن الأثير (م ٦٣٠ / ١٢٣٣) : « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ، وهو لا يقل قيمة عن كتابه السابق « الكامل » ، فهو أشبه بقاموس أبجدى لتاريخ الصحابة الذين أقاموا مع الرسول، وهم خلق كثير ، إذ ذكر فيه ترجمة سبعة آلاف وخمسمائة صحابى ، ينقلها عن كتب سابقة لم تصلنا ككتاب علىّ بن مندة مثلاً . كما يستدرك ما فات على من تقدمه ، وهو لا يذكر فقط سلسلة « السند » كسابقيه ، وإنما أيضاً ما يسميه فى المقدمة « بأسانيد الكتب » ، ويشير إليها بحروف مختصرة كما نفعل الآن فى كتابة المراجع .

ويجب أن نجعل مكاناً فى مصادرنا الأصلية لكتب الجغرافيا[١] ، وهى ذات قيمة كبرى فى تاريخ الدولة العربية ، لا تقل عن قيمة كتب التاريخ ذاتها ، وذلك لأن أغلبها لا يقتصر على جغرافية البلاد من وصف وتضاريس ، ولكنه يعرض للحوادث ، وينقل الروايات التاريخية ، وخصوصاً أن أغلب الجغرافيين كانت لهم مؤلفات تاريخية أيضاً .

فنذكر من كتب أبى محمد الحسن بن أحمد الهمدانى ويلقب بابن الحائك[٢] (م ٣٣٤/٩٤٥) الكتاب المسمى : « صفة جزيرة العرب[٣] » ، الذى يصف فيه الجزيرة ، ويذكر أسماء بلادها وأوديتها وسكانها من القبائل ، وكتاب « الإكليل » ، الذى يصف فيه آثار اليمن فى العصر القديم ، وبقايا أبنيتها وقصورها وسدودها التى شاهدها ؛ وللأسف لم تصلنا معظم أجزاء هذا الكتاب الأخير ، وإن وصلنا منه الجزء الثامن على الخصوص[٤] ، الذى ينقل فيه — على ما يظهر —

(١) أنظر : Sauvaget . Introd, p. 42—43.

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٧ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٣) نشره وعلق عليه Müller ، طبعة Leiden ، ١٨٩١ .

(٤) سنستخدم هنا تحقيق نبيه فارس ، طبعة Princeton ، ١٩٤٠ ، ويوجد تحقيق جديد من Oscar Löfgren ' Uppsala ، ١٩٥٤ .

من كتاب يمنى قديم اسمه : « التيجان »[١]، لوهب بن منبه اليمنى (م ٧٣٢/١١٤).

ثم نذكر علىّ بن الحسن المسعودى (م ٣٤٥ / ٩٥٦)[٢]، الذى يقارن بالرحالة« Plinius » (توفى فى ٧٩ م)[٣]، بسبب حبه للاستطلاع مما جعله يرحل إلى فارس والهند والشام ومصر . وأهم كتبه : « مروج الذهب »[٤]، وهو كتاب جغرافى وتاريخى ، يعرض فيه لتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، وعناوين فصوله تدل على إحساسه التاريخى ، وأما كتابه « التنبيه والإشراف » ، فهو أيضاً فى غاية القيمة لدراسة تاريخ الدولة العربية،فبجانب موضوعاته الجغرافية البحتة عن: الأفلاك والرياح والفصول والأرض،ينقل إلينا أخباراً قيمة عن البلاد التى فتحها المسلمون.

وأخيراً لدينا كتب متعددة من جغرافيين آخرين ، ينقل أغلبهم أخباراً مكررة عند وصفهم البلدان ، مثل[٥]: لابن الفقيه (حوالى ٢٩٠/٩٠٣) : وابن خرداذبة (حوالى ٨٤٦/٢٣٢) ، والأصطخرى (حوالى ٣٤٠ / ٩٥١ — ٩٥٢) ، واليعقوبى (م ٨٩٧/٢٨٤) ، الذى ألف أيضاً فى التاريخ ؛ وابن حوقل (حوالى ٩٧٧/٣٦٧) ؛ والمقدسى (حوالى ٣٧٨/ ٩٨٨) ؛ وياقوت (م ١٢٢٩/٦٢٦) ، وهو الذى يعتبر كتابه : « معجم البلدان » معجماً تاريخياً أيضاً لحياة العرب ودولهم وممالكهم .

---

(١) نشر هذا الكتاب بحيدر آباد ، ١٣٤٧ هـ .

(٢) الفهرست،ص ١٥٤ ؛ انظر. Ency. de l'Isl.(al-Mas'ūdī),3,p. 457—8; Quatremère : Notice sur la vie de Masoudi. Ext. du, J. A. IIème Série. 1839, p. I—30.

(٣) أنظر. Mieli, La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mohdiale. Leiden, 1939, p. 114. توجد له ترجمة عربية ، لم نعتمد عليها هنا .

(٤) وهو يعرف للأوربيين عادة باسم : «Les Prairies d'or» .

(٥) من الجدير بالذكر أن تواريخ وفاتهم غير معروفة بدقة ، والتواريخ المذكوره هى تواريخ تآليفهم .

وبعد ذلك نذكر كتباً مفيدة، تتناول نظام الدولة العربية المالى وبعض النظم الأخرى، وإن كان أغلبها يتناولها من الناحية النظرية أو الفقهية الصرفة، مثل: «كتاب الخراج» لأبى يوسف (م١٨٢/٧٩٨)[1]، وهو كتاب ألف بناء على طلب الخليفة العباسى هرون الرشيد، ويحتوى على معلومات هامة عن فتوح البلدان، وما يتعلق بها من نظام الخراج؛ وكتاب آخر عن «الخراج» لأبى الفرج قدامة بن جعفر (حوالى ٣٣٧/٩٤٨)[2]، الذى وصف فيه مملكة الإسلام وما جاورها ونظام الثغور، وأخيراً كتاب: «الأحكام السلطانية» لأبى الحسن الماوردى (م٤٥٠/١٠٥٨)[3]، وهو يعرض لنظم عديدة كالخلافة والقضاء والنظام المالى.

ويجب أن نهتم بكتب ذات طابع دينى تتناول المشكلات الدينية فى الدولة العربية، وهى التى ظهرت نتيجة لتنوع المشارب لدى المسلمين، واختلاف الثقافة. والواقع أن التأليف فى العقائد والأديان أصبح موضوع دراسة مستقلة فى كتب العرب، فكان لهم فضل السبق فى تدوينه، قبل أن تعرفه أوربا بزمن طويل[4]. ومع ذلك فإن هذه الكتب متشابهة فى منهجها من حيث: تعرّضها للفرق الإسلامية أو للفرق المخالفة.

فنذكر منها كتاب: «فرق الشيعة» للكاتب الفارسى الحسن بن موسى النوبختى[5] (الثالث الهجرى / التاسع الميلادى)، وهو يتكلم فيه عن

(١) الفهرست، ص ٢٠٣.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ٧ ص ١٧٧ – ١٨٢؛ انظر Ency. de l'Isl. (art Kudâmâ) t. 2, p. 1158.

لم يتبق من كتابه غير الجزء الثانى، الذى نشر فى مجموعة:

Bibliotheca Goegraphorum Arabicorum, ed. de Goeje, vol 6. Lugduni—Batavorum, 1889.

(٣) أنظر Ency. de l'Isl. (art al-Mâwardî), t. 3, p. 477

(٤) دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة ١٣٧١/١٩٥٢.

(٥) وهى كلمة فارسية مركبة من «نو» بمعنى الجديد، و «بخت» بمعنى الحظ أى الحظ الجديد. أنظر. طبعة النجف ١٣٥٥/١٩٣٦، انظر. المقدمة.

فرق الشيعة على الخصوص منذ عهد علىّ بن أبى طالب — إمام الشيعة — ويتعرض لجميع ظروف نشأتها ، ومعاداتها للأمويين ؛ وكتاب : « الفرق بين الفرق » لأبى منصور بن محمد البغدادى (م ١٠٣٧/٤٢٩) ، وقد جمع فيه كل الفرق الإسلامية وبيّن آراء كل منها ؛ وكتاب : « الملل والنحل » للشهرستانى (م ١١٥٣/٥٤٨) ، حيث يذكر فيه كالكتاب السابق الفرق التى ظهرت فى الإسلام ؛وكتاب : « الفِصل » فى الملل والأهواء والنحل» لأبى محمد علىّ بن حزم (توفى حوالى ١٠٦٤/٤٥٦) ، وهو يضم بين دفتيه كل ما يتعلق بفرق الإسلام والأديان المخالفة له كاليهودية والمسيحية والمجوسية ؛ وأخيراً كتاب : « إعتقادات فرق المسلمين والمشركين » لفخر الدين الرازى (م ١٢٠٩/٦٠٦) ، حيث لايتناول فيه فقط بالعرض فرق المسلمين ، وإنما أيضاً فرق الأديان الأخرى ، ويرتبها جميعاً حسب تواريخ ظهورها .

وفوق ذلك نجد أنه من القصور ألاّ نذكر فى مصادرنا الأصلية كتب الأدب[١]، وبخاصة التى ألفت فى أوائل عصر التدوين ، وهى عديدة تحتوى على معلومات تاريخية هامة ، منها :

كتب عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ[٢] (م ٢٥٥/٨٦٨ — ٨٦٩) ، وهو أديب نقل إلينا كثيراً من الروايات التاريخية منها : كتاب: «الحيوان»، ويوهم اسمه أنه قد خصص للحيوان ؛ ولكنه يتناول طائفة من المعلومات الخاصة بالبلدان ، وبعض قضايا التاريخ عند العرب فى الجاهلية ، وكتاب: « البخلاء » ، الذى يتكلم فيه على البخل عند العرب ، وينقل إلينا صورة عن حياتها الأولى حتى طعامها ؛ وكتاب: « البيان والتبيين » ، الذى يفيدنا فى

(١) أنظر. Introd, p. 39 sqq. : Sauvaget

(٢) المسعودى ، مروج ، ٨ ص ٢٣ وما بعدها ؛ انظر . خليل مردم ، الجاحظ ، دمشق ١٩٣٠ ؛ Le Milieu Baçrien, : Pellat et la Formation de Gâhiz. Paris, 1953.

التعرف على بعض أحوال الجاهلية، وفيه نصوص كاملة لخطب النبي والخلفاء؛ وكتاب: «التاج»، وفيه الاصطلاحات التي كانت فاشية بين العرب وأعيادهم؛ وكتاب: «المحاسن والأضداد»، وقد ذكر فيه أشياء طريفة عن العرب؛ ومقالة قيّمة أدلى فيها برأيه: «في معاوية والأمويين»، منذ أن حدثت فتنة عثمان؛ وأخيراً كتاب: «العثمانية»، ويتعلق بالعصبية لعثمان.

وتصانيف محمد عبد الله بن مسلم الدينوري الملقّب بابن قتيبة(١) (م ٢٧٦/٨٨٩)، وهو من الأدباء المفيدين، حيث نقل إلينا فيها كثيراً من أخبار الدولة العربية، منها كتاب: «عيون الأخبار»، ويورد فيه كثيراً من الروايات التاريخية عن العرب في الجاهلية والإسلام؛ وكتاب: «المعارف»، وفيه ذكر لأخبار العرب وأيامها وأديانها ودويلاتها، وأخبار النبي والخلفاء، وهو يهتم بالأنساب على الخصوص؛ وكتاب: «الميسر والقداح»، الذي يعتبر مرجعاً هاماً لتاريخ العرب الاجتماعي قبل الإسلام؛ وكتاب: «الإمامة والسياسة»، وهو فريد في بابه جمع فيه الأخبار ونوادر التاريخ فيما يتعلق بمسائل الإمامة وشروطها في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والدولة العباسية، ويمتاز عن كتبه السابقة بطابعه السياسي الصرف؛ وأخيراً كتاب: «الشعر والشعراء»، وفيه ذكر شعراء الجاهلية وغيرهم وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم.

ونذكر كتاب المبرد محمد بن يزيد (م ٢٨٥/٨٩٨)، تلميذ الجاحظ، في كتابه المشهور: «الكامل»، يذكر فيه أخباراً كثيرة عن الخوارج.

وأخيراً كتاب أبي الفرج علي بن الهيثم الأموي الكاتب المعروف بالأصفهاني(٢) (م ٣٥٦/٩٦٧) المسمى: «الأغاني»، وقد أفرده للأغاني العربية

(١) الفهرست، ص ٧٧؛ وفيات، ١ ص ٣٠٥؛ انظر Ency. de l'Isl, (art. Ibn Kutaïba), t. 2, p. 423—4.
قتيبة تصغير قتبة وهي واحدة الأقتاب، والأقتاب الأمعاء فسمي بها، وينسب بالدينوري لأنه أقام بالدينور.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ١٣ ص ٩٤ — ١٤٦؛ انظر. خلف الله، صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية، القاهرة ١٩٥٣، Ency. de l'Isl, (art. Abu'l-Farrdj), I, p. 87 — 88; Quatremère: Mémoire sur le kitâb al — Agânî, ext. J.A. Paris, 1837.

قديمها وحديثها، وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وقصص الملوك فى الجاهلية ، والخلفاء فى الإسلام ؛ فأهمية هذا الكتاب التاريخى الأدبى فى أنه يعرض للحياة الإجتماعية فى الجاهلية والإسلام. ومن ناحية أخرى لدينا من أبى الفرج الأصفهانى كتاب مفيد لا فى الأدب ولكن فى التاريخ اسمه : « مقاتل الطالبيين » ، يتناول فيه كل من قتل من الشيعة بأيدى الأمويين أو العباسيين .

كذلك يجب أن نهتم فى مصادرنا الأصلية بالشعر العربى[٢]، وهو وإن لم يكن فى ذاته نصاً تاريخياً ؛ لأنه يذكر حوادث سطحية دون ربط بينها، إلا أنه بالنسبة لتاريخ الدولة العربية يُعتبر سجلاً معاصراً لأخلاق العرب وحياتهم وأخبارهم ؛ لذلك نُقل عن النبى قوله: إنه : « ديوان العرب »[٣]. ولكن من الطريف أن نذكر أن معظم ماوصلنا من شعر العصر الجاهلى من عمل البدو وليس من عمل الحضر[٤]، بحيث أن شعراء المدن يعدون على الأصابع . وحتى بعد ظهور الإسلام لم تأفل دولة الشعر ، ولا عجب فى ذلك ، فخلفاء الدولة العربية — سواء أكانوا من الراشدين أم الأمويين — كانت لهم خصائص زعماء القبائل العربية ، بل أكثر من هذا كان معظمهم يقرض الشعر[٥]، ويشجع الشعراء الذين أصبحوا ملازمين لهم كالظل فى

---

(١) أنظر Introd, p. 24 sq. : Sauvaget.

(٢) ابن رشيق ، العمدة ، القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ ، ١ ص ١٣ ؛ انظر.
La Littérature arabe des origines à l'époque de la, : Nallino dynastie umayyade, trad. Pellat. Paris, 1950, p. 63—64.

(٣) القرشى ، جمهرة ، ص ١٢ س ٢٥ ، انظر . جرجى زيدان ، كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ ، ١ ص ٨٤ .

(٤) جمهرة ، ص ٣٤ . نذكر منهم : المتلمس والمهلهل وامرأ القيس والسموءل وزهيراً وعنترة وتأبط شراً .. الخ .

(٥) جمهرة ، ص ١٠ س ٩ وما بعدها ؛ ابن رشيق ، العمدة ، ١ ص ١٩ وما بعدها .

المدينة[١]، وبخاصة فى الشام[٢]. ولذلك جاءت أشعار العرب فى ظل الدولة العربية مباشرة بعد المعلقات، بحيث أنها كانت مطابقة للشعر الجاهلى فى موضوعاته وأسلوبه.

ومن الجدير أن نذكر أن معظم شعر العصر الجاهلى أو الأموى وصلنا هو الآخر عن طريق الرواية الشفوية كالحديث والأخبار التاريخية، وساعد على بقائه أيضاً تمتع العرب بذاكرة الحفظ[٣]. ولعل أهم ناقل للشعر هو حمّاد الراوية (م ١٥٥/٧٧٢)[٤]، الذى عاصر آخر الخلفاء الأمويين، وكانوا يقدمونه ويؤثرونه، وسمى راوية لأنه كان يروى لكل شاعر. ومع ذلك فيجب أن نأخذ ماورد عن شعر الدولة العربية أو الشعر الجاهلى بحذر شديد لبعده عن عصر التدوين، بحيث أن طه حسين يقول عن شعر الجاهلية إن الكثرة المطلقة منه ليست من الجاهلية فى شىء[٥].

وأخيراً إذا ذكرنا أشعار العرب فى مصادرنا الأصلية يجب أن نذكر أيضاً أمثالهم؛ فإن لها نفس القيمة التاريخية فى التعبير عن بيئة العرب وتطورها. ولعل أهم مرجع لدينا عن أمثال العرب كتاب: مجمع الأمثال لأبى الفضل بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى[٦] (م ٥١٨/١١٢٤)، وهو يشتمل على نيف وستة آلاف مثل[٧]، مرتبة على حروف المعجم،

---

(١) يعرف شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام بالمخضرمين، نذكر منهم: كعب بن زهير والنابغة والحطيئة. اليعقوبى، تاريخ، تحقيق Houtsma، ١٨٨٣، ١ ص ٣١٢-٣١٣.

(٢) نذكر من شعراء الأمويين على الخصوص: الفرزدق والأخطل وجرير وكثير عزة وعمر بن أبى ربيعة وذا الرمة والنجاشى والطرماح .. الخ.

(٣) أنظر. قبله.

(٤) وفيات، ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢، انظر. Ency. de l'Isl,t. 2, p. 267

(٥) أنظر. طه حسين، فى الأدب الجاهلى، القاهرة ١٩٢٧، ص ٦٤.

(٦) ياقوت، معجم الأدباء، ٥ ص ٤٥ — ٥١. سمى الميدانى نسبة إلى ميدان محلة، من محال نيسابور.

(٧) النسخة التى سنستخدمها — وهى طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ — بهامشها جمهرة الأمثال لأبى هلال حسن بن عبد الله العسكرى التحوى، (م ٣٩٥ / ١٠٠٤ — ١٠٠٥)، حيث لا يبلغ بها جمعه الكتاب الأول.

تمتد من عصر الجاهلية وعهد النبى والخلفاء الراشدين ، كما أن المؤلف يذكر مع كل مثل قصة توضح الغرض الذى وضع له ، بحيث يقول ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه لم يعلم مثله فى بابه[١] .

بعد ذلك يجب أن نفرد مكاناً خاصاً لمصادر أصلية قلية ، ولكن من نوع آخر ، إذ أنها ليست من تأليف العرب أو المسلمين ؛ ولكن من تأليف رحالين أوربيين قدماء ، أو مؤرخين بيزنطيين ، أو رجال دين مسيحيين من الرهبان ؛ فأهمية هذه الكتب فى أنها تتناول أخبار الدول العربية من وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر العرب المسلمين .

فنذكر أولاً كتب الرحالين الأوربيين الذين جابوا الجزيرة العربية منذ الزمن القديم قبل الميلاد أو بعده ، سواء أكانوا من اليونان أم الرومان؛ حيث يقدّم أغلبها — وقد تُرجم إلى اللغات الحديثة — لمحات هامة عن عرب الجزيرة فى البوادى، أو فى ممالكها القديمة. فنذكر ما كتبه : Herodotus فى Historiai و Xenophon فى Anabasis و Theophrastus فى De Historia Plantarum و Diodorus Siculus فى Bibliotheca Historica و Josephus فى Magnum opus و Gaius Plinius المعروف باسم (Pliny) فى Naturae Historum وأخيراً Strabo فى Geographica، وهذا الأخير شارك بنفسه فى حملة الرومان على الجزيرة العربية فى ٢٤ ق.م ؛ ووصف أحوالها وسكانها ، كشاهد عيان[٢] .

ثم نذكر كتب المؤرخين البيزنطيين ، وبخاصة الذين عاصروا الدولة العربية ، وهذه لها قيمتها الخاصة ؛ بسبب أن الدولة العربية استولت على أملاك بيزنطة فى الشام ومصر وشمال إفريقيا ، كما غزتها فى عقر دارها

---

(١) وفيات ، ١ ص ٦٥ .

(٢) أنظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٢٩ . أنظر الترجمة الإنجليزية The Geography of Strabo, trad. H. L. Jones. London, 1949, I. Introd, p.xiv—xxviii,

ووصلت قواتها حتى أسوار القسطنطينية؛ فهذه الكتب البيزنطية تنقل باللغة اللاتينية أو اليونانية — وأغلبها لم يترجم إلى اللغات الحديثة — أخباراً وتعليقات هامة، وإن لاحظ المؤرخ الحديث Gibbon أن أغلبها متحامل(١).

فنذكر منها: ما كتبه المؤرخ Procopius — الذى عاصر الإمبراطور جستنيان الاول (٥٢٧—٥٦٥م) — فى «تاريخ الحروب»(٢)، حيث يذكر حروب الغساسنة حلفاء البيزنطيين، مع اللخميين حلفاء الفرس، وغزو الحبش لليمن فى الجاهلية، و Theophanes (٣) (حـــوالى ٧٥٨ — ٨١٨م) فى « Chronographia »(٤) أى « أخبار »، وهو تاريخ للعالم، يتناول فيه حروب العرب مع البيزنطيين، وصل فيه حتى سنة ٨١٣م، و Nikephorus Patriarcha(٥) (حوالى ٧٥٨ — ٨٢٩م) فى «Histori» (٦)، وهو تاريخ عام للكنيسة، يعرض فيه لحروب العرب مع البيزنطيين حتى سنة ٧٦٩م.

ثم الكتب التى ألفها مؤرخون مسيحيون، وهى بلغات متعددة، مثل: الأرمنية والسريانية والقبطية وحتى الأسبانية — وقد تُرجمت معظمها إلى اللغات الحديثة — ولا تقل أهميتها عن الكتب البيزنطية، كما أن صبغتها الدينية لا تقلل من قيمتها التاريخية(٧). فنذكر من هؤلاء المؤلفين: الأسقف

---

(١) أنظر. Gibbon : The decline and Fall of the Roman, Empire. ed. Smeaton. London, 1950, 5, p. 297.

(٢) أنظر. ترجمته الإنجليزية، بعنوان: History of the Wars, transl. Dewing. 7 vols. London 1954.

وله كتاب آخر باسم: Of the Buildings of Justanian, transl, by Stewart. London, 1886.

(٣) أنظر. Ency. Britannica, vol. 22, p. 66

(٤) أنظر النص اليونانى فى مجموعة: Patrologia Graeca de Migne, 1857—1866, t. 108.

أو أنظر. تحقيق de Boor فى vol 1, textum graecum. Lipsiae, 1883؛ انظر؛ Brooks: The sources of Theophanes, and the syriac chronicler, en Byz. Z,xv, 1906.

(٥) أنظر. Ency. Britannica, vol 16, p. 415—416.

(٦) أنظر النص اليونانى فى نفس المجموعة: Patrologia Graeca, t. 100.

(٧) أنظر. Czeglédy: Monographs on Syriac and Muhammadan Sources in the Literary Remains of M.Kmosko. Acta Orientalia t, 4. Budapest. 1955. p. 25.

الأرمنى Sébêos (القرن السابع الميلادى) ، الذى كتب عن « تاريخ هرقل »[١]، وكان شاهداً عياناً للغزو العربى فى فارس وأرمينية وآسية الصغرى حتى عصر معاوية، فكتابه يتناول مرحلة الفتوح الإسلامية الأولى، وأرمنى آخر باسم Ghevond[٢] (القرن الثامن الميلادى) ذكر أخبار الفتح العربى فى أرمينية ، وتعرّض لتاريخ الخلفاء فى الدولة العربية بالتفصيل[٣]، والبطريرك السريانى Dionysios Tellmahrensis «الذى ولد بقرب ماردين بالجزيرة، وكتب « تاريخ العالم» حتى سنة ٨٣٧ م[٤]؛ ولا يهمنا منه غير الجزء الرابع الذى أشار فيه إلى حوادث الدولة العربية ، وإن كان مملوءاً بالأخطاء، و Michael Syrus (م ١١٩٩ م)، الذى كتب « التاريخ » بالسريانية حتى سنة ١١٩٤ — ١١٩٥ م[٥]، وتناول فيه حوادث وأخباراً تتعلق بالعرب والبيزنطيين ، ويوحنا النقيوسى (توفى أواخر القرن السابع الميلادى) ، وهو قبطى كتب فى « التاريخ »[٦] باليونانية عن مصر منذ الفراعنة ، تكلم فيه عن فتح العرب لمصر ؛ وإن كان جل اهتمامه بتاريخ الكنيسة اليعقوبية، وقد ضاعت النسخة الأصلية لكتابه ، ولم يتبق منها إلا نسخة حبشية ؛ وقد

---

(١) أنظر الترجمة إلى الفرنسية ، بعنوان : Histoire d'Héraclius par, l'évêque Sébêos, traduite de l'arménien et annotée par Macler. Paris, 1904.

(٢) أنظر . Macler : L'Islam dans la Littérature arménienne. R. E. I, 1932, p. 493—4 et n (3).

(٣) أنظر الترجمة إلى الفرنسية: Histoire des guerres et des conquêtes, des Arabes en Arménie, par l'éminent Ghevond varabed arménien, écrivain du VIIIe siècle, traduite par Gardabed V. Chahnzarian et enrichie de notes nombreuses. Paris, 1856.

(٤) أنظر الترجمة إلى الفرنسية ، بعنوان : Chronique de Denys de Tell-Mahré, publiée et traduite par Chabot. Bibl. de l'école des Htes Ets. 112, 4 ème partie. Paris, 1895.

(٥) أنظر ترجمته إلى الفرنسية: Michel le Syrien: Chronique. ed et trad. Chabot. 4 vols, Paris, 1899—1910.

(٦) أنظر الترجمة العرنسية : Chronique de Jean, evêque de Nikiou. Texte Ethiopien, publié et traduit par Zotenberg. Paris, 1879.

نذكر بعض قصائد شعبية أسبانية « Romencero »[1]، تتناول قصة الفتح العربى فى أسبانيا وظروفه ؛ وأخيراً المدونة العامة التى أمر بتصنيفها Alfonso X el-Sabio، ليدون فيها تاريخ أسبانيا منذ بدايته، وهى المعروفة باسم: « Primera Cronica General de Espana »[2]، التى نقل فيها عن مصنفين عرب وغيرهم .

ثم كتب باللغة العربية ألفها مسيحيون أيضاً أغلبهم من رهبان عاشوا فى أديرتهم فى دار الإسلام ، وهى وإن كانت تهتم بتاريخ الكنيسة فى الشرق؛ إلا أنها تفرد مكاناً للأخبار السياسية ، بحيث أن بعضهم يذكر أخبار كل خليفة. فنذكر: البطريرك أفتيشيوس «Eutychius» ، المكنى سعيد بن بطريق (القرن الثامن والتاسع) ؛ الذى ألف كتاباً سماه : « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »[3]، وهو تاريخ طويل ، يبدأ بآدم إلى سنى الهجرة الإسلامية ، وأهميته فى أنه يربط مابين أخبار الروم والعرب ، وسويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين (توفى حوالى القرن العاشر الميلادى) ، وله عدة كتب منها: «تاريخ المجامع»[4]، وهو يمثل وجهة نظر الكنيسة اليعقوبية المصرية ، و « سير البيعة المقدسة »[5]، وهو عبارة عن تاريخ لبطاركة الكنيسة المصرية؛ وإن كان يهتم بالناحية السياسية ويقدم معلومات دقيقة ، بحيث يُعتبر مصدراً هاماً لتاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وأغابيوس محبوب بن قسطنطين الرومى المنبجى (Agabios) ، وهو مسيحى عربى، عاصر الخلافة العباسية، وألف كتاباً فى التاريخ الكنسى سماه : « العنوان »[6]،

---

(١) ترجمتها إلى الفرنسية: Le Romencero, introd. : Mathilde Pömès et trad. Paris, 1947.

(٢) وقد نشرها Pidal فى مجموعة : Nueva Biblioteca de Autores Espanoles, t. V. Madrid, 1906.

(٣) سنستخدم طبعة بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ ، فى جزءين .

(٤) حققه Leroy فى Patrologia Orientalis P. O.) t. 6. :

(٥) حققه وترجمه Evetts ، فى ذات المجموعة السابقة ، الجزء الاول والخامس والعاشر ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .

(٦) تحقيق وترجمة Vasiliev بجزء أول وثان ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ .

تعرّض فيه لأخبار الدولة العربية ، ونذكر كتاباً لمؤلف مجهول بعنوان : « تاريخ النسطوريين »[١] ، فيه أخبار عن النسطوريين والساسانيين ، والعلاقة بين هؤلاء والنصارى ، ونذكر الشيخ المكين جرجس بن العميد (م ٦٧٢ / ١٢٧٣) ، الذى ألف كتاباً سماه : « تاريخ العرب »[٢] ، عبارة عن مختصر لما أورده الطبرى ، وهو أول من عرف من مؤرخى الشرق للأوربيين[٣] ، وأخيراً الأب غريغوريوس أبا الفرج المعروف بابن العبرى (م ٦٨٥/ ١٢٨٦)، وللأوربيين باسم Barhebraeus، وقد ولد فى ملطية،وكان على معرفة باليونانية والسريانية والعربية، وألف كتاباً فى التاريخ سماه : «تاريخ مختصر الدول »[٤] ، تعرّض فيه لأحداث الدولة العربية.

وأخيراً يجب ألا نقتصر على المصادر الأصلية لتاريخ الدولة العربية ، ولكن يجب أن نطلع أيضاً على **المراجع الحديثة** ، التى تعتمد فى كتابتها على التحليل والتفسير ، واتباع قواعد المنهج الحديث للتاريخ ؛ وإن كان لابد أن نقول إن المستشرقين كانت لهم اليد الكبرى فى توضيح معالمه ، بما نشروه من النصوص القديمة ، وبما ألفوه من كتب مبنية على أرض صلبة بمعرفة اللغات العربية واليونانية والسريانية والفارسية ، ويكفى أن نذكر أسماء بعض رواد الشرق العظام مثل :

---

(١) وهو يعرف أيضاً باسم : «Chronique de Séert»، نشره وترجمه إلى الفرنسية Scher، بعنوان: Histoire nestorienne inédite. (P. O.) vol 4; 7; 13.

(٢) حققه وترجمه إلى اللاتينية Erpenius ، بعنوان : Historia Saracenica. Lugduni-Batavorum, 1625.

(٣) أنظر Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam. Paris, 1921, 1, p. 83—4.

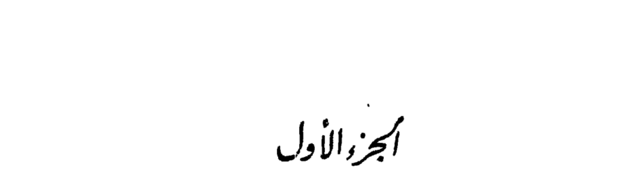
(٤) سنستخدم طبعة الأب أنطون صالحانى ،بيروت ١٨٩٠. وهذا الكتاب طبع لأول مرة سنة ١٦٦٣م، فى مدينة Oxoniae ، بالعربية واللاتينية على يد Pococke بعنوان : «Historiai Orientalis».

Sale و Nöldeke و Guidi و Zotenberg و O'Leary و Weil و Goldziher
Codera و Huart و Caetani و Lammens و Musil و Muir و
Becker و Bronnle و Wellhausen و Lévi-Provençal و Tor Andrae و
Caussin de Percéval و Van Vloten و Glaser و Canard و Margoliouth و
و Jaussen و Arnold و Wustenfeld, Blachère .. إلخ .

أما المؤرخون فى الشرق ، فيكفى أن نذكر منهم هذه السلسلة التى زودت المكتبة العربية بكتب قيمة فى تاريخ الدولة العربية أو فى بعض نواحيها ، مثل : الألوسى ، وأحمد زكى باشا ، ونعمان الجارم ، وفيليب حتى ، وسيد أمير على ، والعبادى ، وجرجى زيدان ، وكرد على ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ونقولا زيادة ، وبشر فارس ، ومحمود زايد ، والشيخ الخضرى ، وشعيرة ، وحسن إبراهيم ، وحسين مؤنس ، وجواد على ، وشيخو ، والريس .

* * *

هذه نظرة عامة على أهم المنابع التى يمكن أن ينهل منها الباحث فى تاريخ الدوله العربية ؛ تناولت أهم المصادر والكتب والمؤلفين .


الجزء الأول

الفصل الأول

عصر الجاهلية

جغرافية جزيرة العرب — التكافل عند البدو — حياتهم الإجتماعية البدائية — عقيدتهم الوثنية — وسائل معيشتهم — صناعة الشعر — مواطن الحضر — حضارة اليمن القديمة — حواضر الحجاز — مملكة النبط — مملكة تدمر — مملكة الغساسنة — مملكة الحيرة .

لاريب فى أن دراسة العصر السابق على الإسلام ؛ تمكننا من أن نفهم تاريخ الدولة العربية فهماً صحيحاً ، ونقصد به العصر الذى سماه القرآن[1] : «الجاهلية». فهذه الكلمة — كما تبدو — لا تؤخذ بمعنى الجهل نقيض العلم[2]، أو السفه والغضب والأنفة[3] ، ولكنها تعنى — ولاريب — الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام ، أو زمن الفترة التى قبل الإسلام[4] ، وإن لم يكن من الممكن تحديدها بزمن[5] .

وإلى حد كبير يتعلق التاريخ الأول للعرب بظروف بلادهم الجغرافية ،

---

(١) أنظر . القرآن ٣٣ : ٣٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، بولاق ١٣٠٣ هـ ، ١٣ ص ١٣٦؛ انظر . Gold : Muhammedanische Studien erster Theil. Halle, 1889 S 219-228. جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٧ — ٨ .

(٣) أنظر . أحمد أمين ، فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٥ ، ٦٩ .

(٤) لسان ، ١٣ ص ١٣٧ — ١٣٨ ؛ انظر . الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، ١ ص ١٥ .

(٥) تبدو الجاهلية فى هذه الآية أنها تشمل عدة عصور : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ٣٣ : ٣٣ ﴾ . فلعل هذه الجاهلية كانت قبل مولد إبراهيم ، المعروف على أنه

وهى البلاد التى عرفها القدماء عادة باسم عربة « Arabia »[١]، والمسلمون باسم «جزيرة العرب»[٢]. وتحد قبل الإسلام من بحر القُلزم – وهو البحر الأحمر – إلى الخليج العربى (الفارسى)، ومن اليمن إلى أطراف الشام[٣].
فهذه البلاد تتكون فى الداخل من «بادية»[٤]، تنحدر من جبال مرتفعة عبارة عن هضبة وصحارى ونجود، ليس فيها أنهار، ولكن بها بعض العيون أو الآبار التى يجرى فيها الماء[٥]. وعلى العكس تتكون أطراف الجزيرة من «التهائم»[٦]، وهى الوديان التى يسقط عليها المطر، وبسبب إحاطة البحر بها من ثلاث نواحٍ ما عدا الشمال، سميت بلاد العرب «بالجزيرة».

ونحن لا نريد أن ندخل فى تفاصيل أصل سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام[٧]،

---

(١) Pliny : Natural History, transl. Rackham. London, 1949, 6 : 32, 159—192 (vol. 2, p, 259.)

(٢) الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ١ص ١ و٧و٨و٢٩؛ ابن قتيبة، المعارف، تحقيق Wüst، طبعة Gottingen، ١٨٥٠، ص ٢٨. يقول ياقوت: إنها تسمى أيضاً باسم «عربة»؛ ومن هنالك قيل للعرب عربى. أنظر. معجم البلدان، تحقيق الخانجى، القاهرة ١٣٢٣/ ١٩٠٦، ٦ ص ١٣٨؛ Ency. de l'Isl, (art Djizîrt al-'Arab.) 2éd, I, p. 532 sqq.

(٣) أنظر. Hogarth : Arabia. Oxford, 1922, p. I.؛ الألوسى، ١ص ١١.

(٤) سميت هكذا لبروزها وظهورها، وهى من بدا الى كنا بدواً إذا ظهر. ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ٣٠.

(٥) البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق de Goeje، طبعة Lyede ١٨٦٦، ص٥٣.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ٤٣٦ – ٤٣٨.

(٧) نعرف أن سكان الجزيرة من الجنس السامى، ويظهر أن تسميتهم «عرباً» ليست قديمة؛ بدليل أن المصريين القدماء لم يذكروا كلمة عرب، وإنما قالوا «شاسو»، ويقصدون بذلك الأسيويين أو البدو (أنظر. Drioton et Vandier : Les Peuples de l'Orient Méditerranéen. Paris, 1946, p. 281. 21.; 403.؛ على مظهر، العصبية عند العرب فى الجاهلية والإسلام حتى زوال بنى أمية، مصر ١٣٤٢/ ١٩٢٣، ص ٩ — ١٠). وعلى العكس ذكرهم الأشوريون والرحالة القدماء بلفظة عرب «Aribi» أو «Arubu» (أنظر. Rawlinson : Cuneiform Inscriptitons, 1881-1884, Musil: vol.3,p.18؛ Arabia Deserta. New-York, 1927, p. 477 — 9.؛ Pliny : Op. cit. 6:32, 159.)، بصرف النظر عن أن تعنى قومية معينة =

وإنما التعارض الجغرافي بين داخلها وأطرافها ؛ كان سبباً في وجود نوعين من السكان، كما يحدث في كل بيئة مماثلة : ففي الداخل وُجِـد البدو أو الأعراب [1] ، الذين عودتهم حياة البادية بفقرها وجفافها عدم الاستقرار، فهم إما مغيرون يقومون بالغارة على السهول المجاورة [2]، أو رعاة يجرون وراء الأمطار النادرة ، والآبار القليلة؛ أما في أطرافها فقد وجد نوع من السكان الحضر المستقرين ، الذين يقومون بالزراعة أو التجارة [3] أو الصناعة [4].

ومنذ القدم، وجزيرة العرب تشمل النوعين من السكان: البدو والحضر [5]، فالبدوي يرى في الحضري فريسة شرعية في سبيل الحياة [6]، والحضري يُنزل

= أو جنساً معيناً ، وإنما سكان بلاد العرب . ومن ناحية أخرى ينسب جميع المؤرخين المسلمين الأوائل العرب إلى شخص بعينه هو يعرب بن إسماعيل (ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٠ س ١٧ وما بعدها)، كما أنهم يقسمونهم إلى أنواع (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق Lévi - Provençal ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٦ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ٣ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ؛ انظر . A Dictionary of Islam. London, : Hughes 1885, p. 17 - 20 ؛ طه حسين ، في الأدب الجاهلي، ص ٨٥) ، مثل : العرب البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس، والعرب الباقية وهم العاربة ويقصد بهم القحطانيون سكان الجنوب أو اليمن ، والمستعربة ويقصد بهم الإسماعيلية أو العدنانية سكان الشمال أو الحجاز ، وهم لم يكونوا يتكلمون العربية في الأصل [مع أن سكان اليمن — القحطانيين — هم الذين لم يكونوا يتكلمون العربية أصلاً، وإنما لغة المسند .أنظر. طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ٨٢ — ٨٣]. فلعل هذا التقسيم هو تذكار لتطور خاص بسكان الجزيرة منذ زمن بعيد (أنظر . Poliak: 'L' Arabisation de l' Orient Sémitique. R. E. I., 1938, p. 38) أو لعله راجع إلى أنهم كانوا أكثر من جنس. أنظر. Vie de Mahomet,: Lam et Dug. I, p. 17 ; n (1).

(١) الألوسي ، ١ ص ١٢ .

(٢) أنظر . Pliny : Op. cit. 6: 32; 159 — 162 (vol. 2, p. 459 ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٨ .

(٣) أنظر . Pliny : Op. cit. 6 : 32 ; 162 (vol. 2, p. 461).

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ .

(٥) نفسه . لدينا تسميات أخرى تدل على النوعين ، منها : أهل الوبر والمدر والحجر والحسر أنظر . ابن سعد ، طبقات ، تحقيق Sachau ، ١ / ٢ ص ٥١ س ٢٢ ؛ لسان ، ٧، ص ١٣٣ ؛ حاجي خليفة ، ١ ص ٢٥ .

(٦) Procopius : History of the Wars. Transl . Dewing, London, 1954. 2:19;12 (vol.1, p. 421) ؛ أنظر . Bertram: Les Arabes, trad. Muret. Paris, 1946, p.8.

البدوى منزل الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان[١]، ولذا كان جيران جزيرة العرب من الشعوب المتقدمة — كاليونان والرومان — يعتبرون سكان الصحارى عموماً « برابرة »[٢] أى متوحشين ، ويسمونهم « Saraceni » أو « السراقنة »[٣]، وربما كان اشتقاق كلمة « شرقيين »[٤]، من هذه الكلمة الأخيرة .

وكانت حياة البدوى صراعاً دائماً بينه وبين بيئته القاسية ، وإن كان لا يقدر أن يعيش فى القفر بمفرده ؛ وإلا كان طعمة لغيره[٥]، ولذلك تجمع فى وحدات تقوم على أساس صلة الدم ، سميت بأسماء مختلفة[٦]، لا نعرف وقت ظهورها ؛ وإن كانت عادة تدل على أعدادها من حيث الكبر والضآلة، مثل: جماهير، وشعب، وقبيلة[٧]، وعمارة ، وبطن، وفخذ، وعشيرة، وفصيلة، ورهط،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ س ٢٧ .

(٢) أنظر . Procopius: . Op.cit. 1: 19 ; 7—16 (vol. 1, p. 181)

(٣) أنظر . Ibid.2 : 19 ; 12 (vol. 1, p. 421) ؛ أنظر أيضاً Ency. Brit. vol. 19,p. 287 . لهذه الكلمة تفسيرات مختلفة، منها : أنها قد تكون مأخوذة من اسم قبيلة من سكان أعالى الجزيرة على حدود الشام بجانب جبل السراة «Saraka» ، أو على اسم سارة زوجة إبراهيم المعروف بأنه أبو العرب (أنظر. Gibbon:(Op cit,5, p216;n(3)؛ أو أنها قد تكون مشتقة من فعل « سرق » ، إشارة إلى غارة العرب . أنظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٧٩ .

(٤) أنظر . سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٢ س ١ — ٢ ، بعامة، انظر . Ency. del'Isl, (art. Badw) 2 éd. t.I, p. 896 sqq.

(٦) أنظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، ١ ص ٣٠٨ وما بعدها ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٣ ، ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٦.

(٧) أنظر القرآن (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ٤٩ — ١٣) . الشعب جمعه شعوب وهو أكبر من القبيلة (أنظر المقريزى النزاع والتخاصم ، حققه G. Vos، طبعة Leiden ، ١٨٨٨ ص ٦٥) ، والقبائل من قبيلة لتقابلها . أنظر . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٢٩٣ هـ ، ٢ ص ٢٥ .

ومعشر(١)، وحيّ (٢)، وقوم(٣)، وإن كان أكثر الوحدات شيوعاً بين البدو القبيلة(٤).

ولكن صلة الدم التى كانت وسيلة الإتحاد والالتحام بين سكان الصحارى، لم تنتج نظاماً سياسياً حقيقياً، وإنما نوعاً من التكافل الضئيل بين الأفراد بعضهم لبعض(٥)، فكل فرد فى الجماعة له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات، ذلك لأن الحياة فى الصحراء تخلق المساواة: فإن كانت الشعوب تفخر بقوميتها، فإن سكان الصحارى من البدو يحق لهم أن يفخروا بحريتهم الشخصية(٦). ولذلك كان العربى لا يحتمل «الضيم»، بحيث أن الشاعر شبه من يقبل الضيم، بالكلب(٧)، أو بالحمار، أو بوتد الخيمه(٨).

ومع ذلك كان على البدو أن يخضعوا لواحد منهم يرشحونه للرياسة عليهم،

(١) أنظر. قول الشاعر:

فداء لقومى كل معشر جازم طريد ومخذول بما جر مسلم.

أنظر. الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة ١٣١١ هـ، ١ ص ٧٣ س ١٣.

(٢) أنظر. قول الشاعر:

فلما تنازعنا الحديث سألتها من الحى قالت معشر من محارب.

أنظر. الجاحظ، البخلاء، القاهرة ١٣٢٣ هـ، ص ١٨٤.

(٣) الجاحظ، البيان ١ ص ٧٣ س ٨و١٣.

(٤) النويرى، ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٦.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٩٥ س ٢٤ — ٢٥.

(٦) أنظر. Gibbon : Op. cit. 5, p. 215. : Bertram, Les Arabes, p. 28.

(٧) أنظر قول الشاعر:

انى امرؤ من بنى خزعة لا أقبل ضيماً مالم أقد كلباً.

أنظر. البحترى، كتاب الحماسة، تحقيق شيخو، بيروت، ص ٢١.

(٨) أنظر قول المتلمس

ولا يقيم على ذل يراقبه إلا الأذلان عير السوء والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد.

البحترى، ص ٢٠ ؛ النويرى، نهاية، ٣ ص ٦٤.

تكون مهمته الأصلية الإبقاء على وحدة جماعتهم، ويسمونه لذلك: «سيد»[١] أو «رئيس»[٢] أو «شيخ»[٣] أو «أمير»[٤]. فكانوا يختارونه بما وقر في نفوسهم نحوه من قوة شخصيته وتجربته[٥]، أو من شجاعته في الدفاع عن جماعته[٦]، أو حتى لغناه حين لا يكون أحد آخر أغنى منه[٧]. ومهما يكن سبب إختياره، فإنه كان يجب أن يتصف بصفات منها شيمة «الحلم»[٨]، التي تجعله يتكلم بتؤدة، وهو يمسح على لحيته الطويلة، التي أصبحت تدل على سيد العرب[٩]. كذلك كان «الكرم»[١٠]، من أهم الصفات المطلوبة في رئيس الجماعة،

---

(١) أنظر قول الشاعر:

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول.

أنظر. أبو تمام، ديوان الحماسة، القاهرة ١٣٢٢ هـ، ١ ص ٢٥؛ النويري، ٣ ص ٢٠٢.

(٢) ابن هشام، سيرة رسول الله، تحقيق Wüat، ١ ص ١١٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠١؛ أنظر. Jaussen : Coutumes des, Arabes au pays de Moab. Paris, 1908, p. 127.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مصر ١٣٤٩ هـ، ٢ ص ٢٢١ س ٢٦؛ انظر. ديوان قيس بن الحطيم، تحقيق Kowalski، طبعة Leipzig، ١٩١٤، ص ١٥. يذكر Goldziher أنه كان يسمى أيضاً: «زعيم».

أنظر. Gold : Muh. Stud. 2, p. 52; n (4).

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠١

(٦) العقد، ٣ ص ١١١؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، تحقيق Brockl، طبعة Berlin ١٩٠٠، ص ٢٣٣ وما بعدها. أنظر قول الشاعر:

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

أنظر. الجاحظ، الحيوان، تحقيق هارون، القاهرة ١٣٥٦ — ١٣٦٦ / ١٩٣٨ — ١٩٤٧، ٢ ص ٩٥.

(٧) العقد، ١ ص ٢١٩؛ انظر. Bichr Farès : L' Honneur chez les Arabes avant Islam. Etude de Sociologie. Paris, 1932, p. 136.

(٨) ابن قتيبة، عيون، ١ ص ٢٨٢ وما بعدها؛ انظر. Farès : Op. cit, p. 55. قالت العرب «احلم تسد». انظر. الألوسي، ١ ص ٩٩ — ١٠٣.

(٩) أنظر. Gibbon : Op. cit, , p. 218.

(١٠) ابن قتيبة، عيون، ٣ ص ٢٣٩؛ العقد، ١ ص ١٠٨ وما بعدها؛ النويري، نهاية، ٣ ص ٢٠٨ وما بعدها؛ انظر. Farès : Op. cit, p. 55. أشهر من ضرب بهم المثل في الجاهلية في الكرم: حاتم الطائي، وكعب بن مامة. النويري، ٣ ص ٢٠٨؛ انظر. الألوسي، ١ ص ٧٢ — ٨٢.

لذلك كانت خيمته حمراء[١]، لتُعرف بسهولة، كما يُشعل حولها نار[٢]، أو توضع في أعلى مكان ليراها من يريدها، أو تربط بجوارها الكلاب[٣]؛ مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه. ومن ناحية أخرى كان العرب يرجعون إلى كبار السن منهم أو من يُعرفون «بالحكام»[٤]، يحكّمونهم في أمورهم. ومع ذلك، فلم يكن هناك تقليد معين واحد بين العرب، لاختيار الرئيس.

وقد أوجدت صلة الدم عند البدو ما يُعرف «بالحسب»[٥]، وهو خلال الآباء والأجداد من أهل عشيرته. التي جاءت نتيجة طبيعية لثمرة «النسب»[٦]؛ فكان العربي يجد في جماعته «العزّة»، ويعتبر كل غريب عنها «ذليلاً»[٧]، ويسميه «اللزيق»[٨]، أما من تطرده جماعته وتحرمه من حمايتها فيسمى «الخليع»[٩]. وكان إفراط البدوي في الاعتزاز «بحسبه» سبباً في وجود مبدأ «العصبية»[١٠]، وهو أن يُنصر الفرد في الجماعة ظالماً أو مظلوماً، بحيث إذا وقع سوء لأحد منهم، فكلهم مسئول عن مد يد المعونة إليه بحكم عصبيتهم[١١]. ومما أجج

---

(١) ابن سعد، ١ ص ٤١ س ٨.

(٢) أنظر قول الشاعر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار.

أنظر. البخلاء، ص ٢٠٤. وهذه النار تسمى: «نار القرى»، وكلما كانت أضخم، وموضعها أرفع، كانت أفخر، وهم يتمادحون بها. أنظر قول الشاعر أيضاً:

إذا ضل عنهم ضيفهم، رفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمرا.

أنظر. النويري، ١ ص ١١٣ س ١ وما بعدها.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ١ ص ٣٦٧و٣٧٩و٣٨٦؛ انظر. الألوسي، ١ ص ٣٧٥.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ١ ص ٢٩٩؛ انظر. الألوسي، ١ ص ٣٠٨ ومابعدها.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٦.

(٦) نفسه، ص ١٠١ س ١٩، ١٠٢، ١٠٦؛ لسان، ١٣ ص ١٣٨.

(٧) العقد، ١ ص ٣٣٨؛ انظر. Ferès : L' Honn. p. 145.

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٥ س ٣.

(٩) الحيوان، ١ ص ١٦٦؛ انظر. الألوسي، ٣ ص ٢٨.

(١٠) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠١ س ٦، ص ١٠٦ س ١٦ — ١٧؛ انظر. علي مظهر، العصبية عند العرب، ص ٣٠ وما بعدها.

(١١) أنظر قول الشاعر:

لا يسألون أخاهم، حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا.

أبو تمام، الحماسة، ١ ص ٤.

العصبية اشتعالاً ، أن طبيعة البدوى نارية بحكم قسوة البيئة ، وأنه يمكن إثارته إلى المعركة بنداء عاطفى ، أو قصيدة من الشعر الحماسى . ومن هنا وجدنا بعض العبارات التى تدل على ذلك ، مثل : « الحمية »[1] و « النعرة »[2] و « الظن »[3] .

ومظهر الإفراط فى العصبيه الوقائع المستمرة بين البدو ، وهى ما يعرف « بأيام العرب »[4] ، حتى أن من كان يغامر بالذهاب إلى غير أرض قبيلته ، فكأنه يغامر بحياته ، وكان تطاحن البدو يقع أيضاً بسبب النزاع على موارد الماء والكلاء . ولكثرة سيل الدماء جعل البدو أربعة أشهر حرماً[5] ، لا يتقاتلون فيها ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وإن لجىء إلى نقصانها ، وهو ما يعرف « بالنسىء »[6] . كذلك جعلوا لهم أسواقاً فى كل أنحاء الجزيرة ، يجتمعون فيها ويأمنون على دمائهم وأموالهم[7] ، منها : دومة الجندل وعكاظ والمجاز وعدن وهجر . وأخيراً فإنه وجد عند البدوى ما يعرف « بحمى

---

(١) لسان ، ١٨ ص ٢١٦ ــ ٢١٧ ؛ الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ٤ س ١ ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٧ س ٢٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٦ س ١٧ .

(٣) لسان ، ١٧ ص ١٤٢ وما يليها .

(٤) الميدانى ، مجمع الأمثال ، الباب التاسع والعشرين ، ٢ ص ٢٦٠ وما يليها . نذكر من هذه الوقائع ــ التى بلغ عددها على حسب قول « Gibbon » ١٧٠٠ معركة (أنظر . Decline, 5, p. 219; n. (1)) ــ يوم « داحس والغبراء » ، التى سمى على اسم حصانين ، وهى كانت بين عبس وذبيان بسبب التراهن على الخيل ، واستمرت أربعين سنة (أنظر . المعارف ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، طبعة القاهرة ، ١ ص ٣٤٣ وما بعدها) ، ويوم « الفجار » ، الذى سمى هكذا بسبب أنه وقع فى الأشهر الحرام ، وكان بين قريش وكنانة (أنظر . ابن هشام ، ١ ص ١١٧ ــ ١١٩ ؛ حسن إبراهيم ، الدولة العربية ، مصر ١٩٤٨ ، ص ٦٠ ــ ٦٣ ؛ جمال سرور ، قيام الدولة العربية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢١) ، ويوم « الغبيط » ، الذى كان بين تميم وبكر بسبب تعدى الأولى على أراضى الثانية المسماة الغبيط . أنظر . ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٣٦٤ وما بعدها ؛ الميدانى ، ٢ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ . بعامة ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art 'Ayâm al-'Arab) 2 éd t. 1, p. 816.817.

(٥) القرآن ٩ : ٣٦ .

(٦) نفسه ٩ : ٣٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Nasi').3, p. 915-16
يقول الشاعر :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل ، نجعلها حراماً .

أنظر . النويرى ، نهاية ، ١ ص ١٦٦ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ ــ ٣١٥ .

الجار »[١] أو « منع الذمار »، التى يمنحها الفرد أو الجماعة طواعية إلى من يطلب النجدة والإغاثة وحتى الطعام. ولقد كان من صفات العربى « الوفاء »[٢]، فكان يلقى بوعده أمام نار مشتعلة[٣]، أو يدخل يده فى جفنة مملوءة بالدم[٤] أو العطر[٥]، دليلاً على تمسكه الشديد به .

وتظهر قدسية العصبية بخاصة فيما يعرف « بالثأر »[٦]، وهو يحدث غالباً نتيجة للحوادث الفردية ، التى كثيراً ماتجر إلى الوقائع بين جماعات البدو . فكان أهل من يراد أن يثأر له يعدون أنفسهم مرضى نفسانياً[٧]، حتى يدركوا وترهم . فكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية[٨]، منها: أن يجزوا شعورهم ، ويقصّروا أثوابهم ، ويمتنعوا عن أكل اللحم[٩]، وشرب الخمر[١٠] ، والإختلاط بالنساء[١١]. وكانت بعض الخصومات تتوقف

(١) العقد ، ١ ص ٥١ ؛ Quat : Mémoire sur les Asiles chez, les Arabes. Paris, 1845. أنظر . قول السموءل بن عادياء :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل .

أنظر . ابو تمام ، الحماسة ، ١ ص ٢٣ .

(٢) النويرى ، ٣ ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ١ ص ١١١ س ٣ . وتسمى : « نار التحاليف » .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٢٥ .

(٥) أنظر . قول زهير بن أبى سلمى :

تدارکتما عبساً وذبيان بعد ما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم .

أنظر . جمهرة ، ص ٤٩ س ١ .

(٦) البحترى ، الحماسة ص ٢٨ — ٣١ ؛ أنظر . Lammens : L'Arabie, Occidentale avant l'Hégire. Beyrouth, 1928, p. 181 — 237.

(٧) أنظر . قول الشاعر:

ألم يأتها أنى صحوت وأننى   شفانى من الداء المخامر شاف .

أنظر . الجاحظ ، الحيوان ، ٦ ص ٤٢٢ .

(٨) أنظر . عن هذه الطقوس : Lammens ; Occid , p. 185. ; Farès : L'Honn, p. 72 sqq.

(٩) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١٧ .

(١٠) أنظر . قول قيس بن الحطيم :

ومنا الذى آلى ثلاثين ليلة   عن الخمر حتى زاركم بالكتائب .

أنظر . ديوان ، تحقيق Kowalski ، طبعة Leipzig ، ١٩١٤ ، س ١٤ ؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٦٧ .

(١١) الأغانى (طبعة بولاق) ، ٤ ص ١٤٨ . أنظر . قول الشاعر :

فاذهبى ما إليك غير بعيد   لا يؤاتى العناق من فى الوثاق.

نتيجة تعويض على هيئة « دية » ، تعطى لقريب المقتول(١)، مقدّرة بعدد من الإبل ، ولكن قتل القاتل كان أفضل الحلول(٢). ومع أن الثأر فيه وحشية ظاهرة ، إلا أنه كان – ولا ريب – بمثابة القانون فى البادية ، الذى يحد من فوضى القتل(٣).

أما حياة البدوى الإجتماعية فى هذه البيئة فهى فطرية ، فالرجل هو كل شىء فى أهله ، والمرأة لا تعتبر عضواً فيها ،فهى تورّث كما يورّث المال(٤)، وكان الذى يرثها أكبر الأولاد،فإن لم يكن له فيها حاجة أخذها أحد إخوته(٥). وكانت العلاقة بين الرجل والمرأة فطرية فى أول الأمر(٦)، ولكن قبل ظهور الإسلام أصبح الرجال يبقون على نسائهم بجوارهم(٧)، فقد وجدت كلمة« نكاح»(٨)، وفسرت على أنه يقصد بها الزواج،حيث يقدّم لها« مهراً»(٩)، من الإبل والمال « أى ما يملك »(١٠). وهذا – ولا ريب – أقرب إلى الطبيعة الإنسانية، وأكثر تأييداً لنظام الأسرة ، والرفع من شأن المرأة.

---

(١) البلاذرى، فتوح ، ص ١٧؛ انظر .جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٦٨ .

(٢) أنظر . قول الشاعر :

فخذها (أى الدية) فليست للعزيز بخطة وفيها مقال لامرىء متذلل .

أنظر . البحترى ، الحماسة ، ص ٢٠٨ .

(٣) أنظر Essad Bey. Mahomet(571-632). Paris, 1948. p. 21.:

(٤) أنظر القرآن ﴿ ياأيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ٤ :١٩﴾.

(٥) النويرى ، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(٦) الحيوان ١ ص ٢١ – ٢٢ ؛ انظر. Bertram : Les Arabes, p. 9.

(٧) أنظر Bertram : Les Arabes, p. 10.

(٨) عيون الأخبار « كتاب النساء» ، ٤ص١٨ — ١٩ ،ص ٧٢؛المعارف،ص ٢٩٦.

(٩) النويرى، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(١٠) الداثى ،١ص ٩٣ ص ٩ . هذه الكلمة معناها ما يملك من جميع الأشياء ، وهى المال الناطق ، أى العبيد والحيوانات ، والمال الصامت ، أى النقود ، وهذه الأخيرة لم تكن يعرفها البدو. أنظر. لسان، ١٤ص١٠٨–١٠٩؛ Ency. de l'isl. (art Màl), t.3, p. 194.

ولم يكن عند البدو تحديد لعدد الزوجات[١]، فكان الرجل يتزوج بأكبر عدد ممكن من النساء؛ بقصد إنجاب عدد كبير من المقاتلة لجماعته التى ينتسب إليها[٢]، لذلك كان العقم غير مرغوب فيه، كما كان حب البدوى للولد يجعل العربى فى بعض الأحيان يغض عن نسب المولود[٣]، أوقد يدفعه إلى أن يُلقى بزوجته بين ذراعى غيره لتنال منه الولد، وكان هذا يسمى: «نكاح الاستبضاع»[٤]. وكانت الأم إذا ولدت ذكراً هنأها أفراد القبيلة، وذبحوا الذبائح[٥]، ولذلك كان يقال: «بالرفاء والبنين» لا البنات[٦]؛ كما كان البدو يسمون أبناءهم بأسماء قاسية، مثل[٧]: حجر وصخر وأسد وليث وضرغامة ومصعب وتأبط شراً وطارق، لما يتفاءل فيه الشدة والصلابة[٨]، أو ينسبونه لآلهتهم، مثل: عبد العزّى وعبد مناة وعبـــد الله[٩]، وكان الأب يُسمى باسم ابنه ومن هنا كانت التكنية: «بأبى[١٠]». وعلى العكس من ذلك ينفر البدوى من نسل

---

(١) جمهرة، ص١ ٢س٦؛ انظر. Perron: Femmes Arabes avant et depuis l'islamisme. Alger, 1856, p. 31.
ينقل أن الشاعر لبيد بن ربيعة نكح خمسمائة امرأة من نساء بنى عامر.

(٢) الحيوان، ١ ص ١٠٨.

(٣) نفسه، ١ ص ١٠٨ — ١٠٩.

(٤) لسان، ٩ ص ٣٦١؛ انظر Huart: Histoire des Arabes. Paris, 1912, I, p. 18.

(٥) البخلاء، ص ١٨٠؛ انظر. Jaussen et Savignac: Coutumes des Fuqara, suppl au vol. 2 de la Miss. Arch. en Arabie. Paris, 1930, p. 14 sq.

(٦) الميدانى، ١ ص ٦٦.

(٧) الحيوان، ١ ص٣٢٤ ومابعدها. نذكر بهذه المناسبة أن أسماء القبائل كان يشتق فى الغالب من اسم حيوان أو نبات أو كوكب (نفسه، ١ ص ٣١٣ وما بعدها). فلعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بأن للاسم صلة روحية أوقومية، وهو مايعرف حديثاً بكلمة فى لغة الهنود الحمر تعرف: «بالطوطمية» «Totem»، وتفسيرها غامض قد يعنى دور الأمومة، أو اللقب الذى تسلسلت عنه. أنظر. جواد على، تاريخ العرب، ١ ص ٣٣٦؛ دراز، الدين، ص ١٤٤ — ١٤٥؛ Saurat: Hist. des Religions, IIème éd. Paris. S.d., p. 28 — 32.

(٨) الحيوان، ١ ص ٣٢٤ س ١٢، ٣٢٦.

(٩) أنظر. الألوسى، ٣ ص ١٩٥.

(١٠) نفسه، ٣ ص ١٩٦.

الإناث خوف العار[١]، أو أن يسبين فى الحروب[٢]، أو خشية الإملاق[٣]، ولذا ظهرت عادة وأد البنات صغاراً[٤].

ومع أن المرأة لاأهمية لها فى هذه البيئة البدوية ، إلا أن « عِرض »[٥] العربى كان أهم شىء عنده ، فهى « الذمار »[٦] الذى يحميه الرجل ، وكلمة « عِرض » عند البدو تتكافأ مع كلمة « شرف » أو «حسب»[٧]،وذلك راجع إلى قدسية رابطة الدم ؛ التى هى أساس كيان العربى وسبب الإتحاد والإلتحام . فكانت المرأة التى يُنتهك عرضها تُقتل[٨] — وإن كانت تعتبر فى نظر العربى فريسة لضعفها[٩] — كما قد كان يُقتل السارق للعرض وهو يسمى«ذئب»[١٠]،أو تُسرق غنمه و تُقتل دابته و تُنهب خيمته[١١]،ولا يستقر العرض حتى يُسترد الشرف كاملاً. هذه النقطة الحساسة فى تكوين طبيعة البدوى العربى جعلتها مجالاً لهجوم أعدائه،فكان شرف البدوى أن يتقاصر أعداؤه عن

---

(١) القرآن ١٦ : ٥٩ .

(٢) النويرى ، ٣ ص ١٢٦ .

(٣) القرآن ١٧ : ٣١ .

(٤) نفسه، ٨١ : ٨ — ٩ .

(٥) أنظر . قول الشاعر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل .

أنظر . أبو تمام ، الحماسة ، ١ ص ٢٣ .

(٦) لسان ، ١٨ ص ٢٢٠ ، ٢١٨ .

(٧) نفسه ، ٩ ص ٣٢ — ٣٣ ؛ انظر. Farès : L'Honn, p. 43.

(٨) النويرى ، ٣ص١٣١؛انظر. Jaussen : Coutumes des Arabes au pays de Moab. Paris, 1903, p. 38. Farès : L'Honn, p. 77.

(٩) الأغانى (طبعة بولاق) ، ١٦ ص ١٦٤ ؛ انظر . Perron : Femmes Arabes, p. 151.

(١٠) لسان ، ١ ص ٣٦٤ .

(١١) أنظر. Jaussen : Moab, p. 37. Farès : L'Honn, p. 78.

امرأته[١]، بحيث أن الشعراء كانوا يُشترون بالمال حتى لاينالوا من العـرض[٢].

أماعقيدة البدوى العربى فهى أيضاً بدائية : فالبدوى لايهتم بالدين؛لأن حياته القاسية فى الصحراء لاتتفق مع الحياة الروحية ، والدليل على عدم إهتمامه بالدين أن الشعر الذى تركه لنا فى المعلقات لانجد فيه أى أثر للدين، كما أننا لم نسمع عن حدوث حروب بين القبائل وبعضها بسبب الدين ، مع كثرة هذه الحروب . ولكن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك أى جماعة إنسانية ظهرت دون أن تفكر بالغريزة فى الدين[٣]، لتعلل مصير الإنسان،وتقلب ظواهر الكون، ولذلك كان — ولا ريب — للعرب دين مثل غيرهم .

والواقع أن البدوى كان يميل إلى عبادة الحجارة[٤]، أما أسباب هذا الميل فغير معروفة . ولعل أصلها عبادة سامية تتلاءم مع مزاجه البدائى ، أو لعلها فى نظره مهبط لقوة غيبية ، أو رمز لسر غامض مبهم يستوجب التقديس . هـــذه العبادة الحجرية كانت أولاً فى الحجارة التى ليس لهـا صـــورة معينة ، وتسمى : « أنصاب » أو « نُصب » ،

---

(١) أنظر . قول الشاعر :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل .

النويرى ، ٣ ص ٢٧٦ ؛

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ، ٢ ص ١٨٩ ؛ انظر . Farès : , L'Honn, p 37 . فمثلاً اشترى عمر بن الخطاب من الشاعر الحطيئة أعراض المسلمين جميعهم بثلاثة آلاف درهم . أنظر . الأغانى .

(٣) أنظر . Bergson : , Les Deux Sources de la Morale et de la Religion. Paris, 1932, p. 105 ؛ دراز، الدين، ص ٣١ ، ٧٥ — ٧٦ ؛ الجارم، أديان العرب فى الجاهلية ، القاهرة ١٣٤١ / ١٩٢٣ ، ص ٤ .

(٤) الكلبى ، الأصنام ، تحقيق زكى باشا، القاهرة ١٩١٤ ، ص٦ س ٥ ومابعدها ؛ أنظر Huart. : Hist. des Arabes, p. 28.

ولعلها سميت كذلك لأنها أحجار واقفة أو منصوبة[١]. فكان العربي يعبد صخرة[٢]، أو حجراً ، أو نخلة[٣]، أو ما يستحسنه من الحجارة أو يعجبه[٤]. وقبل ظهور الإسلام ظهرت عبادة «الأصنام»[٥] و «الأوثان»[٦]، وهي مايكون على صورة التماثيل[٧] ، وذكر هيرودوت أن بعضها يرمز إلى آلهة يونانية[٨]. فلعل هذه العبادة جاءت من الشام[٩]، أو أنها أخذت من بني إسرائيل الذين كانوا يعبدون الأصنام من وقت لآخر[١٠]. فكان لكل جماعة بدوية صنم أو وثن، مثل: «يعوق»[١١]، و «العزى»[١٢]، و «يغوث»[١٣]،

---

(١) الأصنام ، ص ١٦ س ١٢ ، ص ٢٣ س ٩ ، ص ٤٢ ؛
انظر . Huart : Hist. des Arabes, p. 28. يقول جولد زيهر ان عبادة الأنصاب في أصلها قد ترجع إلى عقيدة الموتى عند العرب . أنظر . Gold : Culte des Ancêtres et le Culte des Morts. Paris, 1885, p. 5 sqq.

(٢) الأصنام ، ص ٣٧ ؛ انظر . Farès : L'Honn, p. 174.

(٣) ابن هشام ، ١ ص ٢٢ . أنظر . قول الشاعر :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة .

أنظر . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٩٩ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .

(٥) الأصنام ، ص ٨ س ١٠ ، ص ٣٣ س ٧ . وهي تكون على صورة إنسان من خشب أو ذهب أو فضة . نفسه ، ص ٥٣ س ١٥ .

(٦) نفسه ، ص ٨ س ١ ، ص ٣٣ س ٧ ، ص ٥٣ س ١٢ . وهي تكون من حجر . نفسه ، ص ٥٣ س ١٢ .

(٧) نفسه ، ص ٢٣ س ٧ .

(٨) أنظر . Herodotus, with an english translation, by Godley. Book 2 : 8 (Vol. 2, p. 11).

(٩) الأصنام ، ص ٨ س ٩ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٥ س ٧ .

(١٠) سعيد بن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ــ ١٩٠٩ ، ص ٦٩ .

(١١) الأصنام ، ص ١٠ س ٨ . كانت تعبده همدان في اليمن . ابن هشام ، ١ ص ٥٢ .

(١٢) القرآن : ٥٣ : ١٩ ؛ الأصنام ، ص ١٧ ــ ١٨ . كانت تعبد في الحجاز . ابن هشام ، ١ ص ٥٥ .

(١٣) الأصنام ، ص ١٠ س ٤ . وكانت تعبدها طي ومذحج بجوار الطائف. ابن هشام، ١ ص ٥٢ .

و « اللات »[١]، التي يسميها هيرودوت Alilat[٢] — وتشبه بأفرو وديت اليونانية — و « ود »[٣] و « مناة »[٤]. وقد كان مظهر عبادة هذه الآلهة أن يقيم البدو لها بيوتاً تعرف « ببيوت الأصنام » في الأودية[٥]، وفي ظلال الشجر[٦]، وقد يقيم لها سدنة وحجاباً[٧]، أو ينحر عندها ويدور بها[٨]. كذلك وجدت عند العرب بقايا ديانة قديمة عُرفت «بدين إبراهيم»[٩]، مؤداها عبادة الله[١٠] — رب إبراهيم النبي — وهي التي جاء الإسلام ليحييها، والحج إلى بناء مقدس في مكة من بناء إبراهيم ؛ يضعون فيه آلهتم[١١]، يُعرف «بالكعبة»، وهذا يدل على أن عبادة الله لم تكن حديثة ، فهي أقدم ديانة ظهرت في البشر[١٢]. كما عرفوا بعض الأديان السماوية[١٣]، لمجاورتهم لأهل الملل،

(١) القرآن ٥٣ : ١٩ . هي عبارة عن صخرة مربعة كان اليهود يطحنون غلالهم عندها ، تسمى أيضاً : « الربة » ، أي السيدة :
ابن هشام ، ١ ص ٥٥ ؛ انظر . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ١ ص ٢٧ .

(٢) أنظر . Herodotus 3 : 8 (Vol.2, p.li)

(٣) الأصنام ، ص ١٠ س ٣ . تعبده قضاعة في دومة الجندل . ابن هشام ، ١ ص ٥٢ ؛ انظر . جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣١٥ .

(٤) القرآن ٥٣ : ٢٠ . وهي إحدى إلهات يثرب .

(٥) ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٤١ س ٤ . وكانت تسمى أيضاً « طواغيت » . ابن هشام ، ١ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦) المصدر الأخير ، ١ ص ٥٥ .

(٧) السدانة تعني خدمة مكان مقدس مثل المعابد أو المساجد . أنظر . Dozy : Supplément aux Dictonnaires Arabes, 2éd. Paris. 1927, I. p. 642 — 643.

(٨) ابن هشام ، ١ ص ١٤٣ ؛ الأصنام ، ص ٤٢ س ٢ — ٣ ، س ١٩ .

(٩) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٤ س ١٦ .

(١٠) أنظر . Enc. de l'Isl, (art Allàh). I, p. 304 sqq . أنظر . قول زهير بن أبي سلمى .

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم .

أنظر . جمهرة ، ص ٤٩ س ١٩ .

(١١) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٦ .

(١٢) أنظر . دراز ، الدين ، ص ١٠٢ ؛ Saurat: Hist. des Relig, p. 41.

(١٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٦٣ ، ٢٩٨ .

والإنتقال إلى البلاد والإنتجاعات ؛ كاليهودية والنصرانية . ولكن البدو فى معظمهم لم يكونوا يهتمون بالأديان السماوية أو بالإله البعيد، فالصنم عندهم أقرب من الله، هذا فضلاً عن عدم وضوح فكرة الله، فالبعض يعتقد أن الملائكة هى بنات الله[1]. ومن هذا نرى أن عقيدة العربى كانت وثنية مغرقة فى الوثنية .

كذلك كان تصور البدوى للروح تصوراً غريباً : فهو يظن أنها تسكن الوديان والأحجار والأشجار[2]، ومعظم البدو لا يؤمنون بخلود الروح[3]، أو أن بعثاً كائناً بعد الموت[4]؛ فنجد بعض الشعراء يشبه الناس بالنبات الذى يجف[5]، أو بالعصافير والذبان والديدان[6]، وإن لم يمنع هذا من وجود عقيدة احترام الموت عند البدو، وهو ما يعرف « بالنعى »[7]؛ فكان الميت يكفّن ويدفن فى «قبر» أو «لحد»، وتنوح عليه النائحات[8]. لذلك ترك البدوى عقيدته على فطرتها ضعيفة تقبل الخرافات، فكان يطلب الفأل الحسن : بزجر الطير أو بأى شىء آخر[9]، وبالميسر وضرب القداح[10]، وبالاستقسام

---

(١) القرآن ١٧ : ٤٠ ، ٥٣ : ٢١ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٠ ؛ أنظر . Bertram : Les Arabes, p. 9.

(٣) القرآن ٤٥ : ٥٤ . (٤) نفسه ٢٣ : ٨٤ .

(٥) الشعر والشعراء ، ص ٣٥ .

(٦) أنظر . قول أمرىء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب .

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلجلة الذئاب .

أنظر . شعراء النصرانية ، جمعه شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٣٦ ؛ Farès : L'Honn, p 166.

(٧) أنظر . Gold : Culte des Ancêtres, p. 15; 22. ؛ الجارم ، أديان العرب فى الجاهلية، ص ٨٦ وما بعدها.

(٨) أنظر . Rebatsek : Some Beliefs and Usages, among the, Pre Islamic Arabs. Bombay, 1876, p. 164-168.
(يعتمد على نصوص شعرية ذكرها فى كتابه).

(٩) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ ، ٣ ص ٤٣٨ . الزجر هو التفاؤل ؛ وأغلب ما يكون بغراب إذا طار عن يسار البدوى فهو مدرك حاجته ، وإذا نعب أمامه أو فوقه نفيها تأخير . النويرى ، ٣ ص ١٣٤ وما بعدها ، ١٤٢ .

(١٠) نفس المصدر ، ٣ ص ١١٨ . الميسر هو القامرة ، وتكون عادة بالجزور . والضرب بالقداح ، هو التقامر بالنبل والسهام والنرد . أنظر . ابن قتيبة ، الميسر والقدح ، ص ٣٢ و ٣٥ و ٤١ و ٥٦ و ٨٨ و ١٠٦ و ١٣٢ .

بالأزلام وهى القـــداح[١]، وتكون عادة عند الأنصاب أو بيوت الأصنام[٢]، وبالطيرة إذا مرت بارحة أو سانحة[٣]، وبالعيافة وهى الاستدلال بأعضاء الأشخاص[٤] ؛ فلا يكون له فى سفر أو مقام أو نكاح أو معرفة قرار إلا بالرجوع إلى هذه الأشياء[٥]، حيث أن مثل هذه الإعتقادات توجد عند كثير من الشعوب الفطرية[٦]. وكان العرب يفزعون على الأخص إلى «الكهان»، أو «الكاهنات»، أو «العرّاف»[٧]، لمعرفة ماسيقع لهم ؛ فالكهنة — وهم أشبه برجال الدين — كانوا يزعمون أن لهم أتباعاً من الشياطين أو الجن، تسترق السمع فى السماء، وتنقل لهم أسرار الكون[٨]؛ بحيث كان لكل جماعة بدوية هامة عرّاف[٩].

أما وسائل معيشة العرب البدو، فإنها تتفق وطبيعة البادية، فكانوا يعولون فى حياتهم على رعى الإبل والأغنام، والإنتقال بها وراء الكلأ والماء[١٠]،

---

(١) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٣٠٠ س ٨ و ١٥ .الاستقسام استعمال من القسم، وهو طلب التضيب، والأزلام واحدها زلم، وهى تعنى السهام. أنظر .ابن قتيبة، الميسر والقداح، ص ٣٨ — ٣٩ ؛ النويرى، ٣ ص ١١٧ — ١١٨.

(٢) ابن قتيبة، الميسر والقداح، ص ٤١ س ٣ .

(٣) النويرى، ٣ ص ١٤٤ وما بعدها ؛ الحيوان، ٣ ص ٤٥٧ .

(٤) الحيوان، ٤ ص ٣٧٠ ؛ انظر .جرجى زيدان، تاريخ آداب اللغة، الطبعة الثانية، ١٩٢٤، ١ ص ١٨٥ .

(٥) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٣٠٠ .

(٦) أنظر Saurat : Hist. des Relig, p. 22-23.

(٧) ابن هشام، ١ ص ٩٢ و ٩٨ ؛ النويرى، ٣ ص ١٢٨ وما بعدها ؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٦ .

(٨) جمهرة، ص ٢٠ س ٨ وما بعدها ؛ ابن هشام، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر . Westermarck : Survivances paiennes dans la civilisation, Mahometane, trad. Fr. Paris, 1935, p. 11—12 ; p. 30.
يذكر القرآن بأنه لما تقارب مجىء الرسول حجبت الشياطين عن السمع ورموا بالنجوم (أنظر . القرآن ٧٢ : ٩)، وأسلم بعضها (نفسه، ٧٢ : ١) .

(٩) ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٦ س ٢٥.

(١٠) البخلاء، ص ١٩٢ .

والاستكانة بالنهار والسير بالليل على هدى النجوم ؛ التى كانوا يراقبونها ، ويطلقون عليها أسماء مختلفة منذ الزمن البعيد[١] :

وكانت الإبل — ولونها كلون الصحراء — هى الحيوان العزيز ، الذى اتخذه الإنسان فى مثل هذه البيئة[٢] ، فيأكل لحمه ويشرب لبنه ، ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه[٣] ، وملابسه التى كانت تتكون من العمامة خاصة[٤] . وكذلك كانت العرب تستخدم الجياد التى يقال إن أصلها فى بلاد العرب[٥] .

وكان أكل العربى زهيـــداً يتناسب مع بيئته مثل التمر واللبن[٦] ، ومن كان غنياً منهم يستخرج الخمر المصنوع من التمر[٧] . ولكن المجاعـــة وانقطاع المطر كانت تهدد العربى وأسرته فى كل وقت ، بحيث أنها كانت تدفعه أحياناً إلى أكل نحاتة قرون الخراف وأظلافها ، أو أن يفتح عرقاً فى جمل ليشرب دمه ، وأحياناً أخرى إذا زاد به الجوع ربط حجراً على بطنه[٨] . وكان بعض الأعراب يذبحـــون الكلاب كقبيلة أسد[٩] ، أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل[١٠] ، أو يأكلون الجراد كقبيلة

---

(١) أنظر . نلينو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، روما ١٩١١ (بالعربية) ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) الإبل جمع لاواحد له ، والذكر منها جمل ، والأنثى ناقة . النويرى ، ١٠ ص ١٠٣ ؛ انظر . Herodotus 7 : 86 (Vol. 3, p. 393).

(٣) القرآن ١٦ : ٨٠ .

(٤) أنظر . Pliny : N. H. 6 : 32; 169 (Vol. 2, p. 459).

(٥) ابن هذيل الأندلسى ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق عبد الغنى ، طبعة دار المعارف ، ص ٢٧ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 211.

(٦) البخلاء ، ص ١٩٤ س ٥ ؛ انظر . Farès : L'Honn, p. 106.

(٧) أنظر . Pliny : N.H. 6 : 32 ; 159—192 (Vol. 2, p. 459). ؛ النويرى ، ٤ ص ٧٦ — ٧٧ ، ٨٨ .

(٨) البخلاء ، ص ١٨٢ — ١٨٣ س ١٩ ؛ انظر . Farès : L'Honn, p.107.

(٩) نفسه ، ص ١٩٧ س ٧ ومابعدها ؛ انظر . Ibid, p. 99 ; n (8).

أنظر قول الشاعر :

إذا أسدى جاع يوماً ببلدة وكان سميناً كلبه فهو آكله.

أنظر . الحيوان ، ١ ص ٢٦٧ .

(١٠) نفسه ، ١ ص ٢٦٨ ؛ البخلاء [illegible] ١٠ س ٥ .

طي»[1] ؛ كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس[2] ، أو حتى القمل[3] .

والواقع أن حياة البدوى شاقة ، فهو لا يعرف الزراعة أو غيرها من الحرف ؛ لأنها لا تتناسب مع طبيعته فى التنقل والارتحال ، وإن كان أحياناً يعيش على حماية التجارة التى تمر بصحرائه ؛ لتذهب إلى الشمال أو الجنوب ، أو يقوم بالدلالة لهذه القبائل «التفويز »[4] ؛ كما أن حياة الصحراء الشاقة كثيراً ما تدفعه إلى الغزوة و«الغارة»[5] على الوديان ، أو الاعتداء على القوافل ، بحيث يقول ابن خلدون إن العرب جعلوا أرزاقهم فى البادية فى أطراف رماحهم ، ومعاشهم فيها بأيدى غيرهم[6] ؛ فقحط البادية يفسر — بلا شك — وجود فئة كبيرة من البدو الفقراء أو « الصعاليك »[7] .

ولعل الشعر هو المظهر الحضارى البارز عند البدو من العرب ، ولذا كان يحتل مكانة خاصة فى حياتهم[8] ، و« شَعَرَ » معناها علم أو عرف[9] . فكان الشاعر

(١) الميدانى ، ١ ص ١٣٩ .

(٢) الحيوان ، ص ٦ ٢٥ س ٥ — ٤ ؛ Pliny : N.H. 6: 32; 159—161, (Vol. 2, p. 459).

(٣) البخلاء ، ٣ ص ١٨٣ .

(٤) عيون الأخبار ، ٢ ص ١٤٢ وما بعدها ؛ انظر . الألوسى ، ٣ ص ٣٤٤ ؛ Farès : L'Honn, p. 105.

(٥) الاصطخرى ، مسالك الممالك (طبعة de Geoje) ص ١٤ س ٧ ؛ Pliny: N: H. 6 : 32; 162(Vol 2, p. 459).

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٤ س ١٣ — ١٤ .

(٧) لسان ، ١٢ ص ٣٤٢ . وكانوا يسمون ذؤباناً أيضاً . نفسه ، ١ ص ٣٦٤ ، ١٢ ص ٣٤٢ .

(٨) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ س ٥ وما بعدها .

(٩) لسان ، ٦ ص ٧٧ ؛ انظر . جرجى زيدان ، آداب اللغة ، ١ ص ٥١ — ٥٢ . تطورت هذه الكلمة فى معناها ، فهى تعنى الكلام المقفى .

هو أعلم من فى الجماعة البدوية[١]، والمعبر عن أعراقها وأوطانها وحامى أعراضها، والذى ينقل أخبارها فى كل مكان[٢]. ويظهر أن الشعر قديم فى بادية العرب، وإن كان مصدره للبدو غير واضح فهم يقولون إنه من الجن[٣]؛ وإن كان — ولاريب — يرجع سبب ظهوره إلى لغتهم التى تكثر مترادفاتها[٤]، أو لبيئتهم التى تجعل الفرد يحلم بالبطولة، أو لتوافقه مع مزاج البدوى والحياة المطردة فيها[٥]؛ أو لارتباطه بالكهانة منذ نشأته؛ لاحتياج الكهان إلى القول المسجوع[٦].

وكانوا إذا نبغ شاعر فى القبيلة احتفل أفرادها به[٧]، وتناقلوا أخباره، وتباهوا به على القبائل الأخرى[٨]؛ وقد يعلقون شعره بأركان الكعبة[٩]، — المكان المقدس بمكة — وتكتب قصائده بماء الذهب. كذلك كانت العرب تحضر «فحول» شعرائها فى الأسواق التى تقام لهم فى أماكن معينة، ومواعيد معروفة، للمنافرة أو المفاخرة، وللتراجز والتناجز. فإذا لم يتوفر وجود شاعر ظهرت «الشاعرات»[١١]، أو «الخطباء». وهؤلاء يستخدمون النثر[١٢].

---

(١) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٣٠٤.

(٢) أنظر. قول الشاعر:

وإذا فعلتم ذلكم لم تتركوا أحداً يذب لكم عن الأحساب.

أبو تمام، الحماسة، ١ ص ١٢٠.

(٣) جمهرة، ص ١٨ س ٣٠. الشعراء فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الأمم. أبو حاتم الرازى، الزينة، تحقيق الهمدانى، ١ ص ٤٢.

(٤) أنظر. جرجى، آداب اللغة، ١ ص ٥٧، ٦٠.

(٥) أنظر. Thoumin: Hist. de Sy. 2éd. Paris, 1929, p. 165.

(٦) أنظر. بروكلمان، تاريخ الشعوب، ١ ص ٣٠.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ٤٨١؛ السيوطى، المزهر، بولاق، ١٢٨٢ هـ، ٢ ص ٢٣٦.

(٨) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٣٠٤؛ انظر. Farès: L'Honn, p. 51.

(٩) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٨١.

(١٠) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٣١٢؛ الشعر والشعراء، ص ١٥.

(١١) البلاذرى، فتوح، ص ٤١؛ انظر. Perron: Femmes Arabes, p. 316 sq.

(١٢) ابن هشام، ٢ ص ٩٣٤ س ١٩؛ انظر. Ency.de l'Isl,t. 3.,p. 979—980 Nallino: La Litt. Arabe, p. 65—66.

وقدعرف البدوى الشعر رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[١]، مما يدل على أن شعر البدو تطور منذ زمن بعيد[٢] ، وأنهم يملكونه كأساتيذ. وكانت قصائد البدو فى معظمها تبدأ باللوعة والبكاء على الديار والدمن والآثار ؛ شوقاً إلى أهلها الظاعنين عنها[٣] ؛ وإن لم يكن الحب الجنسى من سمات شعر البدو[٤] . وبعد ذلك ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته أو فرسه[٥] ، وقد يتكلم عن جمال الطبيعة ، فيذكر الآبار والمياه والمراعى والنار التى مر بها ؛ وهو الذى عرف جمال باديته ، وحركت حيواناتها[٦] من إبل وخيل وحمير ونعام وظباء وقطا خياله[٧] . وأخيراً يعرض الشاعر إلى موضوع قصيدته حسب مزاج شاعريته ، وهو يشمل الأبواب التالية : الحماسة والتشبيب والفخر والهجاء والمديح[٨] والمنافرة[٩] على الخصوص ، وهى موضوعات تعبر عن طبيعة البدو. كذلك كان الرثاء[١٠]، من موضوعات شعرهم ، الذى نبغوا فيه نبوغهم فى المدح والهجاء .

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٧١ .

(٢) جمهرة ، ص ١١ .

(٣) أنظر . قول أمرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ‏ ‏ ‏ ‏ بسقط اللوى بين الدخول فحومل .

نفسه ، ص ٩ ، س ١٢ ؛ الشعر والشعراء ، ص ١٧ .

(٤) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ٣١ .

(٥) أنظر . قول أمرىء القيس :

مكر مفر ، مقبل مدبر معاً ‏ ‏ ‏ ‏ كجلمود صخر حطه السيل من عل .

الشعر والشعراء ، ص ١٩ .

(٦) مثلاً : ما قيل فى الخيل ، النويرى ، ١٠ ص ٤٨ ومابعدها ؛ أنظر . قول الشاعر :

له صدر طاووس ، وفخذ نعامة ‏ ‏ ‏ ‏ ووثبة نمر ، والتفات غزال .

أنظر . نفسه ، ١٠ ص ٥١ .

(٧) أنظر . ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، ص ٣١ س ٥ .

(٨) جرجى زيدان ، تاريخ اللغة ، ١ ص ٨٣ .

(٩) هى المفاخرة أو المقابلة . لسان ، ٧ ص ٨٤ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٤٩ — ٣٥١ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٠ .

هذه صورة حياة العرب داخل الجزيرة ، وهى كما عرضنا لها حياة فطرية ، وعلى العكس فإن حياة العرب فى أطراف الجزيرة كانت حضرية ، جاءت وليدة سقوط الأمطار فى الوديان «التهائم»[١]، لأن البحر مطيف بها، مما ينبت الزرع وخاصة: البخور والتوابل والعنبر والمرّ واللبان والزيتون والفاكهة والنخيل[٢]. ولكنها على الخصوص وليدة اشتغال سكانها بالتجارة[٣]، حيث كانت تجارة الهند والصين — وهى التى أصبحت معروفة بفضل ما قام به المصريون والفرس واليونان والرومان من استكشافات فى البحر الأحمر والمحيط الهندى[٤] — تمر بالضرورة فى الجزيرة العربية لتصل إلى ممالك البحر الأبيض ، بسبب موقعها الجغرافى المتوسط بين العالم المتحضر وقتئذ ، وبسبب أن طريق البحر الأحمر — الذى كان يُعرف أيضاً ببحر العرب[٥] — كان محفوفاً بالمخاطر بالنسبة لمراكب ذلك الزمن[٦]، لامتلائه بالجزائر الخطرة على الملاحة[٧]، أما طريق الخليج العربى فقد كان يعوقه وجود الفرس[٨]، أعداء دول البحر الأبيض .

ومع ذلك ، فإن الطريق البرى كان أيضاً غير آمن ، وعرضة لغارة البدو

---

(١) قبله ؛ انظر. ياقوت، معجم البلدان ، ٧ ص ٥٢٢ . المقصود بالتهائم الأرض المنخفضة. الخشنى ، شرح السيرة النبوية ، ١ ص ٨ .

(٢) Pliny. N. H. 12 : 30 ; 53 (vol. 4, p. 37). Theophrastus : Enquiry into Plants, transl. Hort. London, 1948. 9 : 4; 6 (vol. 2, p. 237 ; 239).

(٣) أنظر. Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol. 2, p. 459—461).

(٤) أنظر. Strabo : The Geography, transl. L. Horace Jones, London, 1949. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p. 455). أنظر عن التجارة الهندية والصينية Warmington : The Commerce between the Roman Empire and India. Cambridge, 1928, pp. 43-47. Grousset : Histoire de la Chine. Paris. 1947, p. 94. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣٧٢ .

(٥) أنظر. Herodotus. 6 : 42 (vol. 2, p. 239).

(٦) أنظر. Diodorus of Sicily, transl. Oldfather. London, 1953. 3 : 43 ; 5 (vol 2, p. 215).

(٧) أنظر. Kammerer : La Mer Rouge. Introd, p. 5.

(٨) أنظر. Lammens : La Mecque à la veille de l'Hègire. Beyrouth, 1924, p. 12 ; 108.

الساكنين داخل الجزيرة[١]، إلا أنه كان يفضل طريق البحر، فكانت القوافل تسير فى الجزيرة العربية بحراسة شديدة، ولا تسير إلا ليلاً. وقد كان لهذه القوافل ثلاثة مسالك معروفة لتتفادى صحارى الجزيرة الواسعة، وبخاصة منطقة الرمال الحمراء فى الربع الخالى: الأول جنوبى الجزيرة يسير بحذاء المحيط الهندى والخليج العربى، والثانى بطول الجزيرة يسير بحذاء البحر الأحمر مخترقاً اليمن نحو الحجاز حتى بادية الشام؛ ومنها قد تتجه التجارة إلى مصر عن طريق سيناء، أو تتجه فى بادية الشام نحو دمشق والقسطنطينية[٢]، أو حتى روما وفارس[٣]، أو بلاد اليونان التى كانت تحملها إليها مراكب فينيقية[٤]، والثالث يسير فى وسط الجزيرة، ويربط ما بين الحجاز والخليج العربى عن طريق هضبة نجد، وهو الطريق الذى استخدمه حجاج العراق المسلمون فيما بعد[٥].

فكان الاشتغال بالزراعة والتجارة فى أطراف الجزيرة العربية سبباً فى إنعاش سكان هذه الوديان، مما سبّب ظهور بيئات حضرية طوال تاريخ العرب القديم فى شكل ممالك مزدهرة. ولعل أهم هذه البيئات الحضرية منطقة جنوب الجزيرة وبخاصة اليمن[٦]، وهى التى سماها العرب «الخضراء» لكثرة أشجارها وثمارها

---

(١) أنظر. قبله.

(٢) ابن هشام، ١ ص ١٣٩.

(٣) أنظر. Pliny : N. H. 6 : 22 ; 162 (vol. 2, p. 461).

(٤) انظر Herodotus. 3 : 107

(٥) أنظر. Blachère : Le Problème de Mahomet, p. 20.

(٦) أنظر. Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol. 2, p. 459). ولعل هذا اللفظ «اليمن» أخذ من ألقاب ملوك سبأ — وهم ملوك اليمن — وهو: «يمنت» (أنظر. جواد على، تاريخ العرب، ٢ ص ٢١٣)؛ مما يدل على حداثته. كذلك نقل المؤرخون تعليلات مختلفة لهذه الكلمة، منها: أنها اسم شخص (النويرى، ٢ ص ٢٨٢ س ٦)، أو لأنها أيمن الأرض. ياقوت، معجم البلدان، ٨ ص ٥٢٢. أنظر عن التسميات المختلفة: Ency. de l'Isl, (art: al-Yaman) 4, p. 1218.

روعها[1]، كما عرفها اليونان والرومان بنفس المعنى فسموها بلاد العرب السعيدة Felicis أو « Arabia Felix »[2]، ومنذ الزمن البعيد طبقت شهرتها الآفاق، كان العالم المتحضر يتبادل معها التجارة[3]: فكانت مصر القديمة سوقاً عاصلا تها؛ لحاجتها إلى واردات هذه البلاد من البخور والطيب، الذى يزرع فى اباتها، لحرقها فى المعابد والهياكل واستخدامها فى تحنيط جثث الموتى[4]؛ لعلها هى البلاد التى كان يعنيها المصريون والرحالون اليونان ببلاد « بنت »[5]. كذلك كانت بلاد الروم (بيزنطة) فى الشمال، تستورد منها البخور لحرقه فى كنائس؛ فكانت القوافل التى تذهب إليها حاملة متاجر اليمن مضرب الأمثال[6].

وسكن اليمن وجنوب الجزيرة منذ قديم الزمان هجرات من إفريقيا ن الجنس الحامى عن طريق باب المندب[7]، وأجناس من الشمال من الجنس لسامى أو البحر الأبيض[8]، فلعل اللفظين، اللذين يرددهما غالباً مؤرخو لعرب[9]، وهما: « قحطان »[10] و « عدنان »، للدلالة على سكان جنوب الجزيرة

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ٥ ٨ ص ٥٢٢.

(٢) Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12. (Books 1—2, p. 553 sqq.) ; Pliny : N. H. 12 : 30 : 51 (vol 4, p.36) ؛ انظر. Gibbon : Decline, 5, p. 205. ؛ جواد على، تاريخ العرب، ١ ص ١١٨ ؛ Ency de l' Isl. (art Yaman) 4, p. 1218

(٣) أنظر. Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p. 455). ; O'Leary : Arabia before Muhammed. London, 1927, p. 94.

(٤) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 159—162 (Vol. 2. p. 459). ؛ انظر. Lucas : Ancient Egyptian Materials and Industries. London, 1948, p. 367.

(٥) أنظر. Scott : In the High Yemen. London, 1947. p. 206. ; Naville : The Temple of Deir El-Bahri. London, 1896, 2, p. 18.

(٦) القرآن سورة (١٠٦).

(٧) أنظر. Scott : Op. cit, p 200. ; Bertram : Les Arabes, Appendice, p. 253.

(٨) انظر. Bertram : Les Arabes, p. 255.

(٩) المعارف، ص ٤٩؛ النويرى، ص ٢٨٣ وما بعدها. (١٠) يقول الهمدانى عن لفظة « قحطان »، إنه نسبة إلى زعيم لليمنيين، (الإكليل، تحقيق نبيه فارس، طبعة Princeton، ١٩٤٠، ٨ ص ١٧٧)، أو لعلها محرفة عن اسم مملكة قتبان، التى سنتحدث عنها. أنظر أيضاً. Ency. de l Is', (art Kahtân) t. 2, p. 666—67.

وداخلها، ذكرى لهذه الأجناس التي وحدت بينها طبيعة الجزيرة العربية[1]، فاعتبرهما المؤرخون العرب من سلالة واحدة . ويؤيد هذا أنه كان لسكان اليمن القدامى وجنوب الجزيرة لغة مخالفة ، وهي اللغة التي تظهر مكتوبة في الحجارة والخشب[2]، ويُطلق عليها مؤرخو العرب الكتابة : « الحميرية »، نسبة إلى بني حمير — وسنتكلم عنهم فيما بعد — أو « المسند »[3]، وخطها يبدو على صلة بخطوط شمال الجزيرة[4]، أو الخط الحبشي[5]؛ وإن كانت متشابهة إلى حدما مع العربية — أي لغة سكان داخل الجزيرة — في القواعد وبعض المفردات[6]؛ وأنها تقرأ من اليمين إلى اليسار.

وكان طابع سكان اليمن الاستقرار في مدن عامرة ، تعترف بنظم شبه ملكية[7]؛ فنعرف من تقاسيمهم السياسية الأقسام الآتية : « مخفد »[8] و « مخلاف »[9] و« قصر »[10]، وهي أشبه بأماكن محصنة أو أقسام إدارية[11]،

(١) ابن هشام ، ١ ص ٥ ؛ انظر . Bertram : Les Arabes, p. 255.

(٢) أنظر : Bertram : Ibid, p. 14.

(٣) الإكليل ، ٨ ص ٢١ س ٣ ، ص ١٢٢ — ١٢٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ . وينقل الهمداني صورة الخط المسند في كتابه . أنظر . الإكليل ، ص ١٢٢ — ١٢٣. ولعل تسمية «المسند»، بسبب حروفها التي على شكل العمارة ، حيث تستند إلى أعمدة . جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٩٧ ؛ انظر . قبله .

(٤) أنظر . Hommel : Grundriss der Geog. und Gesch. des Alten Orients. München, 1904, I, p.157; جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٨٨ .

(٥) أنظر . Bertram : les Arabes, p. 255.

(٦) أنظر . Nicholson : A Literary History of the Arabs. London, 1923, p. XXI.

(٧) أنظر . Ryckmans : L'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Isl. (Ma'în et Saba). Louvain, 1951.

(٨) الإكليل ، ٨ ص ٥١ س ٧ ، ٧٥ س ٤ ، ٩٠ ، ١٠٥ س ٢ ، ١٠٨ س ٤ .

(٩) نفسه ، ٨ ص ٣٠ س ٤ ، ٢٧ س ٣ . هو القطر الواسع .

(١٠) نفسه ، ٨ ص ١٦ ، ٩٤ ، ١٠٨ س ٤ . يذكر الهمداني أسماء بعض قصور اليمن القديمة المشهورة ، مثل : قصور غمدان وسلحين وغيمان . أنظر . نفسه ، ٨ ص ٣ ، ٤٨ ، ٦٩ .

(١١) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٠٢ .

يعيش فيها اليمنيون وحكامهم الذين يسمون: «ذو»(١) أو «قيل»(٢)، كما وجدنا لفظ «ملك»(٣)، يُطلق على من يسيطر على هذه الأقسام.

وكان لسكان اليمن ديانة ذات تطور خاص، تشبه إلى حد كبير الديانات التي انتشرت بين سكان الوديان في وادي النيل ووادي الدجلة والفرات، وهي تربط بين ما يحدث للزرع والسماء(٤). فكان «القمر»(٥) و«الشمس»(٦) من أهم آلهتهم، كما كان من طقوس عبادتهم تقديم القرابين وحرق البخور ونشر الطيب في الهياكل(٧). وكان يشرف على أمور الدين هيئة من الكهنة(٨)، ويبدو أن الملوك كانوا يعتبرون شفعاء الآلهة(٩). كذلك انتشرت في هذه البلاد الديانات السماوية المعروفة(١٠)، وبخاصة اليهودية التي — على ما يظهر — أتت من الشمال واعتنقها بعض ملوك اليمن ليخالفوا بها ديانة جيرانهم الأحباش، الذين اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع الميلادي(١١)، وأخذوا في استمالة(١٢) العناصر المسيحية في اليمن — حيث يبدو أنها جاءتها عن

---

(١) يحيى نامى، نقوش عربية جنوبية، المجموعة الثانية، فصلة مجلة كلية الآداب، الجزء الثاني، المجلد السادس عشر، ديسمبر ١٩٥٤، ص ٢٣؛ الإكليل، ٨ ص ٥١ س ١٨.

(٢) نامى، نقوش، ص ٢٢ — ٢٣. وهذه الكلمة معناها «قائد». أنظر. الثعالبي، قصص الأنبياء، ص ٢١٥.

(٣) أنظر. Ryckmans : Op. cit.

(٤) أنظر. Bertram : Les. Arabes, p. 14.

(٥) أنظر. Caton-Thompson : The Tombs and Moon-Temple, of Hureidha (Hadhramaut). London 1944, p. 15؛ جواد علي، تاريخ العرب، ٢ ص ٦٥.

(٦) القرآن ٢٧ : ٢٢ — ٢٤.

(٧) يحيى نامى، نقوش عربية جنوبية، ص ٢٦؛ Le Muséon. LXII. 3—4. 1949. p. 227؛ انظر. جواد علي، تاريخ العرب، ٢ ص ١٩.

(٨) أنظر. Pliny : N. H. 12 : 32 ; 63 (vol. 4, p. 47).

(٩) كان ملوك سبأ يتلقبون بلقب «مكرب سبأ»، وهي تعني شفعاء الآلهة. أنظر. جواد علي، تاريخ العرب، ٢ ص ١٠٦؛ وبعده.

(١٠) اليعقوبي، تاريخ، ١ ص ٢٩٨؛ انظر. ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧، ص ٣٩.

(١١) أنظر. Bonet—Maury : L'Islamisme et le Christianisme, en Afrique. Paris, 1906, p. 47.

(١٢) ولفنسون، تاريخ اليهود، ص ٣٦ — ٣٧.

طريقهم[١] — ليستخدموهم فى تحقيق أطماعهم الاستعمارية . ولكن قبل الإسلام كان معظم اليمنيين يعبدون الأصنام مثل بدو الجزيرة[٢] ، ولهم بيت للأصنام بصنعاء — وهى العاصمة — اسمه « رئام »[٣] ، بل ويحجون إلى الكعبة فى الحجاز ، وينصبون فيها بعض الآلهة — كبقية قبائل العرب — مثل نسر[٤] ، ويكسوها ملوكهم[٥] .

فكان هذا التحضر فى جنوب الجزيرة سبباً فى ازدهار بعض الممالك البدوية منذ الزمن القديم ، نذكر منها : المملكة « المعينية » المعروفة لليونان والرومان « Minaei »[٦] ، ولا نعرف عنها شيئاً كثيراً إلا من النقوش التى تركتها فى شمال اليمن ، حول بلدة « معين » فى منطقة الجوف[٧] ؛ وهى منطقة سهلية غرينية مشهورة بنخيلها وأخشابها ومراعيها[٨] . وقد يرجع ظهور هذه المملكة إلى حوالى ١٥٠٠ ق . م ؟[٩] ، ولكن قضى عليها ظهور القبائل التى عرفت باسم سبأ « Sabaeï »[١٠] ، حوالى القرن الثامن قبل الميلاد[١١] . فلعل

---

(١) أنظر . Bell: — The Origin of Islam in its Christian environment. London, 1926, p. 33 sqq.

(٢) الأصنام ، ص ١١ .

(٣) ابن هشام ، ١ ، ص ٥٦ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٥ س ٢٠ ، ٢٩٧ س ١ .

(٥) ابن هشام ، ١ ص ١٥ ؛ قطب الدين ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(٦) Pliny: N. H. 6 : 32 ; 161 (vol. 2, p. 456). انظر . O'Leary: Arabia, p. 93—94 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٨١ .

(٧) أنظر . محمد توفيق ، آثار معين فى جوف اليمن ، القاهرة ١٩٥١ ؛ يحيى نامى ، نقوش خربة معين ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٨) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol. 2, p. 459)

(٩) لدينا تواريخ مختلفة ، انظر . Bertram : Les Arabes, p. 15.

(١٠) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 52 (vol 4, p. 37).

(١١) أنظر . Philiby: Muséon, LXII, 3—4, 1949, p. 248. ؛ Hommel: Grundriss, 1, p. 142 ؛ Ency. de l'Isl, (art. Saba') t. 4, p. 4. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

الأشوريين[١] دولة قوية ظهرت فى شمال العراق هم الذين جرفوا هذه القبائل السبئية أمامهم فى إحدى غزواتهم للجزيرة العربية ، ولعل السبئيين انتهزوا ظروفاً قاسية أحاطت بالمملكة المعينية العربية فحاربوها ، واستولوا على أراضيها[٢]؛ كما استولوا على مملكة أخرى اسمها قتبان « Kattabanae »[٣] ، التى تقع جنوب أرض معين بقرب باب المندب[٤] ، ويرجع ظهورها إلى ماقبل ألف سنة قبل الميلاد[٥] ، وأيضاً على بلاد حضرموت « Chatramotitae »[٦] ، الواقعة شرق اليمن، وأنشأوا من هذه الممالك مملكة واحدة قوية اتخذت مأرب « Mariaba »[٧] ، عاصمة لها. وقد شغلَ هذا التوسع معظم أوقات الملوك السبئيين الذين تلقبوا فى أول الأمر بلقب « مكرب سبأ »[٨] : حيث أن المقطع الأول منه هو لقب ملوك قتبان التى احتلوها ، ومعناه شفيع الآلهة[٩] . ومع ذلك فإن

---

(١) أنظر. Musil : Arabia Deserta. New-York, 1927, p. 477. ; Huzayyin : Arabia and the far-east. Cairo, 1942, p. 33—34. ; جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) Pliny : N. H. 12 : 30; 53 (vol. 4, p. 39). ؛ انظر. خليل نامى ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة، ١٩٤٣ . نقش: ٧١ و٧٢ و٧٣، ص ٩٢ — ٩٣ . أنظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٤٦ .

(٣) خليل نامى ، نقوش سامية ، انظر . عن هذا الاسم : Theophrastus : Enq. 9 : 6; 2—4 (vol. 2, p. 335) . ; Ency. de l'Isl, (art Katabân) t 2, p. 858.

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٣٣ ؛ Ency. de l'Isl, t 2, p. 858

(٥) بالاعتماد على الكتابات القتبانية؛ انظر. Hommel : Grundriss, I, p. 139. ; جواد على، تاريخ العرب ، ٢ ص ١١ ؛ Ency. de l'Isl, t 2, p. 858

(٦) Strabo : Geog. 16 : 4 ; 2 ؛ انظر. جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٦٤ وما بعدها. هذا الاسم معناه بالعبرانية « دار الموت ». انظر. Hastings : Encyclopaedia, of Religion and Ethics. Edinburgh, 1908—1921, p. 333 ؛ جواد على، تاريخ العرب، ٢ ص ٦٥ ؛ Ency. de l'Isl, (art Hadramawt) t. 2, p. 220-223

(٧) Pliny . N. H. 6 : 32 ; 252 (vol. 2, p. 457) ؛ جواد على، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٦ .

(٨) أنظر. عن هذا اللقب: Répertoire d'épigraphie Sémitique, t VII ; Corpus Inscriptionum Semiticarum, (Deuxième livraison) 4430 (C.I.S.) Pars Quatra, t 3, 627.

(٩) جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٣ .

الدولة « المعينية » على الخصوص لم يقض عليها نهائياً ، بدليل أننا ما زلنا نسمع عنها فى القرن الأول بعد الميلاد[١] .

وقد كانت مملكة سبأ هى أشهر ممالك اليمن القديمة لكثرة نقوشها ، وإن كنا لانعرف سبب إطلاق سبأ عليها : فقد تكون اسم قبيلة فى اليمن[٢] ، أو أنها من السبي[٣]، أو من اسم الملكة سبأ التى يسميها العرب بلقيس[٤] ، أو من اسم جد لليمنيين[٥] ، أو حتى من « Sabota »[٦]، اسم مدينة قديمة باليمن . وهذه المملكة ازدهرت بسبب تنظيم موارد مائها[٧] : فكانوا يردمون مابين الجبلين ويحبسون الماء ويجعلون فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون الأرض عند قلةسقوط الماء[٨] . ولكن هذه المملكة أحاطت بها ظروف اقتصادية سيئة، فهدتها السيول التى هدمت سدودها ، وبخاصة ما عُرف باسم سيل العرم[٩] — أى السيل الذى لا يُطاق[١٠] —. حيث كانت هذه السدود تحجز بين الضياع والحدائق

---

(١) Pliny : N. H. 12: 30; 54 (vol. 4, p. 39). ؛ انظر جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ١١٣ .

(٢) القرآن ٢٧ : ٢٢ ، ٣٤ : ١٥ .

(٣) أنظر . محب الدين ، تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٧ هـ ، ١٠ ص ١٦٩ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠١ .

(٤) المعارف ، ص ٤٩؛ الإكليل ، ٨ ص ٢٠٤؛ الثعلبي ، قصص الأنبياء ، مصر ١٣٤٤هـ ، ص ٢١٥ وما يليها ؛ انظر . Perron : Femmes Arabes, p. 10 sqq. يظهر أن الحبشة أيضاً ملكات اسمهن « سبأ » . أنظر . Josephus : Jewish Antiquities, transl, by Thackeray and Marcus. London, 1930, vol. 5, p. 661 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٤ ؛ Bertram : Les Arabes, p. 15.

(٥) البلاذرى ، فتوح ، طبعة « de Goeje » ص ١٥ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ١٠٠ .

(٦) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 52 (vol. 4, p. 37). أنظر أيضاً قول تاج العروس ، ١٠ ص ١٦٩ .

(٧) ذكر القرآن إمايفيد ذلك ٣٤ : ١٥ — ١٦ ؛ Pliny : N. H. 6 : 32; 159—162 (vol. 2, p. 459).

(٨) الميدانى ، ١ ص ١٨٥ .

(٩) القرآن ٣٤ : ١٦ . العرم هو السد وواحده عرمة . ابن هشام ، ١ ص ٩ .

(١٠) الإكليل ، ٨ ص ٤٣ .

وبين السيول(١) ، مما كان سبباً فى القضاء عليها وتفرق أهلها ، بحيث ضُرب بهم المثل : « ذهبوا أيدى سبأ(٢) » .

وبعد سبأ ظهرت مملكة أخرى عُرفت باسم حمْيَر « Homeritae » ، وهى قبائل عديدة(٣) ؛ وكان ملوكهـا يسمون — على حسب قول مؤرخى العرب — « التابعة »(٤) ، ويحدد لظهورهم سنة ١١٥ ق . م(٥) . وفى الواقع فاقت هذه المملكة فى العظمة المملكتين السابقتين ، بحيث أنها — على حسب روايات المؤرخين — كانت تحارب الفرس على حـدودهم فى البحرين والحيرة(٦) ، وحتى فى الجزيرة بين الدجلة والفرات(٧) . ولكن أحاطت بالمملكة الحميرية ظروف اقتصادية قاسية تشبه ما حدث للدولة السبئية من قبل ، أهمها : اختلال نظمها الزراعية بسبب إنهيار سدودها البالغ عددها ثمانين سداً ، وبخاصة سدها المشهور « مأرب »(٨) ؛ مما جعل أهلها يهاجرون منها فى أنحاء الجزيرة(٩) .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٣٠٨ .

(٢) الميدانى ، ١ ص ١٨٥ .

(٣) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol. 2, p. 459).

(٤) هى تسمية مجهولة الأصل ، لعلها تنسب إلى شخص . عنها : القرآن ٤٤ : ٣٧ ؛ الإكليل ، ٨ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ انظر . Hommel : Explorations in Arabia. Philadelphia, 1903, pp. 727—741.

(٥) هذا التحديد بناء على ظهور لقب جديد فى هذا التاريخ لملوك سبأ هو : « سبأ وذوريدان » ، [عنه : يحيى نامى « نقوش عربية جنوبية ، المجموعة الثانية ، مجلة كلية الآداب ، الجزء الثانى — المجلد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص ٢٢ — ٢٣ ؛ انظر . C. I. S. [Pars Quarta. t. 1, (314), p. 340 sqq.] ، ويظهر أن ريدان هذه من أكبر قبائل بنى حمير (جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٢١٤) ، فكان هذا نهاية مملكة سبأ .

(٦) الإكليل ، ٨ ص ٢١١ س ١٤ — ١٥ .

(٧) المعارف ، ص ٣٠٧ . يبالغ ابن خلدون عن اتساع هذه المملكة ، إذ يذكر أنها غزت إفريقيا ، وأنها وصلت إلى بلاد الترك والصين . أنظر . المقدمة ، ص ٩ .

(٨) الإكليل ، ص ٤١ ، ١١٥ — ١١٦ ؛ انظر . Hogarth : A History of Arabia . Oxford, 1922, p. 5.

(٩) ابن هشام ، ١ ص ٨ .

وكانت سيطرة اليمن على باب المندب وامتلاكها أسطولاً ضخماً(١)، ينقل البضائع من الهند والصين والصومال وسوقطرة إلى موانيها مثل عدن « Eudaemon Arabia » — بحيث كانت شبه احتكار فى يدها — سبباً فى تنافس الفرس والرومان على الإستيلاء عليها؛ ولذلك نجد أن الدولة الرومانية ترسل إلى اليمن حوالى سنة ٢٤ أو ٢٥ ق.م، فى زمن الإمبراطور أغسطس «Augustus»، حملة بقيادة حاكم مصر الرومانى «Aelius Gallus»(٢)، ولكن هذه الحملة فشلت وقتذاك بسبب أن مملكة حمير كانت لا تزال قوية. ولما وهنت هذه المملكة، وورثت بيزنطة الرومان فى الشرق، نجد التنافس بينها وبين الفرس على أشده للسيطرة على الجزيرة، فتقوم بيزنطة بمحاولة جديدة فى عهد الامبراطور جستنيان «Justinianu» (٥٢٧–٥٦٥م)، ترمى إلى الاستيلاء على اليمن، ولكن دون التدخل المباشر، وإنما بتحريض الأحباش على غزوها، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية، وبلغوا ذروة القوة بظهور مملكة أكسوم «Auxomitae» فى القرن الرابع الميلادى(٣). ولعل جستنيان اتخذ هذه الخطوة نتيجة لأطماع الفرس التى ازدادت فى الجزيرة العربية، بحيث أنهم استقروا فى ساحل الخليج العربى، مثل: البحرين(٤). ثم لا يخفى أن عداوة الحبش للعرب قديمة العهد، نشأت من وقت أن كان عرب اليمن يخطفون الأحباش من سواحل الحبشة ويبيعونهم أرقاء فى جزيرة العرب؛ حيث وُجد الحبش فى الحجاز(٥).

---

(١) أنظر. Periplus of the Erythraean Sea, transl from Greek by Schoff. New-York, 1912. Sect. 21 : 27, p. 30 ; 32.

(٢) أنظر. Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p. 453 sqq). : Sprenger : The Campain of Aelius Gallus in Arabia. J. R. A. S., : Gibbon : London, 1873, p. 121. Decline 5, p. 212 ; 315—316.

(٣) أنظر. Procopius : History of the Wars, transl. Dewing. : Kammerer : La Mer Rouge, London, 1954, 1:19; 17-24 (vol. 1. p. 183) Introd. XXXVI . نسبة لمدينة Auxomis ، التى كان يسكنها ملوك الحبش.

(٤) البلاذرى. فتوح البلدان، ص ٧٨ س ٥: كانت البحرين تشمل قديماً السواحل المحيطة بالخليج العربى، وليس كما فى وقتنا عدة جزائر. أنظر. Hogarth : Arabia, p. 3.

(٥) بالتفصيل كتاب: يوسف أحمد، الإسلام فى الحبشة، القاهرة ١٣٤٥. ١٩٣٥، ص ٦ — ٧.

وقد واتت الفرصة البيزنطيين وحلفاءهم الأحباش حينما أساء أحد ملوك بنى حمير واسمه : « ذو نواس » إلى جماعة من المسيحيين فى نجران[١] ، فخيّرهم بين ترك دينهم والقتل ، فلما اختاروا القتل أحرقهم فى واديهم « الأخدود » بالنار[٢] . ولعل ملك اليمن فعل ذلك لا بسبب التعصب الدينى ، ولكن لوقف أطماع الأحباش الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على اليمن بمساعدة المسيحيين[٣] ، ولذلك يطلب جستنيان من حليفه ملك الحبشة غزو اليمن بحجة إنقاذ مسيحييها ، وتحت تحريضه أرسل النجاشى أرياط ومعه أبرهة « Abramu » ، بجيش إفريقى كبير عبر البحر ؛ ليستولى على اليمن[٤] . فسار إليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقيا انهزم ذو نواس وقُتل ، ودخل أرياط اليمن ، وهدم حصونها ونقل العاصمة إلى «صنعاء»[٥] . ولكن نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة ، وحتى لا يتفرق الحبش دعا أبرهة أرياط إلى المبارزة وقتله ، وإن كان قد شُرم حاجب أبرهة وأنفه وشفته ، ولذلك عُرف أبرهة « بالأشرم »[٦] . وقد حاول أبرهة أن يغزو الحجاز ، فصالحته الطائف[٧] ، ولم يستطع أن يستولى على مكة ، بسبب المتاعب الكثيرة

---

(١) الإكليل ، ٨ ص ٢٢٦ ؛ وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، طبعة حيدر آباد ١٣٤٧ هـ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ Procopius : Hist. of the Wars. 1:20; I (vol. 1, p. 189) . هى فى اليمن من ناحية مكة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٢٥٩ .

(٢) القرآن ٨٥ : ٤ — ٥ .

(٣) أنظر . Bertram : Les Arabes, p. 19.

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٦ ؛ المعارف ، ص ٣١٢ ؛ Procopius : Hist. of the Wars. I : 20; 2—8 (vol. I, p. 191). Mordtmann und Eugen Mittwoch : Sabaïsche Inschriften, Hamburg, 1931, S 2. ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٢١ ؛ O'Leary : Arabia, p. 207.

(٥) ابن هشام ، ١ ص ٢٦ ؛ انظر . Huzayyin : Arabia, p. 34. سموها «صنعاء» لحصانتها ؛ ودقة صنعة حصونها . معجم البلدان ٥ ص ٣٨٧ .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ٢٨ — ٢٩ ؛ Procopius : Hist. of the Wars 1 : 20 ; 2—8 (vol. 1, p. 191).

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٣٢ .

التى لاقاها من القبائل اليمنية والحجازية[١] ، وتفشى المرض بين جيشه[٢] ؛ فرجع دون أن يحقق هدفه . وقد دخلت هذه الغزوة فى تقويم عرب الحجاز قبل الإسلام، وعُرفت عندهم بعام «الفيل »، ذلك لأن جيش أبرهة الإفريقى، كان فيه عدد كبير من الفيلة[٣] .

وحاول الحبش تثبيت أقدامهم فى اليمن ، فعملوا على إنعاش اقتصادياتها، بإصلاح ما فسد من سد مأرب[٤] ، كما أرادوا أن يجعلوا من «صنعاء» مركزاً لعرب الجزيرة بدلاً من مكة — التى قدّر أبرهة أهميتها — فبنوا لهذا الغرض كنيسة تسمى القليس[٥] «Eccleisa» بالرخام المجزّع الأبيض والأحمر والأخضر والأسود، الذى أمدهم به قيصر الروم، وطعّموا بابها بالذهب واللؤلؤ، ورشوا حوائطها بالمسك . ولكن هزيمة الحبش فى الحجاز ، واختلال قيادتهم كانت سبباً فى أن تشجع أهل اليمن بزعامة سيف بن ذى يزن الحميرى على الثورة، بعد أن ساعدهم الفرس - أعداء بيزنطة - بقيادة وهرز[٦] ، وحلفاؤهم عرب بادية العراق[٧]، مما مكّن اليمنيين من التخلص من الاستعمار الحبشى. وقد كان لانتصارهم رنة فرح هائلة فى الجزيرة، فجاءتهم الوفود من كل مكان وبخاصة من مكّة، التى كان الحبش قد حاولوا غزوها ، وكان وفدها برئاسة عبد المطلب من قبيلة قريش[٨] ، وهو جد النبى محمد. ولكن بدلاً من أن تعود دولة الحميريين حرة مستقلة ، فإن الفرس ـ الذين كانوا قد توسعوا فى الجزيرة العربية ـ طمعوا فى اليمن

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣١ .

(٢) عن نهايتهم ، انظر . القرآن سورة ١٠٥ . يذكر ابن هشام أنه مرض الحصبة والجدرى . سيرة ، ١ ص ٣٦ .

(٣) المعارف، ص٣١٢. ومع ذلك لا يذكر إلا فيل واحد . أنظر. ملاحظة ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٦٠ .

(٤) يوجد نقش يتكون من ١٣١ سطراً ، على جدران سد مأرب ، خاصاً بما قام به أبرهة من إصلاحه وترميمه السد، فى عام ٥٤٢ م. أنظر. Mordt und Mitt. : Sab. Inschr. S 2 ؛ جواد على، تاريخ العرب، ١ ص ٢١ — ٢٢ ؛ Bertram : Les Arabes, p. 20.

(٥) النويرى ، ١ ص ١٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٥٥ ؛ الجارم ، أديان العرب فى الجاهلية ، ص ٣٥ ؛ انظر . Scott : The High Yemen, p. 212.

(٦) المعارف ، ص ٣١٢ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٤٢ .

(٨) العقد الفريد ، ١ ص ١٣١ .

لأهميتها التجارية؛ وليمنعوا بيزنطة من الإستيلاء عليها ، دبروا قتل ذى يزن. فكان حكام اليمن عند ظهور الإسلام من الفرس، حيث كان آخرهم باذان(١)؛ وإن كان هذا النفوذ الفارسي ـ ولا ريب ـ لم يتعد صنعاء ـ العاصمة ـ وأن قبائل اليمن كانت تتمتع أبداً بحريتها(٢)، وأنها أصبحت تعيش كبقية قبائل عرب الجزيرة فى صراع فيما بينها ، بحيث أنه أصبح لها أسواق ـ تشبه أسواق عرب داخل الجزيرة ـ تأمن فيها على دمائها وأموالها(٣) .

كذلك ظهرت بيئة أخرى للحضر فى المنطقة الواقعة بين الساحل وهضبة نجد، وليدة وجود الماء فى العيون والآبار مما ينبت الزرع(٤)، وإن كانت على الخصوص وليدة وقوعها فى طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وهذه المنطقة سميت حجازاً ؛ لوجود الجبال التى تحجز بين التهائم والصحراء(٥) .

وقد سكن الحجاز جنس سامى من العرب عُرف «بالإسماعيليين»(٦) ، وهم الذين يسميهم المؤرخون المسلمون أيضاً « بنى عدنان» ، ليتميّزوا عن سكان جنوب الجزيرة «بنى قحطان»(٧)، حيث كانوا يتكلمون اللغة العربية؛ التى لم تصلنا بها نقوش مكتوبة ؛ ولعل هذا راجع إلى أنه لم يوجد لها خط متميّز «كالمسند» قبل الإسلام(٨)، أو لأن طبيعة السكان فى الحجاز ـ على ما يظهر ـ لم تكن تميل إلى الكتابة(٩) . وقد كان معظم سكان الحجاز وثنيين عبدة للأصنام كما فى داخل الجزيرة ، إلا أنه انتشرت بينهم الديانات

(١) وهو يسمى بدهان أو باذام. أنظر. المعارف، ص ٣١٣ ؛ ابن هشام، ١ ص ٤٦.

(٢) أنظر. Gibbon : Decline, 5, p. 216.

(٣) اليعقوبى، تاريخ ، ١ ص ٤١٤.

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٥١ ، ٥٣ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٧ ، ٣ ص ٢١٨ .

(٦) أنظر. La chronique de Jean, evêque de Nikiou, notice et extraits par Zotenberg. Paris, 1879, p. 229. الإسماعيليون هم العرب سكان الحجاز ، من نسل إسماعيل بن إبراهيم . ابن هشام ، ١ ص ٥ .

(٧) النويرى، ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها ؛ انظر. قبله.

(٨) يحيى نامى ، أصل الخط العربى ، ص ٧ ؛ Gibbon : Decline, 5. p. 220.

(٩) أنظر . حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٢٥ ــ ٢٦ .

السماوية مثل: المسيحية(١) واليهودية(٢): فلعل الأولى جاءتهم من الشمال عن طريق بيزنطة، أو من الحبشة أو حتى من مصر عن طريق البحر الأحمر(٣)، حيث كانت توجد قبائل مسيحية عديدة على تخوم شمال الجزيرة، أما الثانية فقد جاءتهم فى شكل هجرات يهودية عندما هدم الرومان بيت المقدس(٤)، أو حتى قبل ذلك.

ولكن «مكّة» أو «بكّة»(٥)، كانت أهم مواطن الحضر فى الحجاز؛ ولذلك سميت أيضاً «بأم القرى»(٦)؛ لأنها أعظم البلاد شأناً. وهى بلدة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة بواد غير ذى زرع(٧)، ولكنها انتعشت بسبب وقوعها فى طريق القوافل، وقربها من ميناء «جدّة» على البحر الأحمر(٨). ومنذ قديم الزمان سكنت مكة قبائل عديدة يذكر لنا المؤرخون بعض أسمائها دون ذكر معلومات دقيقة عنها، إلا بعض الأساطير — مثل: العماليق(٩) وجُرْهُم(١٠) وكنانة(١١)،

---

(١) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٢٩٨؛ انظر Gibbon : Decline, 5, p.230 — 231.

(٢) البلاذرى، فتوح، ص ١٥؛ انظر Lammens : l'Arabie Occid, p. 54—55.

(٣) أنظر Bell : The Origin of Islam in its Christian environ-ment, p. 17—18. وإن ذكر أنها لم تأت من الجنوب لوجود الاحتلال الحبشى، فنحن نسمع أن إعادة بناء الكعبة قام بها قبطى.

(٤) وذلك فى عهد الامبراطور «Titus»، حوالى عام ٧٠ ق. م. سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩، ١ ص ٩٨ س ١٩؛ انظر Ricciotti : Histoire d'Israel. trad. Fr, par Auvray. Paris, 1948. 2, p. 543 sqq.

(٥) تختلف هذه الكلمات فى معناها: «فبكة» يقصد بها موضع الكعبة — المكان المقدس — ومكة القرية نفسها (النووى، ١ ص ٣١٣)؛ كما أن لها أسماء أخرى منها: «البيت العتيق» و«البلد». نفسه، ١ ص ٣١٣ — ٣١٤.

(٦) قطب الدين، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق Wust، طبعة Leipzig، ١٨٥٧، ص ١٨.

(٧) نفسه، ص ١٠.

(٨) أنظر. معجم البلدان، ٢ ص ٦٧؛ Gibbon : Decline, 5. p. 213.

(٩) الأغانى، ١٩ ص ٩٤. لعلهم الهكسوس الذين غزو مصر. عن العماليق: عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة New-Haven، ١٩٢٢، ص ١٢؛ أنظر. Ency. ('Amâlîk) 2 éd. t. I, p. 429

(١٠) المعارف، ص ٣١٣ س ١٥

(١١) ابن هشام، ١ ص ٧٣.

وخزاعة[١] . وأخيراً قبل الإسلام دخلتها قريش بقيادة زعيمها قصي[٢]، وأصبحت لها السيادة، ولعلها سميت «قريشاً» لاحترافها التجارة، فالتقرش التجارة والاكتساب[٣]، أو لتجمعها في مكة[٤]، أو لأن قصياً سمي القرشي[٥]. ولا عجب فإن سكان مكة قبضوا على زمام التجارة بعد ضعف نفوذ بني حمير في اليمن، وخضوعهم للحبش ثم الفرس، وقد ذكرت تجارة المكيين في القرآن[٦]: وكانت لهم رحلتان رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف: الأولى كانت إلى اليمن والحبشة، والثانية كانت إلى الشام: فكانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بآلاف الإبل[٧]، التي يقوم على حمايتها جيش خاص اسمه: «الأحابيش»[٨]، لعلهم من العرب أو السودان. فكانت مكة أشبه ببنك كبير[٩]؛ فلم تكن القوافل الكبيرة لشخص واحد؛ وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، مثل: أمية ومخزوم ونوفل وهاشم[١٠]: وبسبب هذا الغنى كانت لهم أموال وبساتين[١١]، في المنطقة

---

(١) نفسه ؛ المعارف ، ص ٣١٣ س ١٧ .
(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١/١ ص ٣٦ — ٤٢ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ٦٠ .
(٤) ابن سعد ، ١/١ ص ٣٨ س ٢٣ — ٢٤ .
(٥) نفسه ، ١ / ١ ص ٤٠ س ٢١ .
(٦) القرآن سورة ١٠٦ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٤٣ .
(٧) ابن هشام ، ١ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٨) المعارف ، ص ٣٠٢. وردت عدة آراء عن «الأحابيش» وأصلهم، فهم قد يكونون حلفاء قريش نسبة إلى جبل بأسفل مكة (أنظر. Reste des Arabischen, : Wellh Berlin, 1929, p. 86.) ، أو لتجمعهم فالتجمع في كلام العرب هو التحبيش (المعارف، ص ٣٠٢) ، أو أنهم من السودان الذين كانوا يدافعون عن قريش (أنظر. Lammens : Les Ahâbîch et l'organisation Militaire de la Mecque au siècle de l'Hégire J. A . 8. 1926, p. 425—82.) ، أو أنهم من العرب الذين كان يستأجرهم أشراف مكة في حالي الحرب والسلم (انظر . العبادي ، صور من التاريخ الإسلامي ، العصر العربي ، ص ١٣ — ٢١) ، بحيث كان لهم « سيد » ، مثل بقية قبائل العرب. ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٣ .
(٩) أنظر. Essad Bey : La Vie de Mah, p. 42.
(١٠) أنظر . ابن سعد ، ١/١ ص ٤٠ س ١ .
كانت قريش البطاح عدة بطون ، هم : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم . العقد ٢ ص ٤٥ .
(١١) البلاذري ، فتوح ، ص ٥٦ .

الجنوبية فى الطائف. ولكن مع وجود هذه البيئة الحضرية فى مكة، فإن طباع أهلها بقيت بدوية، لا تختلف كثيراً عن طباع البدو فى البادية، فكانت تعيش فى رباع كما يعيش أهل البدو فى خيام، فكانوا يتصارعون لأتفه الأسباب، بحيث أن الصراع كان دائماً بين قريش «البطاح»، أى داخل مكة، وقريش «الظواهر»[١]، أى الذين يسكنون شعاب مكة بين الجبال التى تحيط بها.

وفوق ذلك كان لمكة مكانة خاصة: بسبب الاعتقاد فى قدسيتها التى أتت من الاعتقاد فى مجىء إبراهيم[٢] — وهو بحسب قول رواة العرب أبو إسماعيل الذى ينتسب إليه العرب — وبنائه أول مكان فيها للعبادة «البيت»[٣] أو «الكعبة»[٤]، وهو عبارة عن مكان غير مسقف، يحيط به مكان مقدس «حرم»[٥]، لا يجوز القتال فيه أو تدنيسه، وأيضاً لظهور بئر «زمزم»، التى يستقون منها[٦]. فكانت مكة منذ عدة قرون مكاناً مقدساً، يفد إليها العرب من أهل الحضر والبادية، وكلهم يحمل هداياه إلى الكعبة، حيث تُطرح فى بئر بجوارها[٧]. وقد أصبحت الكعبة قبل الإسلام تحتوى فى جوفها على أصنام العرب جميعها؛ فكان بعضها على شكل أناسى أو صقور أو أسود أو حيوانات أخرى[٨]، أو حجارة منقوش عليها[٩]؛ وكان

---

(١) ابن سعد، ١/١ ص ٤٠.

(٢) النويرى، ١ ص ٣٠١ س ١٧ — ١٩، ٣٠٧؛ انظر الثعلبى، قصص الأنبياء، ص ٥٥.

(٣) القرآن ٢ : ١٢٥؛ النويرى، ١ ص ٢٩٧.

(٤) سميت هكذا لأنها مكعبة، أو لأنه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عليها. النويرى، ١ ص ٣١٣ س ٤؛ ابن خلدون، ص ٢٨٠ س ٢٠.

(٥) ابن هشام، ١ ص ١٢٦؛ قطب الدين، ص ١٩.

(٦) ابن هشام، ١ ص ١٧. عنها، انظر Ency. de l'Isl, (Art Zamzam) t, 4, p. 1281.

(٧) ابن هشام، ١ ص ١٢٢

(٨) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٢٩٥؛ Gibbon : Decline, 5, p. 225. بلغ المنصوب منها فى جوف الكعبة وحولها ثلاثمائة وستين صنماً. أنظر ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبعة مصر، ٢ ص ١٢١.

(٩) ابن هشام، ١ ص ١٢٤.

أكبر هذه الأصنام « هبل »[١] ، الذى كان على صورة إنسان من عقيق أحمر ، كما لعله كانت توجد فيها أيضاً تماثيل للمسيح ومريم وموسى ، لوجود بعض قبائل مسيحية ويهودية[٢] .

وكان تقديس العرب للكعبة سبباً فى أن اهتمت قريش بتنظيم الحج إليها ، فترتب على ذلك ظهور أنظمة سياسية[٣] ، منها : الملأ[٤] وهو مجلس القبيلة ، والسّدانة[٥] وهى خدمة الكعبة ، والسقاية[٦] وهو تقديم الماء للحجاج ، والرفادة[٧] وهى إطعام من لم يكن له سعة ، والندوة[٨] وهى التى يكون فيها أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة ، والحجابة أى حفظ مفاتيح الكعبة ، وأخيراً اللواء[٩] ويقصد به راية الحرب للدفاع عن مكّة.

وكان الحج إلى الكعبة يتم فى وقت معين «موسم» ، من شهر ذى الحجة ، من العام القمرى ، وذلك طبقاً « لمشاعر » أو «مناسك»[١٠] ، ترجع إلى وقت بنائها[١١] . وكان يتحتم على الحجاج الغرباء أن يبدوا عراة[١٢] ، وإن استثنى من هذا النساء اللاتى يضعن ثيابهن كلها ، وكانت قريش وحدها لها ميزة ارتداء

---

(١) الأصنام ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) أنظر . Essad Bey : La Vie de Mah., p. 45.

(٣) أنظر . ابن هشام ، ١ ص ٨٠ .

(٤) أنظر . لسان ، ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ؛ Snouck Hurgronje: Mekka, Haag 2ed. 1888—1889, I, p. 21—22.

(٥) لسان ، ١٧ ص ٦٩ ؛ انظر . Lammens : l'Arabie Occid, p. 107. يقال غالباً السدانة والحجابة ، وهى تقريباً بنفس المعنى . لسان ١٧ ص ٦٩ .

(٦) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٤١ س ١١ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٨٣ .

(٨) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٣٩ — ٤٠ ؛ انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ، ص ٦ — ١٢ .

(٩) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٤٤ س ٥ ؛ الحفنى ، شرح ، ١ ص ٤٢ .

(١٠) النويرى ، ١ ص ٣٠٦ ؛ ابن الكلبى ، الأصنام ، ص ٦ .

(١١) ابن هشام ، ١ ص ٥١ . منذ إنشاء إبراهيم الكعبة .

(١٢) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٤١ س ٩ .

ثياب سموها «ثياب الحمس»[١]، وإعارتها لمن يريدون؛ كما أن بعضهم كان يطوف بالبيت وهو لابس نعاله. كذلك كان يمنع الحجاج من أن يجزوا شعرهم وظفرهم، ولا يدهنون أو يتطيبون، أو يمسون النساء، أو حتى يأكلون اللحم، أو يحملون السلاح [٢]. وكان من المناسك أن يطوف الحجاج فى صفوف وهم يعجون بالأناشيد ويصفرون، كأنهم يعبدون[٣]، ثم يدخلون البيت فيقبلون أولا أسافا ـ أحد الآلهة ـ وكذلك عند خروجهم[٤]، ثم يستلمون حجراً أسود فى ركن منه، يُعتبر أقدم الأحجار المقدسة[٥]. وبعد زيارة الكعبة يسعى الحجاج إلى تلّى الصفا والمروة الصخريين، وهما قرب مكة، وكان عليهما صنمان: الأول يسمى مجاور الريح، والآخر مطعم الطير[٦]، ثم بعد ذلك يتفرقون فى الأماكن المجاورة مثل: عرفة والمزدلفة، لنحر الجمال والخراف[٧]، وفى وقت ما كانوا يضحون أيضاً بالأشخاص[٨]، فقد كانت التضحية هى الوسيلة التى تقرّب المضحى من الآلهة[٩]. وكانت قريش تُخرج لنفسها ــ فى هذه المناسبة ـ قباباً حمراء من الأدم أى الجلد، دلالة على زعامتها للعرب[١٠]، على عكس الآخرين، الذين كانت قبابهم من الشعر. كذلك عُرف فى مكة نوع آخر من

---

(١) ابن هشام، ١ ص ١٢٨. الحمس مأخوذة من الحماسة للدين. الخشنى، شرح، ١ ص ٦٥.

(٢) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٢٩٧.

(٣) أنظر قول القرآن: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ٨ : ٣٥﴾.

(٤) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٢٩٥.

(٥) النويرى، ١ص ٣١٤ وما بعدها؛ انظر . Gaudefroy - Demombynes : Le Pélerinage à la Mekke. Paris, 1923, p. 41. Ency. de l'Isl,(art, Ka'ba) 2, p. 662. قل المؤرخون العرب روايات كثيرة عن أصل هذا الحجر، منها أنه كان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، وأنه أسود من أرجاس الجاهلية. أنظر . النويرى، ١ ص ٣١٤ وما بعدها؛ الثعالبى، قصص الأنبياء، ص ٥٨.

(٦) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ٢٩٥ س ١٤ — ١٥؛ الوطأ، دهلى ١٣٠٧هـ، ص ١٤٥.

(٧) ابن هشام، ١ ص ٥١.

(٨) القرآن ٣٧ : ١٠١؛ انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 225.

(٩) أنظر . Tor Andrae : Mah, p. 13.

(١٠) ابن سعد، ١/١ ص ٤١ س ٧؛ انظر . Lammens: L'Arabie Occid, p. 130.

الحج يسمى : العُمرة[١] ، وهى تكون فى رجب، وهذه لا يصحبها غالباً الاشتراك مع الجماعة . وقد تكون فرادى . وكان فى آخر موسم الحج تنشط التجارة بين حجاج الجزيرة ، ويتبارى الشعراء أو الخطباء فى أسواق مكة ، مثل : عكاظ وذى المجاز[٢]. وكان من عادة العرب الصالحين - إذا رحلوا عن مكة - أن يحتملوا معهم حجراً من حجارة الحرم المقدسة لعبادتها ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة[٣]. وعلى العكس كان بعض الحجاج من البدو - بعد إنهاء مراسم الحج - يستحلون المظالم فينهبون ويقتلون[٤] . وقد قامت قريش - حامية الكعبة - بحركة إصلاح ، مؤداها ألاّ تقرّ بمكة ظلماً سواء أكان من أهلها ، أم من سائر الناس[٥] ، فعقدت مع قبائلها والقبائل المجاورة حلفاً عُرف : « بحلف الفضول »[٦] .

هذا النشاط التجارى الذى كان السبب فى وجود مراكز الحضر فى اليمن والحجاز تسبب أيضاً فى وجود مواطن قرار ، أو ممالك بدوية - منذ قديم الزمان - فى باديتى الشام والعراق . وقد شجعت الدول الكبرى التى كانت تسيطر بجوار هذه المناطق على قيامها ، واتخذتها درعاً تتقى به غارة البدو على تخوم حدودها ، فكانت أشبه بالدويلات الحاجزة (Buffer State). ولا ريب فى أن حب العربى للوفاء جعله يستطيع أن يتعامل مع هذه الأمم الغريبة عنه ، فكان لقاء « جُعل » أو « أتاوة »[٧] ، يترك مهنته فى « الغارة »[٨] ،

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٤ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .
(٤) اليعقوبى ، ١ ص ٣١٤ .
(٥) ابن هشام ، ١ ص ٧٣ .
(٦) المعارف ، ص ٢٩٤ .
(٧) أنظر Procopius: Hist. of the Wars 2 : 10;24 (vol. 1, p. 351).
(٨) الأصطخرى ، مسالك الممالك ، ص ١٤ س ٧ .

ويخفر حدود حلفائه من تعدى القبائل الأخرى ، وينعم فى الوقت ذاته بحياة مستقرة نوعاً . ولكن الفرس أو الروم لم يكونوا يقوون على ثقتهم الدائمة فى عرب الحدود ، ولذلك كانوا يقضون أحياناً على هذه الممالك البدوية أو يهملونها ؛ فكانت تعود إلى حياتها الأولى [١] . فنذكر من الممالك المشهور فى بادية الشام ممالك [٢] : « النبط » و « تدمر » و « والغساسنة » . ومن ممالك بادية العراق مملكة : « اللخميين » .

فتنسب مملكة « النبط » المعروفة لليونان والرومان باسم : « Nabataei » [٣] ، إلى شعب من العرب ، سكن بادية الشام وجنوب سورية حوالى القرن الثانى قبل الميلاد [٤] . ويظهر أن هـــذا الشعب كان من إحدى الهجرات التى عرفت « بالآراميين » [٥] ، جاءت من داخل الجزيرة العربية ، حيث أنهم اتخذوا الآرامية لغة للكتابة [٦] ؛ وإن كانت تبدو هجرة من نوع خاص ، لعلها كانت امتزجت بعرب الحجاز أو سيطرت عليهم ، إذ ربما كانوا يتكلمون لهجة قريبة من العربية [٧] ، كما يبدو من الأسماء المنقوشة على الصخور والقبور ، مثل [٨] : حبيب وسعيد وحارثة وقصى وعمر

---

(١) أنظر . Gibbon : Decline, 5, p. 216.

(٢) ظهرت ممالك أخرى فى هذه البادية معلوماتنا عنها قليلة : مثل اللحيانية وثمود والصفوية ، وهى نبطية الشكل عربية ، وجد بها كثير ، أنظر . Repertoire d'épigraphie Sémitique. Paris. ؛ وقبله .

(٣) أنظر . Pliny : N. H. 12 : 37 ; 73(vol. 4, p. 55).

(٤) Cooke : North Semitic Inscriptions. Oxford, 1903, p.216 ؛ انظر . O'Leary : Arabia, p. 82.

(٥) المسعودى ، التنبيه ، ص ٣٦ .

(٦) الطبرى (Annales) ١ : ٢٢٠ ، انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص٦ ؛ Hitti : Hist. of Sy, p. 385 . أنظر صورة . هذه الكتابة .

(٧) أنظر . Cooke : Op. cit., p.18. ؛ يحيى نامى ، أصل الخط العربى ، ص ٧ .

(٨) أنظر . Littmann : Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, 1914, p. 71—24.

ومسعود ؛ أما سبب تسميتهم « بالنبط » ، فلعله من أنهم كانوا يستنبطون ما يخرج من الأرض[١] ، أى أنهم مستقرون وليسوا رعاة .

وقد استغل النبط الإنقسام بين قواد الإسكندر ، ومدوا مملكتهم من غزة حتى أيلة[٢] «Aila» على شاطىء بحر القلزم ، فى أرض صخرية وعرة ، ولذا سمى اليونان عاصمتها — التى نجهل اسمها النبطى[٣] — باسم : « Petra »[٤] أى الصخر ، أما العرب فسموها — على مايظهر — « سَلع[٥] » ، لوقوعها بين شقوق الجبال. فكانت مملكة النبط قوية يخشاها اليهود فى الشام ، فنجد ملكها الحارث الثالث — الذى يسميه اليونان « Arethas » — يحاربهم ، كما أنه غلب بومبى « Pompeius » ، فى سنة ٦٤ ق . م ، الذى سعى إلى مد حدود الرومان فى فلسطين[٦] . ولما جاء احتلال الرومان للشرق ، بقيت مملكة النبط حليفة لهم ؛ وحافظت على حدودهم « Limes » ، بحيث أنهم اشتركوا معهم فى حملتهم لغزو اليمن فى سنة ٢٤ ق م .[٧] ؛ وكانوا — على كل حال — على صلة باليمنيين ، بدليل عثورنا على نقوش نبطية باليمن[٨] .

---

(١) المسعودى ، التنبيه ، ص ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٨ . يظهر أنهم غير نبط العراق ، فهؤلاء من العنصر الكلدانى ، الذى قد يكون أيضاً هجرة من داخل الجزيرة .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩١ . وهى عرفت بالعقبة فى العهد الإسلامى . نفسه ، ٦ ص ١٩١—١٩٢ ؛ أنظر . Hitti : Hist. of Sy. p. 383 ; n. 3).

(٣) أنظر . نامى ، أصل الخط العربى ، ص ١٠ .

(٤) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 142—145 (vol. 2, p. 447).

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٠٧ . «الأسلاع» هى طرق فى الجبال ؛ وهى تقع بوادى موسى ، الذى يربط البحر الميت بخليج العقبة . أنظر . نفسه . ومن ناحية أخرى ، لعلها «الرقيم» ، التى ذكرها القرآن . أنظر . سورة ١٨ آية ٩ .

(٦) Josephus : Antiq. 13 : 15 ; 2 : 14 : 5 ; 1. ؛ انظر . Hitti : Sy. , p. 377—378 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ٢٦ .

(٧) Strabo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p. 453 sqq). ؛ وقبله

(٨) نامى ، نشر نقوش سامية قديمة ، ص ١١٨ — ١١٩ . نقش رقم (٩٠).

ولكن الامبراطور تراجان «Traianus»[1] (٩٨ — ١١٧ ب م) ، خاف منهم وضمهم إلى الامبراطورية الرومانية في حوالي ١٠٥ ب . م . ؛ وأصبحت ما يُعرف عندهم باسم : «Provincia Arabia»[2] . هذه المملكة البدوية العربية — التي كانت مركزاً لالتقاء القوافل ، وسوقاً تجارية هامة[3] — اشتهرت بآثارها العجيبة ؛ التي لا تزال توجد حتى الآن ، أهمها المسرح[4] وهو بناء على النمط اليوناني ، كما أنها كانت تسك العملة بنقوش ورسوم للملك والملكة[5] . أما عبادتهم فلم تكن تخرج عن عبادة عرب الجزيرة ، فيبدو من النقوش أنهم كانوا يعبدون اللات ومناة والعزى وهبل[6] كعرب الحجاز ، وإن كان لابد أن تكون هذه العبادة قد تأثرت أيضاً بالعقيدة اليونانية ، التي كانت تفرض نفسها في الشرق .

أما مملكة تدمر ، فقد سُميت باسم مدينة تَدْمُر[7] «Thadamora» القديمة ببادية الشام ، فسكنتها قبائل عربية ، لعلها جاءتها نتيجة للهجرات الآرامية

---

(١) Marcellinus : Rerum Gestarum Libri qui Supersunt, L. G. L. 1950: bib. 14 : 8 ; 13 (vol. I, p.71) ؛ جواد علي ، تاريخ العرب ، ٣ ص ٤٧ .

(٢) أنظر . Gibbon : Decline, 5, p. 214.

(٣) أنظر . Doughty : Travels in Arabia Deserta: 2ed, p.41—42.

(٤) أنظر . Brunnow und Domaszewski : Die Provincia, Arabia. Strasbourg, 1904, vol: I, p; 250 251 ؛ Hitti : Sy., p.378-9.

(٥) أنظر . Hill : Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia., p. XI sqq. ؛ انظر . Hitti : Sy., p. 381.

(٦) أنظر . Hitti : Sy, p. 385. ؛ مراد وهدى ، تاريخ الأدب السرياني ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٤ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ ؛ Josephus : Antiq. 8 : 6 ; I ؛ انظر . Hitti : Sy., p. 388. . مدينة قديمة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩) ، ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . أنظر . جرجي زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

أيضاً من داخل الجزيرة نحو الشمال ، حيث اتخذت الآرامية لغة لها[١]. ويظهر أن هذه القبائل استطاعت حوالى القرن الأول قبل الميلاد استغلال ظروف الحروب بين اليونان والرومان من ناحية ، وبين الفرس والرومان من ناحية أخرى ، فأنشأت مملكة قوية اتخذت لها عاصمة بقرب حمص ، وهي التي عُرفت بالاسم اليوناني : «Palmyra» ؛ ومعناها بلد النخيل[٢]. وتدل النقوش التي وجدت بالآرامية واليونانية على مدى تقدم هذه المملكة واتساعها ، والتي اكتسبت مركزاً تجارياً ممتازاً بعد سقوط مملكة النبط ، بحيث تعتبر وريثة لها.[٣] ويتميز تاريخ هذه المملكة العربية بملك وملكة مشهورين ، فالملك هو «أذينة[٤]» ، وهو المعروف للرومان باسم «Odonathus»[٥] ، فقد عبر الفرات واستولى على الجزيرة[٦] ، وزحف فى فارس ، وحارب الفرس أعداء الرومان ، ولكنه قتل فى ٢٦٦ أو ٢٦٧ م ، فى ظروف غامضة[٧] . أما الملكة أرملته فهى المشهورة للعرب باسم «زينب» أو «الزباء»[٨] ، وللرومان باسم «Zenobia»[٩] ؛ وهى على عكس أذينة ؛ أرادت أن تعتمد على الفرس[١٠] ، فى تكوين مملكة سورية كبيرة ، فمدت حدودها فى آسيا الصغرى حتى خلقدونية قرب القسطنطينية[١١] ، وأرسلت جنودها إلى

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ٢ ص ٧٠ .

(٢) أنظر . Hitti: Sy., p. 389.

(٣) أنظر . Musil: Id Palmyrena. New-York, 1928, pp.237-46.

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٢ ص ٧٠ .

(٥) أنظر . Procopius: Hist. of the Wars.2:5; 5(vol. I,p. 295).

(٦) أنظر . Ibid. 2:5; 6(vol. I, p. 297) ؛ انظر : Huart et Delaporte: L'Iran Antique, p. 344.

(٧) أنظر . Hitti: Sy.,p. 393.

(٨) الجاحظ ، كتاب المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٧١ وما بعدها ؛ انظر . الزركلى ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام ، القاهرة ١٩٢٧ ، ١ ص ٣٣٠ .

(٩) أنظر . Procopius: Hist. of the Wars 2:5;4 (vol.I,p.295).

(١٠) أنظر . Huart et Delaporte: L'Iran Antique, p. 344.

(١١) أنظر . Hitti: Sy, p. 395.

مصر، لمساعدة أهلها فى ثورتهم ضد الحكم الرومانى[١] . هذه الملكة الشجاعة التى كانت تلبس الخوذ على رأسها، وتركب الجياد[٢] ،حاربها امبراطور الرومان أورليان « Aurelianus » (٢٧٠ — ٢٧٥ م) ، وأسرها لموقفها العدائى من روما ، ودمر عاصمتها فى ٢٧١م[٣] ؛ وبذلك قضى على هذه المملكة العربية المزدهرة .

وقد تركت لنا هذه المملكة آثاراً كثيرة وبخاصة حول حمص وبعلبك[٤] ؛ كما أنها كانت تسك العملة، وينقش عليها اسم ملوكها ، أما عبادتها فهى مثل عبادة النبط وثنية ، وإن دخلتها عقائد رومانية وفارسية[٥] .

أما مملكة الغساسنة ، فقد ظهرت أيضاً فى بادية الشام ، نتيجة لهجرة يمنية جاءت من جنوب الجزيرة بعد اختلال نظمها الزراعية ، واستقرت حول نبع ماء عُرف باسم «غسان»[٦]، فنُسبت إليه. ويظهر أن الأرض لم تكن ممهدة لها ، وذلك لأن بادية الشام سكنتها قبائل أخرى منها قضاعة[٧] والضجاعمة[٨]، لعلها كانت أيضاً يمنية . ولكن يبدو أن قيام الغساسنة يرجع على الخصوص إلى تشجيع الدولة البيزنطية، التى كانت تعانى من غارات البدو، ولذا كانوا يعرفون «بروم العرب»[٩]، نسبة إلى حلفائهم الروم أى البيزنطيين، الذين حلوا امكان الرومان

(١) أنظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ١٠٧ .

(٢) أنظر . Hitti : Sy., p. 393.

(٣) أنظر . Huart et Delaporte : Op. cit, p. 344.

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٥) أنظر . Hitti: Sy., p. 394.

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٨ س ٨ — ٩، ٦ ص ٢٩٢ .

(٧) المسعودى ، مروج الذهب (Prairies) ، ٣ ص ٢١٥ .

(٨) اليعقوبى ، تاريخ، ١ ص ٢٣٥ .

(٩) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٠١ ؛ أنظر . Cheïra : La lutte entre, Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 19,

فى هذه المنطقة؛ فامتدت مملكتهم من بادية الشام حتى دمشق ، وعُرفت لها عدة عواصم منها: «الجابية» و «جلق»[١] ، وهذه الأخيرة لعلها اسم آخر «لدمشق» . وقد كان الغساسنة كالبزنطيين يدينون بالمسيحية ؛ وإن كانوا على المذهب اليعقوبى المخالف لمذهب بيزنطة الذى انتشر فى الشام ومصر[٢] ، ولذا عُرفوا أيضاً باسم: «العرب المتنصرة»[٣] ، كما انتشرت بينهم اليهودية[٤] ؛ لمجاورتهم يهود فلسطين .

ويتميّز تاريخ الغساسنة بقوة ملوكهم المسمّين: «بنى جفنة»[٥] ، وعُرفوا للعرب باسم: «ملوك الشام»[٦] . وكانت هذه الدولة مخلصة لحلفائها البيزنطيين، بحيث أن جستنيان «Justinianus» (٥٢٧ — ٥٦٥ م) منح الحارث بن جبلة «Arethas Gabalas» لقب ملك «Basileus»[٧] ، لأنه كان يضبط أمور الشام ، أثناء توجيه همه إلى حروب الغرب فى أسبانيا وشمال إفريقيا[٨] ، ولمحاربته أعداءه الفرس ، وأتباعهم عرب العراق[٩] . وقد بقيت مملكة الغساسنة إلى وقت انسياح العرب مع حركة الفتوح فى الشام ، فكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم ، الذى اشترك مع الروم فى قتال

---

(١) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ١ ص ١٧٩ س ١٧ ؛ انظر . نولدكه ، أمراء غسان ، نقلها إلى العربية وأضاف إليها تصحيحات بندلى جوزى وقسطنطين، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٥١ — ٥٢ ؛ Demombynes : La Syrie. Paris, 1923, p. 32.

(٢) ينسب هذا المذهب إلى البطريق يعقوب البردعى «Jacobus Bardaeus» ، الذى قال بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وليس بالطبيعتين كما فى بيزنطة ؛ وهذا ما يعبر عنه بالأرثوذكسية.
أنظر . سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٤٦ ؛ Bell : Op. cit, p.. 18 sqq.

(٣) الكامل ، ٢ ص ١٩٢ س ١١ — ١٢ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ س ١٦ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٧٧ ؛ انظر . نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٣ و ٩ . هذه على اسم جدهم . أنظر . البرقوقى ، شرح ديوان حسان بن ثابت ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٣٠٩ ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، ٤ ص ١١٩ .

(٦) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ٤٣ .

(٧) أنظر . Procopius : Hist. of the Wars, I : 17; 45—47 (vol. I, p. 159 . كذلك يذكر أن ماسبقه كان يسمى فقط «Phylarchos» ، أى زعيم قبيلة . أنظر . Id.

(٨) أنظر . Thoumin : La Syrie, p. 161.

(٩) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٤ س ١٢ ؛ انظر . Huart et Delaporte : Op. cit, p. 354.

جيوش العرب بقيادة خالد بن الوليد[١]، ولكنه هُزم ، ثم انضم للعرب وأسلم ؛ ثم تنصر بعد ذلك ، وهرب إلى القسطنطينية .

وأخيراً قامت فى بادية العراق بتشجيع الفرس مملكة من قبائل العرب التى هاجرت أيضاً من اليمن فى عهد مبكر ، واتخذت لها عاصمة على سيف الصحراء عُرفت « بالحيرة » [٢] ، ومعناها « المخيم » [٣] . ونلاحظ أن تاريخ مملكة الحيرة قديم ، وقد خُرّبت عدة مرات على أيدى ملوك فارس[٤] ، نذكر منهم على الخصوص شهبور بن هرمز[٥] (٣١٠ — ٣٧٩ م) - ويسميه اليونان Sapor - الذى بسبب كثرة ما قتل من العرب عُرف « بذى الأكتاف »[٦].

ولكن تاريخ هذه المملكة يرتبط إلى حد كبير بتاريخ زعماء قبيلة « لخم »[٧] ، الذين يظهر أنهم من نسل ملوك التابعة[٨] ، فبنوا فيها القصور المشهورة على نسق قصور اليمن ، مثل القصرين المشهورين : « الخورنق والسدير »[٩] . ولدينا أسماء قليل من ملوكهم ، وإن كانت معلوماتنا عن بعضهم

---

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٦ ؛ نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٤٩ .

(٢) الدينورى ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ، ص ٥٥ ؛ انظر . O'Leary: Arabia, p. 154.

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ٣ ص ١٨١ وما بعدها . لعل أصل هذه الكلمة آرامى من « حرتا » (أنظر . Rothstein : Die Dynastie der Lakhmiden, in al-Hîra.Berlin, 1899. S.12 ؛ جواد على ، تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ ، ٤ ص ٥) ، أو حتى من الكلمة العربية « تحير » . أنظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٧ .

(٤) المصدر السابق ، ٣ ص ٣٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٠٤ .

(٥) أنظر عن هذا التاريخ Huart et Delaporte : Op. cit, p. 346.

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٣ س ٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . ولعله فعل ذلك بسبب أن العرب كانت قتلت والده هرمز . أنظر Huart et Delaporte: Op. cit, p. 246 . وذكر ابن الأثير أن السبب هو أن العرب كانت تطمع فى بلاد فارس . أنظر . الكامل ، ١ ص ٢٢٨ .

(٧) الدينورى ، ص ٥٥ .

(٨) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٠ .

(٩) النويري ، ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

لا تتعدى مصادرها بعض الأساطير[١] . ولكن أشهر ملوكهم قاطبة هو المنذر بن النعمان، المعروف للبيزنطيين باسم «Alamoundaras»[٢] ، والملقب بابن ماء السماء[٣] (٥٠٥ - ٥٥٤م)، وهو الذى سار فى مائة ألف من أتباعه، ليحارب البيزنطيين وحلفاءهم الغساسنة[٤]، حيث حدثت الموقعة المشهورة عند العرب بيوم «حليمة[٥]»، التى اشترك فيها الشاعر المعروف لبيد بن ربيعة.[٦]

وفى أول الأمر كان سكان الحيرة وثنيين على دين عرب الجزيرة[٧]، ويذبحون الذبائح للأصنام، ولكن يظهر أنهم لكى يتخلصوا من سيطرة الفرس؛ اعتنقوا المسيحية فى عهد النعمان بن المنذر ، المعروف « بملك العرب »[٨] ، والمكنى « بأبى قابوس»[٩] ، وهو الذى مدحه الشعراء مثل:

---

(١) نذكر منهم: جذيمة بن الأبرش ، الذى غررت به ملكة فى بادية شمال الجزيرة اسمها «الزباء» وأهلكته ـ على كل حال نعتقد أنها ليست الزباء التى أسرها الرومان ـ (أنظر قصتها: ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٤٩ — ٢٥٠) ، وعمرو بن عدى ، الذى يظهر أنه انتصر على هذه الملكة ، وفى سبيل ذلك جدع شخص اسمه قصير أنفه ، لدبر المساعدة لعمرو ابن عدى فى قتل الزباء ؛ فكان المثل يقول : « لأمر ما جدع قصير أنفه » (أنظر . نفسه، ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١) ؛ ولعله أول من اتخذ الحيرة منزلا للملوك (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٩) . كذلك قد يكون منهم امرؤ القيس الشاعر المعروف (أبو الفدا ، المختصر، ١ ص ٧٠)، الذى توفى سنة ٣٢٨م. عن وفاته، انظر. نقش نمارة فى: Rép. Chron. d'Epig, Arabes t. I, p. 1—2.

(٢) أنظر. Procopius. Hist.of the Wars. 1:17;1. (vol.1. p. 145).

(٣) نسبة إلى أمه ، التى كان يقال لها ماء السماء لجمالها وحسنها . أبو الفدا، المختصر ، ١ ص ٧١ .

(٤) المعارف ، ص ١١٤ ؛ Haurt et Delaporte : Op. cit, p. 354.

(٥) نسبة إلى حليمة ابنة ملك الغساسنة ، التى كانت تلبس لباس المحاربين . أنظر . المعارف ، ص ٣١٥ .

(٦) الشعر والشعراء ، ص ٥٠ . توفى لبيد فى أول خلافة معاوية ، وعمره حوالى مائة وسبع وخمسين سنة .

(٧) المعارف ، ص ٢٩٩ ؛
تاريخ النسطوريين (Chronique de Séert)، نص عربى تحقيق Scher ، فى (Patrologia Orientalis) ، الجزء ١٣ ، ٢ ، ص ٤٦٨ [١٤٨] .

(٨) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٢ .

(٩) المعارف ، ص ٣١٩ .

طرفة بن العبد والنابغة الذبيانى (١) . وقد كان اعتناقهم المسيحية على المذهب النسطورى (٢) ، حيث ، كان منتشراً فى منطقة الجزيرة والعراق ، وهو مخالف لمذهب بيزنطة ، فلعل تسمية سكان الحيرة « بالعباد » (٣) ، بسبب أنهم مسيحيون يعبدون الله ؛ وقد ظهرت لهم أديرة مشهورة ، مثل: دير هند زوجة النعمان بن المنذر (٤). ويظهر أن تحول عرب الحيرة إلى المسيحية أخاف الفرس من أن يقربهم ذلك من أعدائهم البيزنطيين : فنجد ملكهم كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨م) ، يستدرج ملك الحيرة النعمان ويقتله (٥). ولكن سكان الحيرة — ومعهم القبائل المجاورة — ثارت لمقتله ، وهاجمت الفرس وهزمتهم فى موقعة ذى قار (٦) ، وهـــذه الموقعة مشهورة فى أيام العرب (٧) ، ودلت على قدرتهم على قتال الأمم الكبيرة . ولكن قبل الإسلام عادت الحيرة — كغيرها من ممالك العرب البدوية — مثل اليمن والبحرين خاضعة لسيطرة الفرس تماماً (٨)، مما يدل على ضياع سلطة اللخميين

---

(١) أنظر . قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب.

النويرى ، ٣ ص ١٨٢ ؛ العقد ، ١ ص ١٣١ .

(٢) تاريخ النسطوريين ، ١٣/٢ ص ٤٦٨ [١٤٨] . النسطورية نسبة إلى بطريق اسمه نسطورس «Nestorius» ، وهى تطورت إلى الكثلكة ، نسبة إلى بطريق اسمه «Katholikos» . أنظر . Bell : Op. cit, p. 24—25.

(٣) الشابستى ، الديارات، تحقيق كوركيس ، بغداد ١٩٥١ ، ص ٢٣ ؛ انظر. Nöldeke : Geschichte der Perser und Araber. Zur Zeid der, Sasaniden. Leyde,1879 p. 24; n. (4). ولكن ياقوت يقول : إنهم سموا هكذا، بسبب عبادتهم لملوك الفرس . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٠ س ١١ — ١٢ ؛ وبعده .

(٤) الأغانى ، (طبعة دار الكتب) ، ٢ ص ١٣١ .

(٥) تاريخ النسطوريين ، نفس المصدر ، ١٣ / ٢ ص ٣٩٥ [٢٢٩] .

(٦) المعارف ، ص ٢٩٣ ؛ جاد المولى ، أيام العرب فى الجاهلية ، ص ٦ — ٣٩ . هى مكان قرب الكوفة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٨ — ٩ .

(٧) الميدانى ، ٢ ص ٢١٦ .

(٨) المعارف ، ص ٣٢٠ س ١ .

نهائياً ، وإن كانت شوكة العرب فى الحيرة قد بقيت قوية [١] .

* * *

هذه هى صورة لحياة العرب فى البادية والحضر قبل ظهور الإسلام ، وهى صورة رتيبة لحياتهم، التى انقلبت وتغيرت تغيراً عنيفاً، بسبب ظهور دين جديد هو دين الإسلام ؛ الذى جاء به النبى محمد ، فوضع حداً بين تاريخ الجزيرة الجاهلى ، وتاريخها الذى أتى بعد ذلك .

(١) تاريخ النسطوريين ، ٢/١٣ ص ٥٤٦ [٢٢٦] .

الفصل الثاني

عصر النبوة

تعليل ظهور الأديان — سيرة النبي قبل الدعوة — الوحي — الحنيفية والإسلام — موقف قريش — التحرش بالمسلمين — الهجرة — الصراع بين مكة والمدينة — سقوط مكة — ما جاء به الإسلام في الحياة الدينية والإجتماعية والسياسية .

تعليل ظهور الأديان مسألة دقيقة تناقش فيها العلماء كثيراً : فبعضهم يرون أن عوامل ظهور الأديان يمكن تقصيها بالبحث العلمي في ظروف المجتمع وتطوره[١] ؛ وعلى العكس يرى البعض أن المحرك لأية حركة دينية هو الفرد وليس المجتمع[٢] ، بدليل أن جميع الديانات المعروفة نشأت تحمل أعلاماً شخصية ، مثل : موسى وعيسى ومحمد .

ومهما يكن الإختلاف في أصل نشأة الأديان ؛ فإن تشابهها من أوجه كثيرة يدل ـ ولا ريب ـ على أنه لا بد أن يكون لها جميعها أصل واحد تتلاقى عنده ، فضلاً عن أنه يجمعها اسم « الدين »[٣] . وكذلك من الجدير بالذكر أن الثلاثة

---

(١) أنظر . Tor Andrae : Mah., p. 7.

(٢) أنظر . دراز ، ص ٥٩ .

(٣) يختلف العلماء في أصل هذه الكلمة ، فلعلها معربة عن العبرية أو الآرامية أو الفارسية أو حتى من العربية « دان » بمعنى إنقاد [أنظر . Ency. de l'sl, (art. Dîn,) t.p. 1002 ؛ دراز ، ص ١٣ وما يليها ؛ فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، المقالة الأولى ، تعريب طه بدر ، الجيزة ١٩٢٧ ، ص ٥٥ — ٥٦] . وهذه الكلمة تأتي في القرآن =

الأديان السماوية المعروفة وهى: اليهودية والمسيحية والإسلام جميعها من أصل سامى ، وأنها نشأت على تخوم الجزيرة العربية وفى داخلها [١]؛ وليس فى أماكن متفرقة من المعمورة .

ومن ناحية أخرى نجـــد فى القرآن - وهو الكتاب الدينى - أن الإنسان لم يسر إلى الأديان ، وإنما هى التى سارت إليه ونزلت عليه [٢] ؛ فالله لما خلق آدم - أبا البشرية - علمه أنه هو الخالق ؛ الذى تجب طاعته وعبادته ، وأن هذا التعليم الأول لم يقف به عند الإنسان الأول ، بل مازال يتعهد بتبليغه الأمم فى فترات تقصر أو تطول ، وجعل يذكرهم به على لسان الأنبياء والرسل الذين كان آخرهم محمد .

وليس من السهل عرض سير الأنبياء عرضاً علمياً ؛ وذلك لبعدهم فى التاريخ، وإحاطة الناس لحياتهم بكثير من الأساطير . فمع ظهور النبي محمد فى صلب التاريخ؛ فإن معظم ماوصلنا عن حياته الأولى جاء عن طريق الرواية الشفوية ، وهى غير موثوق بها إلى حد ما . وعلى العكس يمكننا فقط أن نتتبع سير تهسنة بعد سنة منذ هجرته إلى المدينة بعد أن اضطهده المكيون حتى وفاته ، فى القرآن وفى غيره من مصادر التاريخ الموثوق بها ، وهى تقريباً إحدى عشرة سنة .

فنحن لانعرف تاريخ ميلاده بالضبط ، وإن كانت الرواية تريد أن تجعل مولده عام الفيل [٣] (أى حوالى ٥٦٥ م) ، وهو العام الذى لم يستطع

= بمعان مختلفة منها مثلاً : « الآخرة » (سورة ١ : ٣) ؛ وكان الفقهاء قد فسروها على أنها تعنى المبادىء والاعتقادات الألوهية الخاصة بالإسلام . القرآن ٩٨ : ٥ ؛ انظر . دراز ، ص ٢٦ وما يليها ؛ Ency. I, p. 1002 .

(١) أنظر . Bell : Op. cit, p. 13. .

(٢) دراز ، ص ١٥٨ . أنظر . هنا الاقتباس .

(٣) لدينا تواريخ مختلفة لمولد النبي ، ولكن لابد أن تكون قبل عام ٥٦٥ م ، وهى سنة وفاة الأمبراطور حستنيان الذى حرض الأحباش على غزو اليمن (أنظر . قبله) . كما أن البعض =

فيه الأحباش الاستيلاء على مكة ، مما يدل على الرغبة فى الربط بين مولد النبي العربى وهذا الحادث القومى بالنسبة لقريش .

وكان نبى الإسلام — مثل غيره من الأنبياء — ذا حسب فى قومه[١]، حتى تكون له عصبية وشوكة يستطيع بها أن يبلّغ قومه رسالته ، فأبوه عبدالله من أسرة بنى هاشم القوية فى مكة [٢] ، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش . وقد اشتهر معظم أجداده فى الجاهلية بالسيادة ، أو بالتجارة الرابحة فى مكة : فقصىّ هو الذى يرجع إليه الفضل فى استيطان قريش مكة بعد أن قادها فى حرب ناجحة ضد خُزاعة [٣] ، وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش وهما : رحلة الشتاء والصيف[٤] ، وعبدالمطلب هو الذى شرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، فأعاد حفر بئر زمزم بعد أن طُمست ، وكان يسقى منها الحجاج الوافدين على مكة [٥].

= يجعل مولد النبى يتفق مع وقعة ذى قار (ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ١٠) ؛ وإن كان تاريخ هذه الوقعة مثل وقعة الفيل غير معروف بدقة ، فلابد أن مولده يقع فى حكم كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨م) ، الذى قتل النعمان بن المنذر أو بعده بقليل . كذلك نجد عدة تواريخ كلها استنتاجية وقائمة على أساس الرجوع إلى التاريخين المحققين لهجرة النبى فى ٦٢٢ م ، ووفاته فى ٦٣٢ م . أنظر . عن هذه التواريخ المتعددة Blachère : Probl. p. 15. ; Tor Andrae : Mah, p. 31 ؛ انظر Lammens : L'Age de Mahomet et la Chronologie de la Sîra. J. A., 17 (1911), p. 209—250.

ومع ذلك ، فإن جميع المسلمين يحتفلون منذ زمن مبكر بمولد النبى فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول من كل عام ، بالاعتماد على ماورد من أحاديث نبوية عن مولده . أنظر : إحتفال الفاطميين بالمولد . صبح الأعشى (طبعة دار الكتب) ، ٣ ص ٥٠٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، الجزء الثانى.

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ س ٢٠ .

(٢) المعارف ، ص ٥٦ . هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى .

(٣) نفسه ، ص ٣٤ س ٤ وما بعدها ؛ ابن هشام ، ١ ص ٧٥ و٧٩ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٧٨ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٧٩ ، ٩١ .

وتبدو حياة محمد الأولى مليئة بالمفاجآت : فقد أباه وهو في بطن أمه ، وفقد أمه بعد ذلك بقليل [١] ، وبقي في رعاية جده عبد المطلب ، ثم عمه أبي طالب ، وكلاهما أغدق عليه من عطفه وحنانه الشيء الكثير . وما أن شب طفلاً حتى اشتغل راعياً للأغنام عند عشيرة بني سعد[٢] — مثلما فعل معظم الأنبياء قبله[٣] — وقد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة [٤]، وشهد معه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب «الفجار »[٥]؛ وقد سميت بهذا الاسم لقيامها في الأشهر ، التي اتفق العرب على تحريم القتال فيها .

وبعد ذلك يظهر لنا محمد كشاب يافع يتزوج من خديجة بنت خويلد [٦]، وهي امرأة تاجرة ذات شرف ومال . تستأجر الرجال في مالها [٧]، وذلك على الرغم من أنها كانت تكبره سناً ، وأنها تزوجت قبله مرتين [٨] ، وقد أتاح هذا الزواج لمحمد مركزاً ممتازاً في الحياة المكية ، فعاش عيشة هادئة كأي حضري يعيش في مدن الحجاز ، وبقي معها فم ينكح عليها امرأة حتى ماتت [٩] ؛ وهو إخلاص غير عادي في بيئة تعودت تعدد الزوجات [١٠]. فولدت له من الأولاد الذكور : القاسم وطاهر والطيب ، ومن الإناث : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة [١١] .

---

(١) نفسه ، ١ ص١٠٧ . توفيت أمه : آمنة بنت وهب ، بعد ولادته بست سنوات. أنظر، بخصوص نشأة النبي يتيماً . القرآن ٩٣ : ٦ — ٨ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥.

(٣) نفسه ، ١ ص ١٠٦.

(٤) نفسه ، ١ ص ١١٥ ؛ ابن سعد ، ١ / ١ ص ٧٦ .

(٥) الميداني، ٢ص ٢٦٠؛ ابن هشام ، ١ ص١١٧ وما بعدها .

(٦) أنظر. مقالة العبادي ، صور من التاريخ الإسلامي «أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ص ٢٦ ، ٣٦ .

(٧) ابن هشام ، ١ص ١١٩ .

(٨) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٥ س ٥ — ٨ .

(٩) نفسه ، ص ٦٥ س ٨ ، ٩ .

(١٠) أنظر . Bertram : Les Arabes, p. 21.

(١١) المعارف ص ٦٩ . كذلك كان للنبي ابن اسمه ابراهيم ، أنجبه من زوجته المصرية مارية القبطية . ابن هشام ، ١ ص ١٢١ .

ونراه فى هذه المرحلة الأولى من حياته يتنزه – مثل غيره من الأنبياء – عن المذمومات [١] : فلم يشترك فى عبادة الأصنام مع مواطنيه ، وشب والله يكاؤه ويحفظه من أقذار الجاهلية : لما يريد من كرامة الرسالة [٢] ، كما حبب إليه الخلوة ، فكان يقضى على عادة العرب القديمة شهراً كل سنة يتحنث [٣] ، أى يبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة فى غار من جبل « حراء » . أحد جبال مكة . كذلك كانت تصرفاته تدل على أنه رجل صادق صريح ، حتى اشتهر بين عشيرته وأهله وسموه « بالأمين » [٤] ، لاستقامته وكمال خلقه .

وفجأة فى سن الأربعين [٥] ، يملك محمد موهبة « النبى » [٦] أو « الرسول » [٧] ، بمعنى أنه كُلف – مثل غيره من الأنبياء والرسل [٨] – بالقيام برسالة دينية إلى أمته ، وذلك عن طريق ما سماه القرآن : « وحياً » [٩] أو « جبريل » [١٠]

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ س ٢ — ٣ .
(٢) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٧٦ س ٢٥ — ٢٧ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٥١ ، ١٥٢ ولعل المقصود بهذه الكلمة البحث عن دين إبراهيم أو « الحنيفية » . أنظر . بعده . أما عن جبل « حراء » : ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٢٣٩ — ٢٠٤ .
(٤) ابن هشام ، ١ ص ١١٧ .
(٥) المعارف ، ص ٧٤ .
(٦) القرآن ٦ : ١١٢ ، ٧ : ١٥٧ . هذه الكلمة لها المعنى ذاته فى الآرامية والعبرية . أنظر Ency. de l'Isl, (art Nabî) 3, p. 857 .
(٧) القرآن ٣ : ١٤٤ ، ٧ : ١٥٧ . هذه الكلمة أخص من النبى لأن كل رسول نبى ، يحمل بالضرورة رسالة إلهية إلى بنى قومه . أنظر . تاج العروس ، ١ ص ١٢١ — ٢ ؛ Ency. de l'Isl, (art Rasûl) 3, p. 1206.
(٨) القرآن ٤ : ١٦٣ ، ١٠ : ٤٨ .
(٩) نفسه ٥٣ : ٤ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ٧٨ س ٢٦ ؛ انظر Nöldeke : Qorâns, p. 16 . هى كلمة معناها فى اللغة الإسراع والإشارة والإلهام والكلام الخفى والاستدلال . اللسان ، ٢ ص ٢٥٧ .
(١٠) القرآن ٢ : ٩٧ — ٩٨ .

أو « روح القدس » [١]. ويبدو من وصف النبي لهذا الوحي أنه: رؤيا أو أحلام تأتيه مثل فلق الصبح [٢]، أو سماع دوىّ من الكلام، أو مثل صلصلة جرس لا تنقضي إلا ويعى ما يُراد [٣]، أو طيفاً يتمثل له في أفق السماء يدنو منه ويخاطبه [٤]، أو أنه يرى ضوءاً ويسمع صوتاً [٥]. وهذا الوحي — في رأي ابن خلدون [٦] — لم يكن إيحاءً كالذي عند الشعراء أو الكهان يحصل عليه بالاكتساب، أو الاستعانة بشيء من المدارك الحسية أو التصورات، وإنما هو إنسلاخ من البشرية بالفطرة في لحظة غير زمنيه أقرب من لمح البصر. ويبدو أن نزول الوحي على النبي كان شديد الوطأة [٧]، بحيث أنه كان إذا نزل عليه في اليوم الشديد البرد تفصد عرقاً [٨]، أو أنه يشعر بقشعريرة ويتغير لونه وقد تأخذه غشية — وهي في الحقيقة إستغراق روحاني [٩] — وفي هذه الحالة وبعدها يتلو ما تلقاه من الوحي [١٠]. ومع ذلك فلم يرد على لسان النبي في القرآن أنه رأى الخالق وجهاً لوجه أو سمع له صوتاً.

وقد كان قصد هذا الوحي أن يُكلف النبي بدعوة العرب إلى دين أجدادهم

(١) نفسه ٢ : ٧٨. وكان يسمى أيضاً: « الناموس الأكبر ». ابن سعد، ١ / ١ ص ١٣٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٦ — ٣٧٨.

(٣) نفسه، ص ٧٣.

(٤) القرآن ٥٣ : ٤ — ١٠، ٨١ : ١٢ — ١٣.

(٥) ابن سعد، ١ / ١ ص ١٢٩.

(٦) المقدمة، ص ٧٣ وما بعدها.

(٧) أنظر. القرآن (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ٧٣ : ٥).

(٨) ابن سعد، ١ / ١ ص ١٣٢. لما سئلت عائشة عن الوحي قالت: « ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وأن جبينه ليتفصد عرقاً ».

(٩) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٣.

(١٠) ابن سعد، ١ / ١ ص ١٣١ س ١٧ و ١٩.

الذى تركوه، وهو ملة إبراهيم، أو ما يُعرف «بالحنيفية»(١): ﴿ ثمَّ أوْحَيْنا إليْكَ أنِ اتبعْ ملَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً ومَا كانَ مِنَ المشركين١٦:١٢٣ ﴾. ونحن لا نعرف عن عقائد هذا الدين العربى القديم شيئاً كثيراً إلا ما ورد بخصوصه فى القرآن على أنه عبادة الله «رب ابراهيم»(٢)، وحده لا شريك له، وأنه ليس يهودية أو نصرانية(٣). ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الدين العربى القديم قد أخذ فى عهد النبى اسماً آخر أصبح يُعرف به هو «الإسلام»(٤)، وهى كلمة عربية من «سَلِمَ»، وتعنى الإستسلام لأمر الله، وتقبل محمد كرسول الله(٥). ولم يكن اسم الإسلام يوجد فى كلام العرب قبل مبعث النبى، ولا قبل ظهوره بالنبوة(٦). وقد كان كل ما يخص الإسلام من عقائد وأوامر مما يأتى عن طريق الوحى يسمى: «قرآنا»(٧)، وهو بلغة العرب فى

---

(١) ابن هشام، ١ ص ١٥٢. أختلف فى أصل هذه الكلمة، فلعله عربى بمعنى الميل إلى الدين المستقيم (المصباح المنير ١، ص ٢٣٩ — ٢٤٠)، أو سريانى من الكلمة "hanapa"؛ بمعنى دين مستقل عن الأديان الأخرى (أنظر. Tor Andrae : Mah, p. 109. ؛ Blachère : Le Probl. de Mah, p. 22.). ومن ناحية أخرى لانعرف ماهى «الحنوفية»، التى كانت لها أتباع بين عرب الحيرة قبل تنصرها (أنظر. تاريخ النسطوريين (P. O.)، ١٣ / ٢، ص ٤٦٨ [١٤٨])؛ وعلاقتها «بالحنيفية».

(٢) القرآن ٤ : ١٢٤؛ ابن هشام، ١ ص ١٤٤. كلمة رب من أسماء الله؛ وإن كانت كلمة الله أكثر استعمالاً.

أنظر: Chelhold : Note sur l'Imploi de mot Rabb dans, le Coran. Arabica t v. Mai 1950, p. 159—167.

(٣) القرآن ١٦ : ١٢٣. ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ٢ : ١٣٥ ﴾.

(٤) نفسه، ٣ : ١٩، ٦ : ١٦٢.

(٥) نفسه ٤ : ١٢٤؛ اللسان، ١٥ ص ١٨١ — ١٨٦ : انظر. Ency. de, l'Isl, (art Islam) 2, p. 574 — 577. Goldziher : Le dogme et, la loi de l'Isl, trad. Felix, p. 2.

(٦) أبو حاتم الرازى، الزينة، ١ ص ٩٨.

(٧) وردت له أسماء مختلفة يذكرها السيوطى منها: نور وفرقان وكتاب وتنزيل. أنظر. الإتقان فى علوم القرآن، الطبعة الثالثة، ١ ص ٨٦ — ٨٧؛ Ency. de l'Isl, (art al-Kor'ân) t. 2, p. 1124-1139. وهذه الكلمة «قرآن»، قد تكون اسماً =

الحجاز ، وبأسلوب الكتب المقدسة التى نزلت على الأنبياء من قبل(١).
ولذلك من الخطأ تسمية هذا الدين بدين محمد(٢)، وذلك لأن غرض محمد لم يكن عبادته كما فعل المسيحيون بالمسيح، وإنما غرضه الدعوة لدين «الحنيفية» القديم ، الذى أخذ فى عهده اسم « الإسلام » .

وقد بدأ محمد الدعوة للإسلام أو الحنيفية فى أهل بيته و بين بعض أقاربه، وأنه رسول الله إليهم الذى ينزل عليه الوحى ، فآمن به البعض ، ولم يؤمن به البعض الآخر : فكانت زوجته خديجة أول من صدّق بدعوته(٣) ، وإن كان عمه أبو طالب الذى رباه لم يؤمن بها . ثم أنه حاول أن يوسع نطاق هذه الدعوة ، فتوجه بها كما طالبه القرآن إلى عشيرته الأقربين(٤) — وكان جلهم من كبار رجال مكة — ظناً منه أنه إذا أقنعهم سهل ضم عامة العرب إليهم ، ولم يكن طريق هذه الدعوة مفروشاً بالورود ، وإنما بالشوك وخرط القتاد .

ويظهر أن زعماء مكة لم تأخذهم الدهشة لدعوة محمد إلى دين إبراهيم ؛ بقدر دهشتهم لقوله إنه رسول الله إلى أمته ، ذلك لأن الحنيفية كانت معروفة فى الجزيرة، (٥)، وأن الله كان يُعرف عند العرب على أنه « رب الكعبة »(٦)، وأنه الواحد؛ فكان يُقال فى الجاهلية « أعيذ بالواحد » (٧) ؛ وإن كان تغيير ملة إبراهيم — كما ينقل رواة العرب — يُنسب إلى قبيلة خُزاعة (٨) ،

= غير مشتق لتدل على كلام الله مثل التوراة والإنجيل، أو مشتق من قرنت الشىء بالشىء أى ضممت أحدهما إلى الآخر ، أو من القرائن لأن الآيات منها يصدق بعضها البعض ، أو حتى من القراءة . أنظر . السيوطى .

(١) يقول السيوطى إن الآراء اختلفت فى كيفية نزوله ، منها : أن جبريل أداه باللفظ ، أو أنه نزل بالمعانى وأن النبى علم تلك المعانى وعبرعنها بلغة العرب . أنظر . السيوطى، الإتقان، ١ ص ٧٤ — ٧٦ .

(٢) أنظر : Bertam . Les Arabes, p. 32.

(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٠٠ .

(٤) القرآن ٢٦ : ٢١٤ .

(٥) ذكرها أمية بن أبى الصلت (م ٦٢٤) فى شعره ، وتنبأ بنجاحها .

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور.

أنظر . كتاب شعراء المسيحية ، جمعه الأب شيخو، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٢١٩ .

(٦) الحيوان ، ١ ص ٣٢٩ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ١٠٢ (٨) الكلبى ، الأصنام ، ص ٥٨ .

التى كانت تسكن مكــّة قبل قريش ودعت العرب إلى عبادة الأوثان ، وجعلتها صلة بين الله وقريش(١). بل وُجد فى مكــّة قبل ظهور محمد جماعة من قريش(٢)، تفرّقت فى البلاد تلتمس دين الأجداد .

وقد روى القرآن الحوار الذى كان بين النبى والمكيين ، وهو يدل على عدم اكتراثهم بدعوته : ﴿ وقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتى تَفْجُرَ لَنَا منَ الأرْضِ يَنبُوعاً ، أوْ تَكونَ لكَ جنةٌ من نَخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خلالَها تفْجيراً ، أوْ تسقِطَ السماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً ، أوْ تَأتِيَ باللهِ والملائكةِ قَبيلاً ١٧ : ٩٠ — ٩٢ ﴾ ولكن محمداً لم يرض أن تنسب اليه معجزة غير نزول الوحى عليه من قِبل الله ، فكان يرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحانَ رَبى هَلْ كُنتَ إلاّ بَشَراً رسولاً ١٧ : ٩٣ ﴾ . ومع ذلك لم يحل رفض النبى الإتيان بالمعجزات من أن يُنسب إليه صفات خارقة ، فبعضهم يؤكد أنه حين ولادته خرج نور أضاء الشام (٣) ، وأنه وهو صغير شقت الملائكة بطنه وغسلوا قلبه بالثلج حتى أصبحا نقيين(٤) ، وأيضاً فسروا سورة الإسراء(٥) ، بأن الله رفعه إلى السماء ، وأنه قطع رحلة سماوية فى بضع ساعات من الليل.

والذى جعل المكيين أيضاً يعارضون دعوه محمد ، هو حطه من عبادة الأصنام ، فإنهم كانوا يدركون بحق اضمحلالها وتدهورها ، ولكن التطاول عليها

(١) القرآن ٣٩ : ٣ .

(٢) يذكر ابن هشام أسماءهم ، وهم أربعة رجال : ورقة بن نوفل ، وعبيدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو . سيرة ، ١ ص ١٤٣ .

(٣) ابن سعد ، ١ / ١ ص ٩٦ س ٢٣ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥) القرآن ١٧ : ١ ؛ البخارى ، صحيح ، القاهرة ١٢٧٨هـ ، ٢ ص ١٨٥ ؛ مسلم ، صحيح ، بولاق ١٢٩٠ هـ ، ١ ص ٥٩ ؛ الطبرى ، تفسير ، ١٥ ص ٣ ؛ انظر . Ency. de, l'Isl, (art Isrâ') t. 2, p. 589 – 590) . يميل المفكرون الحديثون إلى القول بأن سورة الإسراء تعنى الإسراء بروح محمد دون جسده ، أو أنها رؤيا . أنظر . هيكل ، حياة محمد ، ص ١٩٥ ؛ Tor Andrae : Mah., p. 49.

معناه التطاول على عبادة الأجداد، التى تعودوا عليها منذ أن جاءت قريش إلى مكة ، فهى معارضة الكبرياء . ثم إن ذكر محمد للوحى والبعث والحساب ، أعتبرت عندهم بدعاً لا يقبلها إيمانهم أو عقلهم . ويظهر القرآن تعجبهم من دعوته بقولهم(١) : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ١٧ : ٩٨ ﴾ .

ومما جعل المكيين ينظرون شذراً إلى الإسلام ، أن نفوذهم كان يرتبط أشد الارتباط بعبادة الأصنام التى جمعها عرب الجزيرة فى الكعبة ، فى منبع نفوذهم ، وسبب سيطرتهم عليهم . كما كان وجود هذه الأصنام فى مدينتهم سبباً فى وفود آلاف الحجاج إليهم كل عام ؛ فوقف الحج إلى مكة ستكون نتيجته حتماً القضاء على وسائل معايشهم وتجارتهم الواسعة(٢) . وفى الواقع إن محمداً بدعوته إلى الإسلام لم يكن يريد أن ينال من نفوذ مكة أو الكعبة، بل على العكس كان يرى دائماً أنه من واجبه المحافظة على هذا النفوذ ليستغله هو فى نشر دعوته بين العرب إذا ماتحول أهلها إلى الإسلام، وخصوصاً أن مكة يرتبط تاريخها بإبراهيم ، الذى إليه تُنسب الحنيفية أى الإسلام .

أضف إلى ذلك أن بيوتات قريش منذ سكناها مكة كانت تتنازع على الزعامة ، بالسيطرة على وظائف الكعبة من رفادة وسقاية... الخ، بحيث أن الحرب كادت تدمر القرشيين فى أول سكناها هم مكة ، لولا تحاجزهم بالصلح(٣) . وقد تجدد

---

(١) أنظر . أيضاً القرآن ٥٦ : ٤٧ .

(٢) Von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. Wien, 1875. vol. I, p 24 ; Khuda Bukhsh: Essays, Indian and Islamic. London, 1912, p. 8.

(٣) المقريزى ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، ص ٢، ٧ .
تفرقت قريش بسبب النزاع على هذه الوظائف إلى فريقين : أحدهما بنو عبد مناف =

النزاع على الزعامة بين هاشم ـ وهو أحد أجداد النبي ـ وأمية بن عبد شمس ـ ومن نسله الأمويون ـ ولكن أمية عجز عن الحصول عليها أمام هاشم ، وأضطر إلى أن يرحل إلى الشام؛ فكانت هذه أول عداوة وقعت بين بيتي هاشم وأمية، كما يلاحظ ابن الأثير(١) . ويظهر أن الأمويين في وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت لهم الزعامة الحقيقية فى مكة على الرغم من أن بنى هاشم كانت لهم السيطرة على بعض وظائف الكعبة ، وذلك لأن أبا طالب الذى ورث الرفادة والسقاية عن أبيه عبد المطلب كان فقيراً لا مال عنده(٢) ، هذا فضلاً عن أن زمام التجارة فى مكة كان يشرف عليها أبو سفيان من البيت الأموى(٣) . ولذلك نجد أن البيت الأموى كان من أشد المعارضين للإسلام، خوفاً من أن تعود الزعامة لبنى هاشم ، إذا ما نجحت دعوة النبي.

ومهما يكن لم يتعرض المشركون(٤) — وهى تسمية القرآن للوثنيين — لمحمد طالما لم تكن آلهتهم موضوع هجوم ، فلما بدأ يحقر من شأنها،(٥)

= ومن انضم إليهم ، الذين عقدوا حلفاً فيما بينهم مؤكداً لإرادتهم فى نيلها. ولكى يؤكدوا على أنفسهم ذلك غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة بالطيب، ولذا سموا «المطيبين» ، كما أن أعداءهم بنى عبد الدار ومن انضم إليهم عقدوا عند الكعبة حلفاً على ألا يتخاذلوا فى الحصول عليها وسموا « الأحلاف » ؛ ولكنهم اصطلحوا ورضوا بقسمة هذه الوظائف بينهم . ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٦٧.

(١) نفسه ، ٢ ص ١٠ س ٩ ، ١٦ — ١٧ .

(٢) ليس لدينا تفصيلات عن توزيع هذه الوظائف فى بدء عهد الإسلام ؛ وإن كنا نعرف أن بنى هاشم اقتصر إشرافهم على السقاية والرفادة . أنظر . نفسه ، ٢ ص ١٤ س ١٧ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٨٠ .

(٤) القرآن ٤١ : ٦ .

(٥) ابن هشام ، ١ ص ١٨٣ .

ويسميهم « بالكفار » (١) ، أخذوا يتحرشون به، وبدءوا بتوجيه تحذير إلى أسرته بنى هاشم (٢) ، بحيث أضطر محمد أن يجتمع سراً فى شعاب الجبال ، أو فى بعض المنازل. وكانت الآيات القرآنية التى تنزل عليه فى ذلك الوقت، ترسم للمسلمين أصول الدعوة الجديدة، وهو طابع الدعوة فى مكة .

ولكن استمرار الدعوة جعل المشركين يهاجمون المسلمين ، وبخاصة الأرقاء والضعفاء منهم . فكانوا يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ويسحبونهم على الرمال الساخنة وقت الظهيرة. فلما رأى النبى ما أصاب المسلمين من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنع عنهم الشر ، عرض عليهم الهجرة إلى الحبشة (٣) ، ولعل ذلك بسبب أنها أقرب الديار للجزيرة العربية ، ولأن شمال الجزيرة كان وقتئذ مسرحاً للحرب بين بيزنطة وفارس ، ولأن سكانها مسيحيون من أهل الكتاب وليسوا من المشركين (٤). ومع ذلك لم يترك مشركو مكة المهاجرين آمنين ، بل تبعوهم إلى هناك يضايقونهم ويحرضون الحبشة عليهم (٥) . ورغم ذلك نجد أن شخصيتين كبيرتين فى مكة هما : حمزة عم النبى وعمر بن الخطاب (٦)، يتحولان إلى الإسلام ، مما كان له أثره فى تقوية الدعوة الإسلامية، ودخول المترددين فيها ، بل ورجوع المهاجرين من الحبشة ؛ ليكونوا بقرب النبى.

عندئذ نجد المشركين يتخذون خطوة جديدة فى القضاء على هذه الدعوة التى تزايد أتباعها ، فعقدوا فيما بينهم عهداً سموه « بالصحيفة» (٧)، تعاهدوا فيه على

---

(١) القرآن ٨ : ١٤ .
(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٣) نفسه ، ١ ص ٢٠٨ .
(٤) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Muhammad) 3, p. 691
(٥) ابن هشام ، ١ ص ٢١٧ .
حدث ذلك فى عهد النجاشى أصحمة (أجها)، ويقال إنه أسلم ، وأن البطارقة من أصحاب النجاشى كانوا على العكس ضد المسلمين ؛ بل ضده أيضاً ، حتى أنهم أقاموا نجاشياً آخر . الكامل ، ٢ ص ٥٤ — ٥٦ ؛ يوسف أحمد ، الإسلام فى الحبشة ، ص ٥ .
(٦) ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، تصحيح حسن الهادى ، ص ١١ — ١٢.
(٧) ابن هشام ، ١ ص ٢٣٠ وما بعدها . سماه النبى عند إسلامه « فاروقاً » ، لأن الله

مقاطعة بنى هاشم وعدم التعامل معه : فلا يؤاكلونهم ، ولا يشاربونهم، ولا يبايعونهم، ولا يناكحونهم، ولا يكلمونهم، حتى ينبذوا محمداً والمسلمين؛ ولكى يؤكدوا على أنفسهم قداسة هذا العهد وضعوا الصحيفة فى جوف الكعبة. ومع أن كثيراً من بنى هاشم أنفسهم لم يؤمنوا بدعوة محمد ، فقد رأوا أن سحب حمايتهم لواحد منهم نزولاً على تهديد منافسيهم بنى أمية - الذين تزعموا المعارضة كما ذكرنا - يعتبر أمراً مهيناً فى نظرهم، ولذلك صبروا على هذا الحصار ثلاث سنين.

ولكن على أثر وفاة أبى طالب عم النبى وخديجة زوجته ؛ بالغ المشركون فى الاعتداء على النبى وطمعوا فيه [1]، حتى كان من أعدائه من هم من أفراد أسرته ، مثل : عمه أبو عتبة، وهو يكنى بأبى لهب [2] ، فكان يسخر منه كلما وجده ، ويحمّل امرأته الشوك لتطرحه فى طريقه حتى يعقره [3]. وبدأ النبى يفكر فى الهجرة من مكة ، إذ كما يقول المثل : « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

فأول ما فكر النبى فى الهجرة إلى الطائف [4] ، وهى قرية تقع فى جنوب مكة ، لأن سكانها - وهم من قبيلة ثقيف - كانت تربطهم بقريش صلة القرابة، فضلاً عن أنه كان لأغنياء المكيين فيها أملاك وبساتين [5]. ولكن أهل الطائف رفضوا حمايته ، لأنهم مثل المكيين يعبدون الأصنام ، وعلى الخصوص صخرتهم المربعة المعروفة باسم «اللات» [6]، التى كانت تعتبر فى نظرهم أم الآلهة «الربة» [7]. كذلك كانت الطائف فى الحجاز ، بلد الربا والزنا ، وأن أهلها أصحاب شراب ؛ مما جعل قبولها لدعوة دينية سامية ، أمراً غير مقبول [8] .

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ .
(٢) سمى هكذا لجماله ، المعارف ، ص ٦٠ .
(٣) أصبح يضرب بها المثل فيما بعد ، فكان يقال : « أخسر من حمالة الحطب » . أنظر . الميدانى ، ١ ص ١٧٢ . أنظر أيضاً : القرآن ١١١ : ١ — ٥ .
(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٠ وما بعدها .
(٥) فتوح البلدان ، ص ٥٦ ؛ وقبله .
(٦) القرآن ٥٣ : ١٩-٢٠؛ الأصنام ، ص ١١٦ و ١٠٩ ؛ وقبله .
(٧) الزبيدى، تاج العروس، ١ ص ٢٦٢ ؛ الأصنام ، ص ١٠٩ ؛ وقبله .
(٨) الأغانى، ٣ ص ١٩٢ ، ٦ ص ٥٨ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ١٠ وما بعدها .

ولذلك رجع النبي إلى مكة : بعد أن أهانه سفهاء ثقيف ، فى حماية أحد تجار الطائف الكبار[١] .

عندئذ توجه النبي بدعوته من جديد إلى الوافدين فى موسم الحج من عرب يثرب، الواقعة شمالى مكة؛ لعل هؤلاء يجيرونه . فقد كان يسكن يثرب القبيلتان: الأوس والخزرج[٢]، اللتان جاءتا إليها بعد انهيار سد مأرب المشهور فى اليمن. ويظهر أنهما كانتا تتنافسان على الزعامة فيها ، بحيث وقعت بينهما حروب كثيرة أشهرها يوم «بُعاث[٣]»، وكانوا وثنيين يعبدون صنماً اسمه «مناة[٤]» . وكذلك كان يسكن يثرب جماعة من اليهود ، وهم ثلاث قبائل : بنو القينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ولعلهم استوطنوها منذ هجرتهم من فلسطين، أو هجرتهم من اليمن، بسبب اضطهاد الحبش لهم، وقد اختلط هؤلاء اليهود بالعرب فى يثرب، وصارت أحوالهم مثلهم ، واستحالت لغتهم أيضاً وأسماؤهم عربية[٥] ، وإن كانوا — مع ذلك — يعيشون فى أماكن خاصة بهم سموها «آطام»[٦] جمع «أطم» ، عبارة عن قلاع تشتمل على بيوتهم ومعابدهم . ويظهر أن هؤلاء اليهود بعد أن كانوا — مثل الأوس والخزرج — يتنازع بعضهم مع بعض ، أصبحت

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ .

(٢) المختصر ، ١ ص ١٠١ .

(٣) أنظر . ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٥؛ على مظهر، العصبية ، ص ٤٣ . ولعل المقصود بهذه الكلمة الخروج للغزو .

(٤) القرآن ٥٣ : ١٩ ؛ الأصنام ، ١٣ — ١٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٨ س ١٦ — ١٧ . يرى ولفنسون — المؤرخ اليهودى الحديث — أن يهود يثرب أقرب إلى العنصر اليهودى منهم إلى العنصر العربى . أنظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٦ و ٢٠ .

(٦) الروض الأنف ، ٢ ص ٥٢ ؛ ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٧ . بالعبرية تعنى المكان المغلوق (أنظر . ولفنسون ،٢ ص ١١٧) ، ولعلهم أخذوه عن نظام بناء بيوتهم فى فلسطين . أنظر . Wensinck : Mohammed en de Joden te Medina, Leiden. 1908, p. 44

بيدهم معظم أراضي يثرب وتجارتها وصناعتها ، أما الأوس والخزرج فكانوا من مواليهم أي أتباعهم (١) ، كما تهوّد من هؤلاء قوم لمجاورتهم لليهود (٢) .

واستطاع النبي أن يؤثر في قلوب بعض الحجاج من الأوس والخزرج ، وخصوصاً أنهم كانوا على سمع من روايات أحبار اليهود عندهم بظهور المسيح المنتظر (٣) ، أو المنقذ في آخر الزمان ، فضلاً عن أنهم كانوا يطمعون في وجود نبي لهم وكتاب مثلما عند اليهود (٤) . وقد قبل دعوته منهم في أول الأمر عدد قليل يبلغ اثني عشر رجلاً بينهم امرأة واحدة ، وبايعوه عند مكان بين مُنى ومكّة اسمه «العقبة» ، ولذلك سميت : « بيعة العقبة الأولى » ، نسبة إلى هذا المكان ، أو « بيعة النساء » (٥) ، لأنها لم تكن إلا بيعة على الدين ، فلم يأخذوا على أنفسهم فيها عهداً بحمايته ، حتى يفكروا ملياً في الأمر خوفاً من قريش .

ولكن الإسلام كُتب له البقاء ، فقد حضر وفد من اليثربيين إلى مكة عند أول الموسم الجديد بعد عامين من بيعتهم الأولى عدده ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، وكان عهدهم إليه هذه المرة صريحاً في دعوته ومعه جميع المسلمين بيثرب ، وقبولهم لأي تحدٍ من قريش أو غيرها ، وهو ما عبروا عنه بحرب الأسود والأحمر ، وسميت : « بيعة العقبة الثانية » (٦) . وفعلاً هاجر معظم مسلمي مكّة إلى يثرب ، فلما علمت قريش بذلك استشاطت غضباً ، وراحت تدبر مؤامرة في دار الندوة لإغتيال النبي (٧) ، الذي ما علم بذلك حتى تسلل خفية هو وأبو بكر مترسماً طريق يثرب إلى الشمال ، مختفيا في المغارات والكهوف ،

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٨٦ .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٢٩٨ س ١٤ — ١٥ .
(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٠٢ ؛ انظر . أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وعابدين والنحراوي ، الجيزة ١٩٤٧ ، ص ٣٠ .
(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٣٤ .
(٥) نفسه ، ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ . عن عقبة ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٢ .
(٦) نفسه ، ١ ص ٢٩٣ وما بعدها .
(٧) ابن سعد ، ١ , ١ ص ١٥٣ س ١٢ .

المنتشرة على طول الطريق(١) . فلما وصل سالماً دخل يثرب وسط ترحيب أهلها، وسميت بهذه المناسبة « المدينة »(٢)، وفيما بعد «المدينة المنورة» لوجود قبر النبي بها؛ وهى التى سترتفع شهرتها إلى شهرة مكة وصنعاء، وستصير عاصمة الجزيرة العربية فى عهد الخلفاء الأوائل. وقد عرف مجيء النبي إلى يثرب «بالهجرة»، وهى من الفعل «هَجَر»(٣) ، الذى كان يعنى عند العرب خروج البدوى إلى المدن ، وتاريخها يوم الأثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول(٤) (٢٤ سبتمبر ٦٢٢م).

وكان أول ما فعله النبي فى المدينة هو بناءه المسجد(٥)، وهى كلمة وردت فى القرآن(٦) ، وعرفت فى الجاهلية على أنها اسم البيت الذى تطوف حوله القبائل(٧)، ولكن فى الإسلام أصبح المسجد هو مكان العبادة عند المسلمين. وكما كانت ساحة الكعبة لا يجوز القتال فيها ، وتعرف «بالحمى» أو « الحرم »(٨) ، كذلك أصبح مجموع المسجد فى الإسلام «حرماً»؛ لا يجوز القتال فيه ، وغير قابل

---

(١) أهمها غار ثور المشهور ، حيث ينقل الرواة أن النبي كان راكباً فى هجرته ناقته « القصواء » . النويرى ، ١٠ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ . كما سميت بأسماء أخرى ، منها : مدينة الرسول أو دار الإسلام أو أرض الله . أنظر . الواقدى ، فتوح الشام ، تحقيق Lees ، ص ٤٥ — ٤٦ ؛ معجم البلدان، ٧ ص ٤٢٥ وما بعدها .

(٣) اللسان، ٧ ص ١١٠ وما بعدها ؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Hidjra) 2, p. 321.

(٤) المعارف، ص ٤٥، ص ٩ — ١٠ ؛ انظر . Grimme : Mohammed. Erester Teil. Münster, 1892, p. 47.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٨٣ ؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Masdjid) 3, p. 362.

(٦) القرآن ٢ : ١٤٤ و ١٨٧ .

(٧) لسان العرب ، ٤ ص ١٨٨ ؛ قطب الدين ، كتاب الأعلام ، ص ١١ س ٨ . هذه الكلمة وجدت أيضاً فى النقوش الآرامية والنبطية والعبرية وحتى الحبشية . أنظر . Ency. de l'Isl, 3, p. 362 . وعلى العكس فإن كلمة جامع لم تستعمل إلا فى الأزمنة المتأخرة . أنظر . فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، ص ٥٨ هامش(١) .

(٨) أنظر . Demombynes : Le Pèlerinage, p. 1.

للتنجس(١) . وكان مسجد النبي بسيط البناء(٢) ، فلم يكن غير فناء ضيق ؛ يحيط به جدار من اللبن ، وليس فيه غير مكان واحد مسقّف ، يغطيه الجريد المثبت على جذوع النخيل ؛ أما بقية أجزائه فكانت مكشوفة ؛ وقد أفرد النبي الجزء المسقوف لبعض من جاء معه من مكّة ولم يجدوا مأوى ، وسموا لذلك «بأهل الصُّفة» ، أي الذين يأوون إلى صُفة المسجد ، وهو المكان المسقوف. وقد بقي هذا المسجد خالياً من كل مظاهر الترف ؛ إلاّ من حجرات أو بيوت بناها النبي حوله(٣) ، ولكن أعيد بناؤه في عهد الأمويين(٤) ، وأدخلت فيه المقصورة والمحراب والمنبر والأعمدة الرخامية والعقود . ويبدو أن النبي في أول عهده كان يترك للمؤمنين الحرية في اختيار قبلتهم في الصلاة(٥) ؛ التي كانت تتجه إلى مكة أو إلى القدس ، وهي أيضاً بقعة مقدسة لورود الأنبياء إليها . ولما بني المسجد جعلت قبلته إلى مكة ، وخصوصاً أن دعوته ترتبط أشد الارتباط بدين إبراهيم(٦).

كذلك كتب النبي دستور الجماعة الإسلامية الأولى بين أهل يثرب ـ الذين أصبحوا يُعرفون بالأنصار(٧) ـ والمسلمين من قريش وهم المهاجرون ، وهو ما عرف أيضاً «بالصحيفة»(٨) . وقد جعل من المسلمين «أمة»(٩) ، تسودها الوحدة من دون الناس «واحدة» ، أو جماعة دينية قائمة بذاتها(١٠) ، تنمحي فيها

(١) النوري ، ٤ ص ٤ ؛ انظر . Lammens : Etudes sur le siècle des, Omeyyades, p. 11 ..

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, 3, p. 364 .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ .

(٤) أنظر . بعده .

(٥) أنظر . السورة (ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا ، فثم وجه الله ؛ إن الله واسع عليم ٢ : ١١٥) .

(٦) المعارف ، ص ٧٥ س ١٥ ـ ١٦ ؛ انظر . Grimme : Mahommed, I, p. 57; 71 . أنظر الآية (قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم ، فولوا وجوهكم شطره ٢ ـ ١٤٤) .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣.

(٨) سيرة ابن هشام ، ١ س ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ١ — ٧.

(٩) هذه الكلمة معناها غير محدد ، فقد تعني في الغالب طائفة دينية . أنظر . القرآن ١٠ : ٤٧ ؛ Wellhausen : The Arab Kingdom, transl. M. Weir. Calcutta, 1947, p. 7 ; 11 Ency. de l'Isl, (art Umma) t. 4. ; p. 1069-1070.

(١٠) أنظر . الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٠ هامش (١) .

العصبية القبلية ، وذلك بالترابط بينها « يتعاقلون »[1] ، حتى فى التخفيف عمن أثقله الدين ولا يجد قضاءه ، وليس له ولاء ولا عشيرة « مفرح »[2] . ولكى يحفظ لهذه الأمة بكيانها تجدهين ظم شئونها الحربية ، إذا ما اضطرت إلى الخروج للغزو « غازية » : فنص على أن تتناوب جماعاتها الغزو « يعقب بعضها بعضا » ؛ كما نظم مسألة الديات « المعاقل أو عقل »[3] ، وفداء الأسير « عانيهم »[4] ، وذلك بأن تتكفل كل جماعة فى هذه الأمة بهما فيما بينها . ومن ناحية أخرى نظم فى هذه الصحيفة العلاقة بين المسلمين واليهود فى يثرب ، فأمن هؤلاء على دينهم ، وأقرهم على أموالهم ماداموا مع المسلمين ، بل سمح لهم بأن « ينفق » عليهم مع المسلمين فى حالة محاربتهم فى صفوفهم ، ونص على أن يكونوا معهم ضد من يدهم يثرب من الأعداء ، وأن لا تجار قريش ولا من نصرها .

وفوق ذلك كانت الهجرة إلى المدينة سبباً فى تحول هام فى الدعوة الإسلامية ذاتها : ففى مكة لم يكن دور النبى غير دور دينى ، فكانت سور القرآن لا تتناول إلا أمور الدين خالصة ، أما فى المدينة فحينما أصبحت للنبى الزعامة السياسية على « الأمة » الإسلامية ، وكانت سور القرآن فى المدينة — بالإضافة إلى استكمالها فروض الدين — تبين تفاصيل هذا المجتمع السياسى — الدينى ؛ بحيث أصبح القرآن أشبه بقانون دستورى لهذه الأمة ، مما ميز هذا الدور النبوى بعد الهجرة .

ولكن المكيين الذين رفضوا دعوة الإسلام ووقفوا منها موقف العداء ، أخذوا فى الاستعداد لكسر شوكتها ، بعد أن تفاقم خطرها بسبب هجرة النبى

---

(١) أنظر . Supplément aux Dictionnaires arabes, 2éd. : Dozy t.2, p. 153 sqq

(٢) أنظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٤١ .

(٣) أنظر . المصباح المنير ، ٢ ص ٦٤٧ — ٦٤٨ .

(٤) أنظر . نفسه ، ٢ ص ٦٦٥ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٣٣٨ . العانى هو الأسير .

إلى يثرب . فقد كان التجاء المسلمين إلى هذه المدينة ، التى تقع على طريق مكة التجارى فى رحلتها إلى الشام ، مما يجعل أسباب معايشهم فى خطر شديد، ثم إن قبول يثرب إيواء محمد وأصحابه من المهاجرين يعتبر بالنسبة للمكيين تحدياً وجرحاً لكبريائهم . وكان الخوف من غدر المكيين هو الذى دعا الرسول إلى أن يرسل من وقت لآخر بعض السرايا(١) ؛ لترصد عن كثب تحركات المكيين . ولا ريب أن الهجرة قد خلقت فى المسلمين قوة هائلة للدفاع عن عقيدتهم التى فروا بها من اضطهاد المكيين ، فترى الوحى الذى ينزل على النبى يدعو إلى الدفاع عن النفس ﴿ وقَاتِلوا فى سَبيل اللهِ الذينَ يقاتِلونَكمْ ، ولا تعتدُوا إنَّ اللهَ لا يحب المعتدينَ ٢ : ١٩٠ ﴾ . ولكن حدث لإحدى السرايا ؛ أن الحماس الذى أتاها من طبيعتها البدوية دفعها إلى مهاجمة قافلة لقريش ، كانت فى طريقها إلى مكة، فقتلت مكياً وأسرت اثنين(٢) ، وقد كان فى الإمكان لو أراد القرشيون السلام تسوية هذه الحادثة(٣) ، وخصوصاً أن النبى أعلن استعداده فدية الأسيرين(٤) . ولكن القرشيين كانوا مدركين خطورة وجود المسلمين فى طريق رحلتهم التجارية إلى الشام ؛ بحيث أن أباسفيان لما أقبل من الشام فى عَير لقريش عظيمة ، أضطر أن يسير بحذاء البحر الأحمر لينجوا بالعير والمال(٥) ؛ فاتخذوا هذه الحادثة تكأة لمهاجمة المسلمين . فكان هذا الهجوم هو بدء الصراع بين مكة والمدينة ، وهو صراع لم تتعود عليه الجزيرة العربية من قبل ، إذ أنه ليس صراعاً بين قبائل ؛ وإنما هو صراع على العقيدة ، وهذا لم يسمع به من قبل فى تاريخ الحجاز ، وكان لابد من القضاء على أحدهما .

---

(١) ابن هشام ، ١ ص ٤٢٣ — ٤٢٤ ، انظر : Sprenger: Das Leben und die Lehre des Mohammed. Zweite Ausgabe. Berlin, 1869, 3, p. 105-109.

(٢) ابن هشام ، ١ ص ٤٢٥ .

(٣) أنظر : Bertram : Les Arabes, p. 41.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٨٠ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٨٤ س ٩ .

ففي يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة(١) (١٤ مارس ٦٢٤م)، خرج حوالى ألف محارب من مكة يقودهم شيخ بنى أمية أبو سفيان ـ وهم أعداء الهاشميين ـ إلى الشمال لمحاربة المسلمين فى المدينة(٢). ولكن النبي أسرع بالخروج إليهم فى قوة عددها ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وعسكر بهم فى منطقة ماء اسمها « بَدْر »(٣)، عند قاعدة جبال قرب البحر الأحمر ، بين مكة والمدينة . وقد تحارب الطرفان بالطريقة التى كانت القبائل البدوية تحارب بها فى الجاهلية، وذلك بأن يتراص المحاربون صفوفاً ، وأن تبدأ المعركة بالمبارزة فرادى، فيثير العدوين منظر الدم، فيلتحمان. وكان النبي يقدّر النتيجة التى ستترتب على الهزيمة فى هذه الموقعة ، لذلك انسحب إلى عريش مرتفع، بُنى له ليكون بمثابة الراية للمقاتلين المسلمين ، وما فتىء يبتهل إلى الله لنصرة المسلمين ، حتى قال فى ابتهاله : ﴿ اللهم إن تهلك هذه العصبة لا تعبد ﴾(٤). ويبدو أن مظهر النبى فى ابتهالاته كان سبباً فى تقوية الروح المعنوية عند المسلمين، فتغلبوا فى مبارزاتهم الفردية ، مما دعاهم إلى القتال بشدة عند الالتحام ؛ بحيث اضطر المكيون إلى الانسحاب ؛ بعد أن تركوا وراءهم أشلاء سبعين قتيلاً ، وكثيراً من الأسرى(٥) .

ومع أن هذه المعركة كانت بين المسلمين وأعدائهم الذين أجبروهم على ترك بلدهم، والذهاب إلى المنفى ؛ إلا أن النبى أمر بمعاملة الأسرى بالإحسان :

(١) المعارف ، ص ٧٨ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ٤٣٦ .

(٣) المعارف، ص ٧٥ ؛ ياقوت ، معجم، ٢ ص ٨٨ ؛ Hamidullah: Les Champs de Bataille au temps du Prophète. R. E. I. année 1939, p. 3

(٤) ابن هشام، ١ ص ٤٣٦ وما بعدها . يوجد الآن مكان العريش مسجد ، يظهر أنه بنى فى عهد المماليك . أنظر Hamidullah : Op. cit, p. 4.

(٥) أختلف فى عدد القتلى والأسرى . ابن هشام ، ١ ص ٥١١ .

فكثير من سادات قريش أفتدوا بالمال، أما الفقراء فقد أطلقوا دون فداء. وكان من الأسرى أبو العاصى بن الربيع - زوج زينب ابنة النبى - التى بعثت إلى والدها بقلادة لها، كانت خديجة قد أهدتها إليها عند زفافها إلى أبى العاصى، فلما رآها النبى رق لها رقة شديدة، وطلب أن يرد لها أسيرها[1]، مع أن الصحيفة كانت تمنع إجارة المشرك[2].

وكان للنصر فى يوم بدر أثره فى تقوية معنويات المسلمين[3]، فقد تغلبوا وهم الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وخصوصاً أن الحرب فى كل وقت عند العرب وسيلة صحيحة للحكم على الأشياء. بل يصور القرآن هذه المعركة، وكأن جمعاً حاشداً من الملائكة كانت تحارب مع المسلمين[4]. ولما كانت هذه أول معركة فى سبيل الدين، فقد نظر المسلمون دائماً إلى الذين اشتركوا فيها نظرة مقدسة، بحيث نعرف أسماءهم فرداً فرداً : وأسماء من استشهد منهم[5]. ولذلك لم يتردد النبى فى أن يضيف إلى هذا النصر المؤيد نصراً آخر، وذلك بالتخلص من قبيلة بنى القينقاع اليهودية، التى كانت تستهتر بمسلمى المدينة[6]. فحاصرها إلى أن قبلت التسليم، ولعله أراد بهذه الضربة أن يخيف بقية اليهود فى المدينة.

---

(١) نفسه، ١ ص ٤٥٢، ٤٦٥، ٤٧٠. كان بنو مخزوم يفتدون كل أسير بأربعة آلاف درهم : أنظر. الواقدى، المغازى، ص ١٣٦.

(٢) ابن هشام، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ مجموعة الوثائق، ص ٤ على الخصوص.

(٣) القرآن ٣ : ١٢٣. قال زهير بن أبى سلمى :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء.

(أنظر. النويرى، ٣ ص ٦٢). وقد ذكر القرآن هذا المبدأ، وهو ما يعرف « بالمباهلة ». (القرآن ٣ : ٦١). أنظر أيضاً : Massignon ; La Lutte, p. 8 sqq: Cheira. La Mubâhala. Extr. de l'Ann. de l'Ecol. des H. Et. Sect, des. S. R. 1943—4.

(٤) القرآن ٣ : ١٢٤ — ١٢٥، ٨ : ١٢، ٥٠.

(٥) ابن هشام، ١ ص ٤٨٥ ؛ المعارف، ص ٧٨ س ٥ وما بعدها. يورد أسماء أربعة عشر رجلاً.

(٦) ابن هشام، ٢ ص ٥٤٥ ؛ انظر. Grimme : Mah, p. 93. كذلك كانت تقلل من قيمة نصر محمد فى بدر. ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٩٦

أما المكيون فلم يعترفوا بفوز محمد عليهم فى بدر ، وصمموا على الأخذ بالثأر، وخصوصاً أن محمداً أصبح دائم التعرض لقوافلهم ؛ بحيث أنهم باعوا القافلة سبب حرب بدر ، ووقفوها على حرب النبي[١]. فخرجوا فى شوال من السنة الثالثة للهجرة (مارس ٦٢٥)، فى ألف فارس يلبسون الدروع وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة أبى سفيان — وهو القائد الذى هُزم فى بدر — وكان خلفهم النساء ينشدن الأناشيد ؛ لتشجيع المحاربين على القتال[٢]. ولقد كان اصطحاب النساء فى الحرب عادة جرى عليها العرب فى كل وقت[٣] ، وحتى بعد انتشار الإسلام . فإنهم اصطحبوا نساءهم فى حروبهم ضد الروم والفرس؛ فالنساء بوجودهن كن يجبِرن الرجال على القتال ؛ دفاعاً عن العرض ، الذى كان أهم شىء عند العرب.

أما النبي فقد خرج فى ألف رجل من أصحابه[٤] — وهو راكب فرسه « السكب[٥] » وليس مع المسلمين غيره ، وفرس آخر لأحد الصحابة — إلى جبل أحمر اسمه أحد فى الشمال : ليجعل المدينة فى أعقابهم إذا ما توجه إليه الكفار ؛ فبذلك يتمكن من قطع خطوطهم[٦] ، ويتفادى القتال فى المدينة. وقد برهن النبي فى هذه الموقعة على مقدرة حربية عظيمة: فنظّم المقاتلة فى صفوف على عادة العرب فى القتال، ووضع رماة النبال فى المؤخرة على جبل «عينين» جنوبى أحد[٧] : لحفظ ظهور المسلمين ، وأمرهم بالثبات بموضعهم مهما حدث[٨]. ومع أن جيش النبي كان أقل عدداً من جيش المشركين ؛ فإنه حارب بشجاعة بحيث

(١) المغازى ، ص ١٩٨ .

(٢) كن يقلن :

إن تقبلوا نعانق وفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ابن هشام ، ٢ ص ٥٦٢ .

(٣). أنظر . بعده .

(٤) المعارف ، ص٨٩ س ١ .

(٥) النويرى ، ١٠ ص ٣٣ — ٣٤. كان يسمى أيضاً : «المرتجز » و « النجيب». نفسه ، ١٠ ص ٣٥ ؛ انظر . ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ١٥١ .

(٦) أنظر . Hamidullah : Op. cit, p. 5. عن جبل أحد ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٣٣ — ١٥١ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٨ . يسمى الآن هذا الجبل جبل الرماة ، أنظر . Hamidullah : Op. cit, p. 5.

(٨) ابن هشام ، ٢ ص ٥٦٢ .

أضطر القرشيون إلى الحرب . ولكن رماة النبال تركوا أماكنهم لجمع الغنائم مخالفين بذلك أمر النبي[١] ، فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة – وكان وقتئذ أحد قواد المشركين – وهجم بالفرسان من ناحية الجبل ، فقتل عدداً كبيراً من المسلمين ، الذين تفرقوا فى كل مكان ، وجُرح النبى أثناء دفاعه عن نفسه. وقد اعتقد المكيون أنهم قضوا نهائياً على دعوة محمد ، وخصوصاً أن إشاعة قتله ملأت آذانهم[٢] ؛ فانسحبوا من ميدان المعركة راجعين إلى بلادهم مسرورين. ولكن نساءهم لم تترك ميدان القتال إلا بعد أن شفت غليلها من قتلاها فى بدر، لجمعن أنوف الموتى من المسلمين وآذانهم ليجعلنها قلائد ؛ ولم ينْدَ منهن هند امرأة القائد أبى سفيان[٣] ، التى بقرت بطن حمزة — عم النبى — واستخرجت كبده فلاكتها . وبذلك نال المشركون ثأرهم فى بدر ، وقال أبو سفيان فى هذه المناسبة[٤] : « يوم بيوم بدر والحرب سجال » .

أما النبى فقد رجع إلى المدينة مسرعاً ؛ وقام بطرد « بنى النضير » ، وهى طائفة أخرى من اليهود حاولت أن تستفيد من هزيمة النبى بالغدر به، فحاصرها وقطع نخلها وأحرقه ، وأجلاها هى الأخرى عن المدينة — وذلك فى سنة أربع هجرية[٥] (٦٢٥) — ليضم أرضها إلى أملاك المسلمين .

ولما علمت قريش أن محمداً لم يُقتل، فهمت ألا قضاء عليه إذا لم تدمر المدينة التى آوته ، وصممت على حربه هذه المرة فى عقر داره . وقد سعى المكيون قبل هجومهم على المدينة إلى تكوين حلف قوى من كل العناصر الموالية[٦] من

(١) المعارف ، ص ٧٩ .
(٢) ابن هشام ، ٢ ص ٥٧٤ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ٥٨١ .
(٤) الميدانى ، مجمع الأمثال ، ١ ص ١٤٤ ؛ انظر . أبو الفضل والبجاوى ، أيام العرب فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ .
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٦٥ وما بعدها ؛ انظر. ولفنسون ،تاريخ اليهود ، ص ١٣٥؛ Wensinck : Mohammed en de Joden te Medina, p. 82.
(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٦٦٩ — ٦٧٠ .

البدو ، أمثال : فَزَارة وأشجعَ ومُرّة وغطَفان ، وأيضاً بالتعاون مع « بنى قريظة » — بقية اليهود فى المدينة — الذين كانوا يكرهون المسلمين ، بسبب إخراجهم لبنى القينقاع والنضير[١] . لجمع أبو سفيان من القرشيين وأحابيشهم[٢] ، ومن القبائل والعشائر البدوية من نجد وتهامة ، جيشاجرارآ لا يقل عدده عن عشرة آلاف مقاتل[٣] ؛ ليزحف بهم على المدينة . وقبل أن يباشر زحفه أرسل إلى محمد كتاباً يطالبه فيه بنصف نخل المدينة الكثير، ولكن النبى رد عليه بكتاب قال له فيه إنه فى انتظاره[٤] .

ولم يكن من الممكن أن يخرج النبى فى هذه المرة عن المدينة كما حدث فى بَدْر وأحد؛ بل كان على كل فرد فى المدينة أن يشترك فى رد الخطر المحيق بها من جانب المكيين ومن عناصر البدو — حلفاء المكيين — المتشوقين إلى الغارة . ولم يعتمد النبى فى الدفاع عن المدينة بالتحصن فى بيوتها ، وإنما لجأ إلى الدفاع عنها بناء على مشورة سلمان الفارسى[٥] ،وذلك عن طريق حفر خندق فى شمال المدينة — ولم يكن الخندق من أساليب الحرب المعروفة عند العرب[٦] — حيث أن شمالها هو المنطقة الخالية من التحصين: فالمدينة محاطة من نواحيها الثلاث الأخرى بالجبال وبأرض الحرّة[٧] — أى أراض مملوءة

(١) نفسه ، ٢ س ٦٧٤ ؛ انظر. ولفنسون ، تاريخ اليهود ، س ١٤١ وما بعدها .
(٢) عن هذه الكلمة ، انظر . قبله .
(٣) ابن هشام ، ٢ س ٦٧٣ .
(٤) نص هذا الكتاب موجود فى مخطوطة فى تركيا ، وينسب إلى محمد بن جرير الطبرى . انظر . فى مجموعة الوثائق ، س ٨ — ٩ .

(٥) ابن هشام ، ٢ س ٦٧٧ . هو من أصبهان من أسرة ارستقراطية فارسية ، كانت قبيلة كلب باعته فى يثرب، فاشتراه النبى واعتقه ؛ ويظهر أنه عاش إلى سنة ٣٢ هـ . ابن هشام، ١ س١٣٦ وما بعدها؛ الطبرى ١ : ٢٤٤١؛ انظر. Huart : Nouvelles Recherches sur la légende de Slemân du Fars, Paris, 1913, p. 3 sqq.
(٦) ابن هشام، ٢ س ٦٧٠ وهى كلمة فارسية . أنظر . Haurt : Op. cit, p. 4.
(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ س ٤٤٢ وما بعدها ؛ انظر. Hamidullah ; Op. cit, p. 9.

بالأحجار — والحدائق والنخيل ؛ ولذلك سميت المعركة التي دارت رحاها حول المدينة «بيوم الخندق[١]» ، نسبة لهذا الخندق ، أو «بيوم الأحزاب[٢]» ، بسبب اشتراك قبائل موالية للمكيين .

ولكن القرشيين الذين وصلوا إلى المدينة فى السنة الخامسة الهجرية[٣] (٦٢٦) ، أثار دهشتهم وجود الخندق ؛ ولم يحاولوا عبوره ، وفضلوا البقاء حتى يخرج المسلمون إليهم. ولما ملّوا المقام دون أن يخرج المسلمون ، وتعرضوا لعواصف رملية ،فكوا الحصار ورجعوا إلى مكة دون تحقيق غرضهم،وخصوصاً أن النبي استمال غطفان من حلفائهم[٤]، مما أوهن المكيين.

ولكن الخطر لم يذهب عن المسلمين برجوع المكيين إلى بلدهم ، بل كان الخطر من جانب بنى قريظة ، القبيلة اليهودية ، التى اشتركت مع المكيين فى تأليب العرب على المسلمين[٥] ، وكانت فى أثناء حصار المشركين تتعاون معهم ، أى أنها خرجت عن نصوص الصحيفة التى كتبها النبي معها[٦] . لذلك — بعد رحيل المكيين — لم يتردد النبي فى محاصرتها فى آطامها، ثم قبلت التسليم على أساس تحكم شخص بعينه هو سعد بن معاذ[٧] — وهو سيد الأوس — وقد نفذ النبي حكم هذا الرجل فيهم: وهو يقضى بقتل الرجال ، وسبى النساء والذرية ، وتقسيم أموالهم بين المسلمين وقد كان بنو قريظة ، آخر يهود فى المدينة ، وإن بقى اليهود فى شمالها فى خيبر وتيماء ووادى القرى وفدك وغيرها[٨] ، إلى أن أخرجهم منها الخليفة عمر فيما بعد، وبذلك خلت الحجاز منهم.

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٦٩٩ .
(٢) القرآن ٣٣ : ٢٠ .
(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٦٦٨ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٦٧٦ ، ٦٧١ .
(٥) نفسه ، ٢ ص ٦٧٤ ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٤١ وما بعدها .
(٦) عن هذه الصحيفة ، انظر . ابن هشام ، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ مجموعة الوثائق، ص ١ — ٧ ؛ وقبله .
(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٦٨٩ . عن سيد الأوس ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٦٧٥ .
(٨) أنظر . بعده .

وإذا كان النبي قد اطمأن على دعوته ، فإنه أراد أن يجرّب نوعاً جديداً من السياسة مع المشركين من أهل مكة ، لعلهم يثوبوا إلى رشدهم ، وخصوصاً أن دعوته ما كانت لتعمّ العرب دون أن تعترف بها مكة ، لمكانتها المقدسة عندهم . ففي آخر سنة ستة (٦٢٨م)، قرر النبي الخروج معتمراً [١] — أي زيارة الكعبة في غير موسم الحج العام — فخرج لابساً ملابس الإحرام ومعه الهدى إلى الكعبة [٢]، ولا يحمل معه إلا السيوف. وقد أوقع هذا القرار قريشاً في مأزق ، فلم يكن من الممكن أن يرد أي حاج إلى الكعبة ، ثم إن مجيء النبي إليها بعد سماع العرب بدعوته ؛ قد يكون فيه احتفاظ للمكيين بنفوذهم وكبريائهم ، وما يدره عليهم هذا النفوذ من ثروة .

على أن قريشاً كانت لا تأمن عاقبة مجيء النبي وأتباعه إلى مكة ، ولذا اتخذت حذرها وخرجت مع حلفائها من البدو ؛ لتتعرف حقيقة مقاصده . وقد تبادل النبي معها السفارات ، فأرسل من قبله صاحبه عثمان بن عفان [٣] — وهو الخليفة الثالث فيما بعد — ولما بلغه أنه ربما يكون قد قُتل دعا المسلمين إلى الحرب ، وهو ما عُرف ببيعة الرضوان [٤]. ولكن قريشاً قبلت دخول محمد مكة ، على أن لا يدخلها هذا العام ، وإنما الرجوع في العام الذي يليه بدون سلاح ، إلا السيوف في قرابها ، والمقام بها ثلاثة أيام فقط . كذلك رضوا بإمضاء هدنة « الحديبية » لمدة عشر سنين [٥] ، وهي : تعطي الحرية لأهل المدينة أو مكة في التنقل بأمان في الجزيرة ، وللقبائل أن تدخل في « عقد » محمد أو قريش ، وأن يُرجع محمد موالي قريش الفارين ، ولا تُرجع مكة من مع محمد إذا جاءوها ؛ كما

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٠ ؛ لسان العرب ، ٦ ص ٢٨٢ .
وهي كلمة مأخوذة من الاعتمار وهي الزيارة . أنظر . قبله .

(٢) القرآن ٢ : ١٩٦ .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٦ ؛ وبعده .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٧٤٦ — ٧٤٨ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٧٤٧ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ١٤ . الحديبية هي مكان أسفل مكة .
نفسه ، ٢ ص ٧٤١ . وقد تنسب إلى بئر . الخشني ، شرح السيرة ، ٢ ص ٣٣٩ ؛

رفض القرشيون الاعتراف فى هذه المعاهدة بالنبى كرسول من عند الله — مع أن ذلك من دعائم الدين الجديد — وعنونوا الصلح باسمك « اللهم »[١]، وقبل النبى ذلك .

وقّع النبى هذا الصلح ، الذى اعتبره القرآن فتحاً مبيناً[٢] ، على الرغم من أن بعض كبار الصحابة كانوا يريدون القتال فى أول الأمر . وقد دل النبى بقبوله الهدنة على دبلوماسية ماهرة ، لأنه بمقتضى هذا الصلح استطاع أن يأخذ أول اعتراف من مكة بزعامته السياسية بين العرب ، وكان سبباً فى نشر دعوته واتساعها بانضمام القبائل التى ترددت فى حلفه ، على الخصوص قبيلة خزاعة المجاورة للمدينة[٣] . ولعل النبى — كما يذكر مؤرخ السيرة — أرسل فى ذلك الوقت الكتب إلى جميع ملوك العالم المعروفين[٤] ، مثل : هرقل عظيم الروم وكسرى فارس ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر ، ورؤساء القبائل فى أطراف الجزيرة العربية : مثل الغساسنة واللخميين وأهل عُمان واليمامة والبحرين وملوك اليمن ، يدعوهم إلى الإسلام ، كذلك استفاد من الهدنة : بالقضاء على الخطر اليهودى فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء ، وهى مجموعة من الواحات فى أقصى شمال الحجاز[٥] ، وخصوصاً أنهم بعد أن أخرج النبى اليهود من المدينة ، كانوا يؤلبون القبائل العربية فى هذه المنطقة عليه . فقام النبى بغزوها : فصالح من رضى المصالحة ، وحارب من امتنع عليه . وإن ترك أراضيهم فى أيديهم ، وأقام بينهم عماله[٦] ، واستولى على جزء من محصول أراضيهم[٧] .

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ .

(٢) القرآن ٤٨ : ١ .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ — ٧٤٨ .

(٥) أنظر ماذكرناه من صحة هذه الكتب ، وقد أختلف فى تاريخ إرسالها ؛ فقيل إنها سنة الحديبية (ابن هشام ، ٢ ص ٩٧١) ، أو فى السنة العاشرة (٦٣١) . أنظر . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٨٢ . عن هذه الكتب جميعاً ، انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٣ وما بعدها (حيث تقدمها بمصادرها التى وردت فيها) . أيضاً ؛ انظر . ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣ و٤ و٥ .

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٧٥٧ .

(٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٥٩ — ٦٠ .

وفى السنة السابعة[١] (٦٢٧)، عاد النبي ومعه ألفان من الحجاج المسلمين إلى مكة، ولم يجد فى هذه المرة أى عائق، وقام بتأدية «العمرة» بالطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة؛ وإن لم يمنعه ذلك من التفكير فى تحطيم الأصنام التى بداخلها يوماً ما. وقد ترك منظر النبي وأصحابه أثراً عميقاً فى نفوس كبار المكيين، فانضم إليه منهم اثنان: خالد بن الوليد[٢] — الذى كان سبب هزيمة أحد — وعمرو بن العاص[٣]، وكلاهما سيكون من كبار قواد الفتوح الإسلامية.

ومنذ عاد النبي من مكة وهو السيد الذى لا يُنازع: فقد أرسل حملة فى جمادى الأول سنة ثمانٍ للهجرة[٤] (أغسطس ٦٢٩)، مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل، نحو مشارف الشام، بقيادة زيد بن حارثة، الذى كان النبي تبناه. ونحن لا نعرف الغرض من هذه الحملة الصغيرة نحو بلاد الشام، فلعل النبي قصد بإرسالها إشعار العرب المسيحيين بالشام بقوة الإسلام فى الحجاز؛ وإن كنّا نستبعد أن يكون قصده من إرسالها نحو الشمال هو التمويه على القرشيين، حتى يهاجم مكة. وقد تلاقت هذه الحملة مع عرب الشام، وهم الذين يشير إليهم ابن هشام باسم «الروم» — لعله بسبب أنهم من أتباع الروم أو البيزنطيين — فى موضع بالشام اسمه: «مؤتة»، فهُزم جيش المسلمين، وقُتل زيد بن حارثة وجعفر

---

(١) ابن هشام، ٢ ص ٧٨٨.

(٢) نفسه، ٢ ص ٧٤١.

(٣) أختلف فى تاريخ إسلامه، الذى قد يكون فى نفس وقت إسلام خالد، أو بعد الحديبية. أنظر. نفسه، ٢ ص ٧١٦.

(٤) المعارف، ٢ ص ٨١؛ ابن هشام، ٢ ص ٧٩١ و ٧٩٤؛ ابن سعد، ٣/١ ص ٢٦ — ٣١؛ Ency. de l'Isl, 4, p. 1261؛ رضا، محمد، ص ٣٦٢ — ٣٦٣.
لعل هذه الحملة أرسلت لأن الغساسنة قتلت رسول الى إليها. أنظر.
Ency. de l'Isl, (art Mu'ta) 3, p.699.
الروم هنا — ولاريب — المقصود بهم «روم العرب». الطبرى ١: ٢١٠١؛ وبعده.

(٥) الخشني، شرح سيرة النبي، ٢ ص ٣٠٣؛ انظر. Théophane: Chronographia, éd. de Boor, I. 335,

ابن أبي طالب[1] — ابن عم النبي — ولم ينقذهم غير تراجعهم بقيادة خالد ابن الوليد ، الذى أصبح من قواد النبي .

على كل حال يؤكد ابن هشام، أن النبي سار إلى مكة فى رمضان من نفس العام[2] (ديسمبر ٦٣٠)، بسبب أن قريشاً نقضت الصلح ؛ لما علمت بانكسار المسلمين فى « مؤتة » ، فهاجمت خزاعة[3]، وهى القبيلة التى كانت تواثبت لمحالفة المسلمين عند عقد هدنة « الحديبية » . ويبدو أن أبا سفيان — زعيم المكيين — والعباس عم النبي ، أسرعا إلى النبي قبل وصول الحملة[4] ، ليسلم الأول نفسه حيث اعتنق الإسلام، وأخذ الأمان لقريش . وقد أراد النبي أن يعامل عـدوه المهزوم معاملة كريمة ، فأعلن أن من يدخل دار أبى سفيان فى مكة فهو آمن ، وذلك على الرغم من أن أبا سفيان شنها حرباً شعواء على المسلمين ؛ منذ ظهور الدعوة . وحين وصول النبي إلى مكة على رأس عشرة آلاف مقاتل[5] — وهو عدد لم يُعرف له مثيل من قبل فى جيش النبي، مما يدل على أنه استفاد حقاً من الهدنة بجمع الأنصار حوله — لم يقابل إلا بمقاومة ضعيفة من جانب بعض المشركين ، ولكن خالد بن الوليد تمكن من القضاء عليها ، فأقبل الرجال والنساء على النبي لمبايعته[6] . وبذلك سقطت مكة فى الصراع بينها وبين المدينة ، وسمى ذلك

(١) أبو الفرج الأصبهانى ، كتاب مقاتل الطالبيين ، النجف ١٣٥٣ هـ ، ص ٧ .

(٢) المعارف ، ص ٨١ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٨٠٢ ، ٨١٧ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٦ .

(٤) ابن هشام ، ٢ ص ٨١٤ . لم يكن العباس قد أسلم قبل ذلك ، وإن كان موقفه من الدعوة الإسلامية هو موقف المحايد ، وإليه ستنتسب الخلافة العباسية فيما بعد .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٨٤٢ . سبق للقرشيين أن جمعوا هذا العدد من عرب نجد وتهامة . أنظر . قبله .

(٦) ابن الأثير ، الكامل، ٢ ص ١٧١ — ١٧٢ . هذه الكلمة تعني العهد على الطاعة ، وتتم بالمصافحة . أنظر . بعد .

اليوم : « بيوم للفتح [١] » .

وكان أول ما قام به النبي بعد فتح مكة هو هدم أصنام الكعبة [٢] ، وإن أبقى على الحجر الأسود ، الذى كان مقدساً [٣] ، بسبب أنه كان بالكعبة منذ زمن إبراهيم ، وكان النبي وهو يكسر الأصنام يقول : ﴿ وقل جَاء الحقُّ وَزَهق البَاطلُ إن الباطلَ كانَ زَهُوقاً ١٧ : ٨١ ﴾ . ولم يحاول النبي أن يقضى على نفوذ مكة المهزومة ، فأعلن أنها تبقى دائماً حراماً لا يُقاتل فيها [٤] ، وأن تكون الكعبة هى بيت الله الحرام ؛ يحج إليها العرب حتى المشركون منهم [٥] . ولكى يقضى على نفوذ مكة الحربى ألغى اللواء نهائياً [٦] ؛ وهو قيادة الحرب كما ذكرنا .

وقد كان سقوط مكة بين يديه سبباً فى زيادة نفوذه فى الجزيرة العربية ؛ بحيث أصبح يُعرف : « بأمير الحجاز » أو « أمير مكة [٧] » . ولكن عارضت هذه السيطرة بعض قبائل الحجاز ، التى غلبت عليها حمّية الجاهلية فى التعصب لحريتها ، مما دعا النبي إلى أن يسير إليها بنفسه : فانتصر على هوازن بعد أن حمى وطيس الحرب بينه وبينها فى يوم « حنين » [٨] ، ثم سار إلى ثقيف فى الطائف [٩] — وهى التى كانت رفضت إجارته قبل

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٨٢٢ .

(٢) الأصنام ، ص ٣١ س ٤ وما بعدها .

(٣) أنظر . قبله .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٢ . أنظر . بعض الأحاديث النبوية عن قداستها . النويرى ، ١ ص ٢٩٨ .

(٥) حتى ذلك الوقت لم يكن المشركون قد منعوا من الحج إليها . أنظر . بعده .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٨ . النصوص متضاربة بخصوص إلغاء هذه الوظائف ؛ فينقل ابن الأثير بأن السقاية والرفادة لما أخذها العباس من أبى طالب ، بقيت فى أيدى أبنائه حتى صار يليها الخلفاء العباسيون (الكامل ، ٢ ص ١٤٢) ، كما يذكر ابن الأثير أن الحجابة بقيت ، وأن دار الندوة تحولت فيما بعد إلى دار الإمارة . أنظر . نفسه .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ س ٢٠ .

(٨) القرآن ٩ : ٢٥ ؛ الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ .

(٩) ابن هشام ، ٢ ص ٨٦٩ .

الهجرة إلى يثرب – فحاصرها ورمى حائطها بالمنجنيق ، وهاجمها بدبابة مغطاة بجلد البقر [٢] .

- وليوطد النبي نفوذه على حدود الحجاز الشمالية – وهى منطقة كانت تسكنها قبائل عربية مسيحية فى الغالب[٣]، مثل : كلب وقضاعة ولخم وجذام وعذرة وغيرها ، وبعض القبائل اليهودية[٤] – سار النبي بنفسه على رأس حملة فى رجب من السنة التاسعة [٥] (أكتوبر ٦٣٠) . فبسط نفوذه فيها على قرى ومراكز عديدة ، بعضها من أرض الشام ، منها: تبوك[٦] ودُومَة الجنـدل[٧] وأيْـلة[٨]، ومعظم سكانها من المسيحيين[٩]، وأذرُح والجَرْباء ومَقْنا[١٠]. وهم من اليهود [١١] . فعقد مع جميع أمراء هذه المراكز معاهداتَ أمان ، تؤمنهم على دياناتهم وأموالهم لقاء دفع الجزية [١٢] ؛ بحيث ستكون بالنسبة لخلفاء الإسلام نسقاً للاتفاقات التى يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب .

وفى العام التاسع ذاته [١٣] (٦٣١) ، أصبح الحج إلى مكة يشمل عدداً كبيراً من عرب الجزيرة ، وعُرف « بالحج الأكبر » – وهى أول حجة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٤ .

(٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ٥٥ . المنجنيق آلة لرمى الحجارة أو المواد الملتهبة ، أما الدبابة فهى ستارة يحتمى وراءها المقاتلة لنقب الحوائط . عن هذه الأخيرة ، انظر . Suppl, aux dict. arabes, 2ed. 1, p. 421. : Dozy

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٨ .

(٥) المعارف ، ص ٨٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٥ .

(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٨) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٧ . وهى التى تعرف اليوم بالعقبة . أنظر . قبله وبعده .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(١٠) نفسه ، ص ٥٩ – ٦١ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ١٦١ – ١٦٢ ، ٣ ص ٧٢ .

(١١) ابن سعد ، ١،٢ ص ٣٨ .

(١٢) نفسه ، ١/٢ ص ٢٨ – ٢٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٢ – ٣٤ و٣٥ و ٣٦ – ٣٩ . عن كلمة الجزية ، انظر ، بعده .

(١٣) القرآن ٩ : ٣ ؛ المعارف ، ص٨٢ .

فى الإسلام — وقد أناب فيه أبا بكر صديقه [١] ، ليقرأ عليهم سورة براءة [٢] ، التى يتبرأ فيها محمد ممن يحج من المشركين بعد هذا العام إلى مكة ، واستجاز فيها قتل من يدخلها منهم ؛ وإلى وقتنا الحاضر لا يحج إلى مكة إلا المسلمون . كذلك جاءته وفود عديدة من جميع أنحاء الجزيرة إلى المدينة ـ التى أبقى عليها كعاصمة للمسلمين — حتى من المسيحيين فى نجران ، والغساسنة فى الشام [٣] ، بحيث سمى هذا العام أيضاً « بعام الوفود » [٤] ، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً .

أما الحجة المعروفة بحجة الوداع ، وهى فى السنة العاشرة (٦٣٢) ، فقد قام بها النبي بنفسه ، يحيط به عدد كبير من العرب [٥] ، جاءوا من كل أركان الجزيرة ، فحج بالناس ، وخطب فيهم خطبته ، التى نزل فيها الوحى مبشراً أنه : ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلَامَ دِيناً ٥ : ٣ ﴾ . وهذه الحجة الأخيرة ما زالت معتبرة كنموذج لتأدية فريضة الحج حتى وقتنا الحاضر .

بعد هذه الحجة اضمحلت صحة النبي وغلبت عليه الحمى ، ووافاه الأجل يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول فى السنة الحادية عشرة [٦] (٨ يونيو سنة ٦٣٢) ، وهو عند زوجته عائشة [٧] ، التى كان تزوجها عند هجرته إلى يثرب . وتصور لنا كتب « السير » شخص [٨] النبى الجليل على أنه كان

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٩١٩ ؛ انظر . هيكل ، الصديق أبو بكر ، ص ٥٣ .

(٢) القرآن سورة (٩) ، وتسمى سورة التوبة .

(٣) أنظر . تاريخ النسطوريين (P. O.) ، الجزء ١٣/٢ ، ص ٦٠١ [٢٨١] ، ص ٦٠٢ — ٦١٧ [٢٨٢ — ٢٩٧] ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٨٠ وما بعدها .

(٤) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٩٦٨ وما بعدها . أنظر . ما أورده عن ذلك Blachère : فى مقالته L'allocution de Mahomet lors du pélerinage d'adieu. Mélanges Louis Massignon, 1, 1956, pp. 223—247.

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠٠٩ .

(٧) المعارف ، ٦٥ . وهى بقيت حتى خلافة معاوية ، وتوفيت حوالى سنة ٥٨ هـ/٦٧٧م .

(٨) ابن اسحق ، كتاب فتوح مصر ، ص ٩ .

وسيماً قسيماً ، معتدل القامة ، بعيد الهامة ، أشم العرنين ، واضح الجبين ، أسيل الخدين ، رقيق الشفتين . براق الثنايا ، بعينيه دعج ، وبحاجبيه زجج، وبأسنانه فلج ، وأنف غير معوج .

وبذلك انتهت سيرة النبي المليئة بالكفاح والنضال في سبيل إعادة العرب إلى عقيدة الدين القديم أو الإسلام، والأخذ بيدها من وهدة الوثنية المظلمة، التي حولت حياة العرب إلى حياة لا أهداف لها أو مثل ؛ ولا ريب أن نجاحه في تحقيق رسالته يرجع قبل كل شيء إلى إيمانه الشديد بالكرامة البشرية ؛ وهو النجاح الذي يظهر أثره ليس فقط في عصره ، وإنما في العصور التالية ، وإلى يوم الدين .

* * *

كثر حديث بعض المستشرقين[1]، بأن الإسلام بحذافيره لم يأت بجديد، وأنه نقل كثيراً عن الأديان الأخرى . وفي الحق إن بعض عقائد الإسلام تشابه في أسسها بعض العقائد في الأديان الأخرى [2]؛ إلا أن الإسلام قد أوجد صورة غير منكورة من دين جديد مطبوع بالطابع العربي [3] ، سرعان ما احتل مكانته المرموقة بين الأديان الأخرى .

---

(١) أنظر Shedd. Islam and the Oriental Churches. Philadelphia: Bell ; 1904, p. 21 sqq The origin of Islam in its Christian environment, p. 13 ؛ فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٥١ وما بعدها .

(٢) الأبشيهي ، المستطرف ، بولاق ١٢٦٨ هـ ، ١ ص ٦ . يحاول العلم المعروف « بعلم الأديان » ، أن يبحث عن طريقة للربط بين الأديان جميعاً . أنظر Saurat. Hist, de Relig, p. 54 ; De Lafont : Le Mazdéisme. Préface de Burnouf . Paris, 1897 ; Introd, p. 6. 298

(٣) أنظر Perron : L'Islamisme son Institution. Paris, 1877, p. 24—25.

ففى الحياة الدينية الصرفة: جاء الإسلام بعقائد أساسية كعقيدة التوحيد[١]، وهى: «لا إله إلا الله». فكانت الدعوة إلى التوحيد شبه ثورة على عقيدة الأغلبية من سكان الجزيرة العربية الوثنية، وحتى الأديان السماوية المعروفة وقتئذ، كان قد اندس فيها نوع من الوثنية: فإله اليهود أصبح إلهم وحدهم[٢]، وإنهم بحسب ما ورد فى القرآن كانوا يعبدون «عُزَيراً»[٣] — أحد رجال دينهم الصالحين — على أنه ابن الله، كما كانوا لا يتبعون ما جاء فى التوراة؛ بحيث ضرب القرآن المثل بهم بقوله: ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لم يَحمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفاراً ٦٢ : ٥ ﴾. ثم إن النصرانية العربية لم تعد نصرانية صحيحة، فالقبائل النصرانية فى الجزيرة، كانت لها نفس طباع العرب فى الثأر، ومنهم من كان يتسمى كالعرب بعبد الله[٤]، أو يحلف برب مكة[٥]، أو باللات والعزى من أصنام العرب[٦]. ومن ناحية أخرى، أضحت عقيدة المسيحية غامضة بعد ما غلبت عليها الفلسفة اليونانية[٧]، وكل فرقة فيها تختلف عن الأخرى فى جوهر العقيدة ذاتها، ولا بد أن الجدل زعزع أسس هذه العقيدة لذلك كانت دعوة الإسلام بالسمو إلى إله واحد مجرد، دعوة إلى الإيمان بالعقل.

كذلك نصت العقيده الإسلامية — كما تخرج من القرآن[٨] — على الاعترف

---

(١) النعمان بن حيون، دعائم الإسلام، تحقيق فيضى، القاهرة ١٩٥٠، ١ ص ٥ و ٦.

(٢) أنظر. Bertram : Les Arabes, p. 33.

(٣) القرآن ٩ : ٣٠ عزير هذا هو الذى عرف اليهود بدينهم، الذى كانوا قد تناسوه. الثعالبى، قصص الأنبياء، ص ٢٤٠ — ٢٤١.

(٤) ابن هشام، ١ ص ٢٠.

(٥) شعراء النصرانية، جمع وتصحيح شيخو، ١ ص ٤٥١؛ أنظر. Tor Andrae : Mah. p. 24.

ورد فى شعر عدى بن زيد.

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب.

(٦) ابن هشام، ١ ص ١١٦.

(٧) أرنولد، الدعوة، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين النحراوى، ص ٦٦.

(٨) سورة ٣٣ آية ٤٠.

بمحمد كرسول الله وأنه خاتم النبيين إذ، أن الإسلام يشمل ضمناً معنى الاعتراف برسالته [١]، وهو وإن أرسل إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه أنه مرسل لكافة الناس [٢]: فالدين الإسلامي يجب أن يعم العالم كله؛ ليعيد الناس إلى ملة إبراهيم [٣] — أى الإسلام — التى فطر الناس عليها . فالإسلام وسيلة للربط بين الشعوب التى تعتنقه ، إذ رسالته عامة كالمسيحية [٤] ، وليست خاصة كاليهودية. [٥]

وفوق ذلك فرض الإسلام عقيدة الإيمان بالحياة الأخرى، وهى بالنسبة لأغلبية العرب لم يكن من السهل تصورها [٦] ، فجميع السور — التى نزلت على النبى فى مكة — تحض على الإيمان بحياة أخرى بعد الموت ، حيث أن الروح من الله جزء منفصل عن الجسد ، وأنها بالموت تذهب أول ما تذهب إلى برزخ — لعله مكان منفصل — لتبقى فيه إلى اليوم الآخر [٧]. وكانت هذه السور تذكر اليوم الآخر قريباً، ثم ذكرته بعد ذلك بعيداً، وأن الله وحده هو الذى يعرف الميعاد، الذى من أسمائه: يوم القيامة، ويوم الدين، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، ويوم الخلود، ويوم الفصل. ولهذا اليوم سمات منها : نفخة واحده [٨]، أو نداء من المنادى [٩]، أو صوت مخيف يشبه الرعد ، أو رجة الأرض [١٠]، فتسقط الجبال كالرماد، وتختفى السماء [١١]، ويمتلىء الكون بالدخان [١٢]. وعندئذ يسقط الأحياء صرعى، ويخرج الأموات من قبورهم بعد نفخة أخرى [١٣] ، ليقفوا أمام الله والملائكة، ليحاكموهم على ما سلف من أعمالهم [١٤] : فمن كان قد أساء ساقتهم الملائكة

---

(١) أنظر رأى Margoliuth فى هذا الصدد: The Early development of Mohammedanism. London, 1914, p. 51. ؛ وقبله .

(٢) القرآن ٣٤ : ٢٨ .

(٣) نفسه ٣٠ : ٣٠.

(٤) نعم أن المسيحية كانت رسالة خاصة لبنى إسرائيل ، إلا أنها اكتسبت العموم على يد الحواريين.

(٥) أنظر . أرنولد ، الدعوة ، ص ١٧ .

(٦) أنظر . قبله .

(٧) القرآن ١٧ : ٨٧ .

(٨) نفسه ٦٩ : ١٣ .

(٩) نفسه ٥ : ٤١ .

(١٠) نفسه ٥٦ : ٤ — ٦ .

(١١) نفسه ٢١ : ١٠٤ .

(١٢) نفسه ٤٤ : ١٠ ، ٥٥ : ٣٧ .

(١٣) نفسه ٣٩ : ٦٨ .

(١٤) نفسه ٧٨ : ٣٨.

إلى النار التى وقودها الناس والحجارة [١]، ويُطعمون فيها من شجرة اسمها الزقوم مُرَّة، وأمامن عمل صالحاً فإنه يدخل الجنة[٢]. التى فيها فاكهة ولحم طير وحور من أبكار وولدان[٣]، وأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل[٤]. هذا هو تصوير القرآن للحياة الأخرى، ولعل العرب أيام النبي لم يفهموا من تصوير الدار الآخرة إلا المعانى وليس الحسيات، وخصوصاً أن سياق القرآن يفهم منه ضمناً وجود جنة روحية، يتمتع فيها الناس برؤية الخالق ولا يشعرون فيها بمتاعب الدنيا: ﴿ لا يَسمعُون فيها لغْواً ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سَلاماً سلاَماً ٥٦ : ٢٥ - ٢٦ ﴾[٥]. ولعل القرآن - كما يذكر خلف الله [٦] - إنما قصد من مثل هذا الوصف ما تثيره الألفاظ من إنفعالات ليس لذاتها، ولكن بقصد الردع، ودفع الناس إلى الخير، والأخذ بمبدأ الصرامة فى الحياة الدنيا.

كذلك جاء الإسلام بواجبات دينية تُعرف عند الفقهاء « بالعبادات[٧] » من حيث هى خضوع لله، وحث على الفضائل، وتُعتبر من أركان الإسلام، وسنرتبها على حسب أهميتها :

الصلاة : وهى من دعائم الدين الإسلامى [٨]، وتعنى فى كلام العرب الدعاء [٩]. وهذه الصلاة التى فُرضت على المسلمين — كما نُقل عن النبي — هى

---

(١) نفسه ٢ : ٢٣ .
(٢) نفسه ١٠ : ٩ .
(٣) نفسه ٥٦ : ٢١ وما بعدها .
(٤) نفسه ٤٧ : ١٥ .
(٥) أنظر أيضاً : نفسه ٣٥ : ٣٤ — ٣٥ .
(٦) الفن القصصى فى القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، ص ١٤٤ و١٤٦ و١٤٧ و١٥٣ .
(٧) النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، ١ ص ٧ .
(٨) ينقل كتاب الدعائم أن النبي قال فى حديث له إن المقصود بقول القرآن : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ٤ : ١٠٣) ، قال : مفروضاً . أنظر . دعائم ، ١ ص ١٥٩ .
(٩) اللسان ، ١٩ ص ١٩٨ — ١٩٩ . إن كتابة حرف الألف فى هذه الكلمة « صلاة » واواً مثل « صلوة » ، ايتكرر فى القرآن. أنظر . Ency. del'Isl, (art Salât) 4, p. 99 sqq.

صلاة إبراهيم، أراه إياها الوحى «جبريل [١] »: فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر حين كان ظلّه مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر. وإن كنّا لا نجد فى القرآن تحديداً لهذه الصلوات الخمس مجموعة هكذا: فتذكر إحدى السور صلاتين، إحدهما عند غروب الشمس والثانية عند ظلمة الليل لعلها العشاء، مع ترتيل القرآن فى الفجر [٢]؛ وتذكر ثانية صلاة الصبح والمغرب والعشاء [٣]؛ وفى ثالثة حض على الصلوات والصلاة الوسطى [٤]، التى قد يكون المقصود بها صلاة الظهر أو العصر. وهذه الصلوات اليومية عبارة عن ترتيل للقرآن والركوع والسجود، وهى تكون وقوفاً، وفى حالات خاصة مثل المرض تكون والمصلى جالس [٥]، كما أنها لا تكون بالضرورة فى المسجد أو فى جماعة إلا صلاة الجمعة [٦]، التى تحل محل صلاة الظهر، وعندئذ ينتظم المسلمون فى صفوف. وعلى عكس الأديان الأخرى؛ فإن يوم هذه الصلاة لا يكون يوم عطلة، كما يكون يوم الأحد عند المسيحيين مثلاً، بل هو يوم صلاة وعمل [٧]. كذلك وُجدت أنواع أخرى من الصلاة غير هذه الصلوات اليومية، مثل [٨]:

---

(١) ابن هشام، ١ ص ١٥٨ — ١٥٩. نجد مثيلا لهذه الرواية عن الصلوات فى أوقات النهار بما فيها من سجود وركوع عند الكلام عن « المانية » دين الفرس. أنظر. ابن اسحق، المانية، تحقيق Flugel، بعنوان: Mani seine Lehre und seine Schriften. Ein, Beïtrage zur Geschichte des Manichaïsmus aus dem Fihrist des 'Abu'l Faradsch Muhammed b. Ishak al-Warack. 1862, p. 50. وبعده.

(٢) القرآن ١٧ : ٧٨. أنظر أيضاً: الموطأ، طبعة دلهى، ص ٤؛ دعائم، ١ ص ١٥٩.

(٣) القرآن ١١ : ١١٤؛ انظر. دعائم، ١ ص ١٦٠.

(٤) القرآن ٢ : ٢٣٨. الصلاة الوسطى قد تكون ايضا صلاة الجمعة. دعائم، ١ ص ١٦٠

(٥) الموطأ، ص ٣٠ — ٣١.

(٦) دعائم، ١ ص ١٨٥ — ١٨٩.

(٧) القرآن ٦٢ : ٩ — ١٠.

(٨) الوطا، ص ٦٤ وما بعدها؛ دعائم الإسلام، ١ ص ٢١٦ وما بعدها

صلاة الخوف والكسوف والاستمطار والاستسقاء والصلاة على الجنائز والعيدين ؛ وأيضاً الصلوات المسماة السنة والنافلة [١] ، أى الصلوات التى استنها النبي مع كل صلاة ، والتى يقوم بها الشخص تطوعاً .

وهذه الصلاة تتم بما يُعرف «بالآذان[٢]» ، أو من غيره إلا فى صلاة الجمعة ، والمقصود به «المناداة» أو «النداء» [٣] إلى إقامة الصلاة . وبذلك أصبح لمناداة المسلمين للصلاة طابع خاص بهم ، حيث لم يقبلوا استخدام نواقيس المسيحيين أو أبواق اليهود[٤] . وكان الآذان فى أول الأمر بسيطاً لا يتعدى هذه العبارة : «الصلاة جامعة [٥]» ؛ وإن اختلف فى صيغته ، وأيضاً فى : هل جاء به الوحى كالصلاة [٦] ، أو أنه جاء فى منام صحابى أو أثر [٧] ؟

كذلك لا تقام الصلاة إلا «بالضوء [٨]» ، والمقصود به التطهر من الدنس . وقد بيّن القرآن شروطه[٩] . فهو غسل الوجه ، والأيدى إلى المرفقين والأرجل إلى الكعبين ، ومسح الرأس . وقد كان الوضوء من الأمور المعروفة

---

(١) دعائم ، ١ ص ٢٤٩ . ومن هذه الصلوات صلاة التراويح — التى لا يقوم بها الشيعة — وهى الصلاة التى تضاف إلى صلاة العشاء فى رمضان ، وتتكون من عشرين ركعة وعشر تحيات .

(٢) دعائم الإسلام ، ١ ص ١٧٧ .

(٣) القرآن ٦٢ : ٩ ، ٥ : ٦٣ .

(٤) أبو مسلم ، صحيح ، طبعة القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ١ ص ١١٢ وما بعدها ؛ ابن سعد ، ٢/١ ص ٧ ؛ انظر . ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٢١ .

(٥) ابن سعد ، ٢,١ ص ٧ س ٨ .

(٦) يقول الشيعة إن الآذان على عهد النبي كان يشمل عبارة : «حى على خير العمل» ؛ ولكن عمر بن الخطاب ـ الخليفة الثانى للنبي ـ أمر بحذفها ، وقال : «إذا سمع الناس أن الصلاة خير من العمل تهاونوا بالجهاد وتخلفوا عنه» : أنظر . دعائم الإسلام ، ١ ص١٧٢ .

(٧) ابن سعد ، ٢/١ ص ٧ .

(٨) دعائم الاسلام ، ١ ص ١٢١ وما بعدها ؛ مسلم ، صحيح ، ١ ص ٨٠ وما بعدها . يعبر أيضاً عنه فى الجاهلية «بالغسل» . ابن هشام ، ١ ص ١٠١ س ١٢ .

(٩) القرآن ٥ : ٦ .

فى الجاهلية [١] ، يقوم به الشخص قبل الطواف بالكعبة . ولكن لظروف متعددة منها المرض أو قلة الماء — وخصوصاً بالنسبة لسكان البادية — كان « المصلى يتيمم [٢] » ، وذلك بأن يضرب الأرض ضربة لوجهه ، وضربة ليديه ويمسحهما إلى المرفقين [٣] .

الصيام : وهو من فروض الدين الهامة [٤] ، ويعنى ترك الطعام والشراب والنكاح [٥] ، وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل عن الآثام [٦] . ولا يكون الصيام إلا برؤية هلال الشهر التاسع من السنة القمرية ، أى فى شهر رمضان [٧] ، وذلك من الفجر حتى الغروب . وهذا الصيام له مثيل فى الأديان الأخرى ، كما عند اليهود [٨] ؛ ولكن لم يُعرف عند العرب بمثل هذه القواعد . وعلى عكس الصلاة ظهر الصيام متأخراً ، إذ فرضه النبى على المسلمين فى المدينة ، حيث اعتبره زكاة الجسد ؛ وإن استثنى منه من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ أما من لا يستطيعه فعليه إطعام المساكين . ويقول ابن العبرى المسيحى (Barhebraeus) ؛ بهذا الصدد عن الصيام الإسلامى : إنه رياضة وتذليل ، وقمع للشهوة ، تحصل به رقة القلب ، وصفاء النفس [٩] .

---

(١) ابن هشام، ١ ص ١٠١.

(٢) القرآن ٥ : ٦ .

(٣) الموطأ ، ص ١٩.

(٤) سورة ٢ : ١٨٣ ومابعدها.

(٥) اللسان ، ١٥ ص ٢٤٢ .

(٦) الأبشيهى ، المستطرف ، ١ ص ١٣ .

(٧) الموطأ ، ص ٨٥.

(٨) واتنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٢٢ .

الزكاة (١) : وهى من فرائض الدين ، وترادفها كلمة «صدقة(٢)» ، بمعنى ما كان يجمعه النبى من المسلمين(٣) . وقد بيّن القرآن أوجه صرفها، فقد أراد دفعها إلى ثمانية أصناف ، هم : الفقراء ، والمساكين أو الضعفاء ، والعاملون على جبايتها ، والمؤلفة قلوبهم وذلك بدفعها للترغيب فى الإسلام(٤) ، والرقيق ، والغارمون أو الذين عليهم دين(٥) ، وفى سبيل الله ولعل المقصود به الجهاد(٦) ، وابن السبيل أى المسافر . وهذه الزكاة كانت تؤخذ فى الحرث والعين والماشية والمعادن ، وإن اختلف إلى من تدفع : للحكام أو أن الناس تتصرف فيها بإرادتها (٧) ، وإن تمسك خلفاء النبى الأوائل بجبايتها بأنفسهم : كما فعل النبى(٨) . وقد كانت الزكاة من الواجبات الدينية حتى فى الأديان الأخرى مثل المسيحية واليهودية ، فكان يجمعها رجال الدين لتدفع للمساكين(٩) . كذلك كانت العرب قبل الإسلام تدفع الصدقة بترك بهائمها للآلهة أو بذبحها ، وإن كانت تُسمى بأسماء مختلفة ذكرها القرآن ، منها (١٠) : البحيرة والسائبة

---

(١) القرآن ٢٣ : ٤ ، ٨٧ : ١٤ . عنها بالتفصيل ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Zakât) t4, p. 1270—1273.

(٢) نفسه ٩ : ٦٠ ، ١٠٣ .

(٣) الموطأ ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(٤) اللسان ، ١٠ ص ٣٥٣ .

(٥) نفسه ، ١٥ ص ٣٣١ .

(٦) نفسه ، ١٣ ص ٣٤٠ .

(٧) دعائم ، ١ ص ٢٩٣ .

(٨) القرآن ٩ : ١٠٣ ؛ دعائم ، ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٩) ابن هشام ، ١ ص ١٣٨ .

(١٠) سورة ٥ : ١٠٢ . « البحيرة » ، هى نتائج الناقة التى يشق أذنها وتوهب للآلهة ، فينتفع بلبنها الرجال دون النساء ، و « السائبة » هى ما يترك من المال أو البهائم وتكون حراماً ، و « الوصيلة » وهى سابع نتاج الشاة إذا كانت أنثى ويحرم أكلها ، وهى أيضاً ينتفع بلبنها الرجال دون النساء ، و « الحامى » الفحل الذى يترك ولا يركب إذا صار جداً ، وإذا مات جعل للآلهة . النويرى ، ٣ ص ١١٦ — ١١٧ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٧٣ .

والوصيلة والحامى . وإنه من الخطأ أن تتصور أن اهتمام الإسلام بالزكاة يرجع إلى المشاكل الاجتماعية [١] ، فى جميع حالاته ، أو أنه نوع من التضامن الإجتماعى كما فى وقتنا ، وإنما هو يفسر من الناحية الدينية من حيث أنه حث على الشفقة والرحمة ، واستغلالها فى الجهاد ونشر الدين . ومع ذلك ، فإن بذور التضامن الإجتماعى فى الإسلام موجودة ، منذ آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين .

الحج : وهو من الواجبات الدينية على المسلمين [٢] ، الذين يستطيعون الذهاب إلى مكة ، وهو نفسه الحج الذى كان يقام فى مواسمه المعروفة قبل الإسلام ، ويُنسب إلى زمن ابراهيم [٣] — مؤسس الحنيفية — بما فى ذلك من الطواف ورمى الجمار والتضحية والسعى بين الصفا والمروة . وإن كان الإسلام قد حتم على الحجاج أن يلبسوا شيئاً من الملابس الموحدة [٤] ، تتألف من القماش غير المصبوغ ، تغطى أعلى الفخذ والصدر والأكتاف ، على أن تبقى الرأس عارية، كما يُلبس نعلين . ويُعتبر الحج الذى قام به النبى فى آخر حياته، وهو حجة الوداع [٥] ، الأساس الذى قام عليه الحج إلى الآن. كذلك أبقى الإسلام على النوع الآخر من الحج وهو « العُمرة [٦] »، وهو يشمل الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ويكون فى غير أشهر الحج [٧]

---

(١) أنظر . Tor Andrae : Mah, p. 74,

(٢) القرآن ٢ : ١٩٧ .

(٣) الثعالبى ؛ قصص الأنبياء، ص٦٠ ؛ انظر . Zaayer : Het Mekkanesche Feest. Leiden, 1880, p. 20.

(٤) الموطأ ، ص ١٢٥—١٢٦ .

(٥) أنظر . قبله .

(٦) القرآن ٢ : ١٩٦ .

(٧) الموطأ ، ص ١٣٤ ؛ انظر . Gaud-Demombynes : Le Pélerinage, à la Mekke, p. 192—193,

أمّا ماجاء به الإسلام فى الحياة الإجتماعية فأثره واضح، وذلك لأن الدين الجديد اعتنى بالأسس التى يقوم عليها المجتمع ، بعكس بعض الأديان الأخرى التى تقوم فى جانب والحياة فى جانب آخر مثل المسيحية ؛ أو بعض العقائد السياسية التى قامت والتى تقوم متخلصة من كل أثر دينى، مثل الشيوعية التى تجحد الدين . ومع ذلك لايمكن أن نقول إن الدين الإسلامى عالج نظم الحياة بنصوص صريحة، ولكنه على كل حال صاغ هذه النظم وفق فكرته الأساسية كدين .

فاعتنى الإسلام - قبل كل شىء - بتهذيب المجتمع العربى، فسعى إلى إصلاح الخلل فى الأخلاق الذى كان سائداً فى الجاهلية. فلكى يحفظ للأسرة كيانها جعل الزنا[1] ، الذى هو اختلاط للأنساب ومفسد للنوع، جريمة كبرى «فاحشة»[2]، مع أنه لم يكن فى الجاهلية بالجريمة ذات الشأن. ولكن الإسلام وإن كان لم يقض على كل النظم الجاهلية التى تبيح التمتع الجنسى ، فشرّع الزواج من مثنى وثلاث ورباع[3]، وأخذ بنظام نكاح الإماء وهن الجوارى[4]، وذهبت بعض مذاهبه إلى تحليل زواج المتعة[5] - وهو الزواج المؤقت - فلعله لم يرد أن يأخذ المجتمع العربى بطريق التغيير الفجائى لما يترتب على ذلك من أخطار قد تدمّر أصول هذا المجتمع؛ كما أنه وضع بعض القيود بأن جعل العدل أساساً فى الزواج بأكثر من واحدة[6]، وذكر أن الرجل لا يستطيع - مع ذلك - أن يعدل، أما بالنسبة للإماء ، وهو نظام يستطرد إلى نظام الرق والاسترقاق ، فقد وضع له قيوداً تجعل عدمه خيراً من وجوده فدعا إلى تحرير الرقيق[7]، أما زواج المتعة فقد بيّن النبى كرهه له[8].

---

(١) القرآن ٢٥ : ٦٨ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ س ٢ .

(٢) القرآن ١٧ : ٣٢ .

(٣) نفسه ، ٤ : ٣ . عرف تعدد الزوجات عند كثير من الشعوب القديمة كالفرس والهندوس والبابليين والأشوريين. أمير على ، مركز المرأة فى الإسلام . أنظر .

(٤) القرآن ٢٤ : ٣٢ .

(٥) الموطأ ، ص ١٩٦ ؛ الطبرى ١ : ١٧٧٥ — ٦ ؛ انظر . Ency, (art Mut'a) t3, p. 826—9.

(٦) القرآن ٤ : ٣ .

(٧) نفسه ٤ : ٩٢ ، ٥٨ : ٣ ، ٩٠ : ١٣ ؛ البخارى ، صحيح ، بولاق ١٣١٤ هـ ، ٧ س ٦ (المجلد الثانى) .

(٨) الموطأ ، ص ١٩٦ .

كذلك عالج الإسلام حرية المرأة وفق روحه الدينية بقصد صيانتها، وذلك دون أن يكون من أنصار تحريرها بالمعنى المعروف فى وقتنا فقد جعلها فى حماية زوجها[1] ، بحكم أن الرجل أقوى من المرأة ولإنفاقه عليها[2]؛ كما حد من إبداء زينتها إلا لزوجها وأقارب زوجها[3]؛ مما كان سبباً فى جعل المرأة المسلمة ، أو حتى المسيحية فى الشرق تلبس النقاب[4]، وأعطى الحق للزوج فى وعظها أو هجرها فى المضاجع إذا لم ترتدع ، أو ضربها[5] . ومع ذلك ، فالإسلام قد رفع من شأن المرأة عن ذى قبل ، وسار فى سبيل ذلك خطوات واسعة بقضائه على بعض عادات المجتمع الجاهلى، مثل : وأد البنت خشية الإملاق[6]، أو وراثة نكاح المرأة وهو ما يُعبر عنه « بنكاح المقت »[7] ، أو نكاح ما نكح الآباء أو الإخوة ، أو العمّات أو الخالات أو بنات الأخت أو الأم أو أمهات الزوجات أو الأخوات فى الرضاعة أو الجمع بين الأختين[8] . كذلك حفظ الإسلام حقوق المرأة مما لم يكن معترفاً به من قبل ، مثل : حفظ حقوقها فى الزواج والأولاد والطلاق والأجور[9] ، وطالب باستئذان البكر والأيم فى نفسيهما[10] ، وإحسان المعاملة[11] ، بل أصبح للزوجة حق مفارقة الزوج إذا كانت العصمة بيدها ، أو حتى الخلع منه ، بأن تقدّم لزوجها المال ليطلقها ؛ إذا تبرّمت بعشرته[12] . ولا ريب أن الذى ساعد على اتخاذ الإسلام هذه الخطوات ، أن حياة الأسرة العربية كانت متقدمة فى الحجاز عنها

---

(١) أنظر . رأى Perron : Femmes Arabes, p. 171.

(٢) القرآن ٤ : ٣٤ .

(٣) نفسه ٢٤ : ٣١ .

(٤) أنظر . Tor Andrae : Mah, p. 78.

(٥) القرآن ٤ : ٣٤ .

(٦) نفسه ١٧ : ٣ .

(٧) أنظر . قبله ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٠ . «المقت» من مقيت أى مبغوض مكروه . الألوسى ، ٢ ص ٥٣ .

(٨) القرآن ٤ : ٢٣ .

(٩) سورة النساء (٤) ؛ أنظر .

(١٠) الموطأ ، ص ١٨٩ .

(١١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٩ (خطبة الوداع) ؛ الأبشيهى، المستطرف، ٢ ص ٢٧٨ .

(١٢) ايمان العرب ، أنظر .

فى بقية أنحاء الجزيرة ، بحيث أن السيدة خديجة هى التى اختارت النبى زوجاً لها[١] .

وفوق ذلك أوجد الإسلام تشريعات كثيرة لصالح المجتمع العربى، والرفع من شأنه حتى يقيمه على دعائم قوية: فنظّم القصاص أو ما يعرف «بالحدود»[٢] ، وهى زواجر وضعها الله للردع عن ارتكاب ما حظر، و ترك ما أمر[٣]، معظمها كان معروفاً عند العرب أو اليهود[٤] ؛ فوضع لها قواعد وشروطاً حتى لا يساء تطبيقها . فمثلاً ترك الشفاعة للسارق ، وإذا قطعت يده فتقطع يده اليمنى من مفصل الكوع، وإن استمر فى السرقة قطعت إحدى رجليه أيضاً وهى اليسرى من مفصل الكعب[٥]، أو ضرورة وجود البيّنة فى حالة رجم الزانى[٦]. كذلك حارب الربا كل المحاربة ـ وهو أخذ الفائدة ـ وذلك لأن معظم القائمين به هم اليهود ، الذين اعتبروه نوعاً من التجارة ، مع أن دينهم كان يحرّمه[٧]؛ وقد صور الإسلام من يأخذه بالشيطان[٨] . كذلك منع الخمر[٩] والميسر ـ وهذا الأخير هو وقتئذ القمار على لحم الجمال ـ وإن كان تحريم الخمر لم يحدث دفعة واحدة[١٠] ، وكان هذا التحريم فى السنة الرابعة أو الخامسة الهجرية[١١] ؛ ومع ذلك يرى بعض الفقهاء أن الخمر المحرّمة فى القرآن هى المتخذة فقط من

---

(١) أنظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ، ص ٢٧ ، ٢٨ ؛ وأيضاً ابن سعد ، ١/١ ص ٤٦ س ٥ — ٦ .

(٢) القرآن ٦٥ : ١٠.

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، ص ١٩٤ ؛ انظر . Tyan Hist. de l'Org. Jud. Paris, 1943. 2, p. 355.

(٤) الموطأ ، ص ٣٤٧ ؛ ابن هشام ، ١ ص ١٢٢ .

(٥) الموطأ ، ص ٣٥١ .

(٦) الماوردى ، أحكام ، ص ١٩٧ .

(٧) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٨ .

(٨) القرآن ٢ : ٢٧٥ .

(٩) نفسه ٢ : ٢١٩ .

(١٠) نفسه ٢ : ٢١٩ ، ٤ : ٤٣ ، ٥ : ٩٠ — ٩١ .

(١١) النويرى ، ٤ ص ٧٩ وما بعدها .

عصير العنب والتمر[١] . ويبدو أن سبب تحريم الإسلام للخمر هو تهيئتها الشخص للخطيئة ، والمنع من الصلاة لله ، فضلاً عن أنها توقع البغض والعداوة بين الناس بما يخوضون فيه فى مجالسهم الخمرية من أعراض الغير[٢] . كذلك نظّم الإسلام ما يعرف « بالمعاملات »[٣] ، من بيوع وأقضية وميراث .

والواقع لم يدّع الإسلام أنه بنى مجتمعاً فى غاية التنظيم ، وإنما على أية حال نهض بالمجتمع القديم ، ووضع بذوراً طاهرة تحفظ عليه كيانه من طغيان المادة ، بل هناك فكرة سائدة هى أنه ليس من السهل إقامة مجتمع مثالى ، لأن ذلك يعارض طبيعة التطور .

أما التشريعات السياسية فى الإسلام ، فإنها كانت هى الأخرى تحوم مرتبطة بالقيم الأخلاقية ؛ فى الإسلام إشتراكية خلقية[٤] ، لا تؤمن بحق الملكية التى تجعل الناس عبيداً للأرض ، أو بحق فرض العمل فرضاً على الناس مما يجعلهم أشبه برقيق الأرض ، فالإسلام كالأديان الأخرى دعا إلى المساواة ، وأنه ضد ظلم المجتمع واضطهاده ، بحيث نادى بإعتاق الرقيق : « تحرير رقبة[٥] » ، أو « فك رقبة[٦] » ، كما نادى بحرية العمل « Laisser Faire » . كذلك وإن كان الإسلام لم يحدد نظام الانتخاب أو يوضح نظام الشورى[٧] ؛ إلا أن مسلكه ضد الملوك والحكام بيّن أنه ضد الاستبداد[٨] ؛ وأن هؤلاء يعتبرون خلفاء الله فى الأرض ؛ لحماية الناس من الاستبداد .

من كل هذا نرى أن الإسلام حفز البدو إلى تحسين كيانهم ، بما أقامه لهم من أسس قوية ، وتشريعات نظمت مجتمعهم المضطرب .

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٩٩ .
(٣) نفسه ، ص ٢١٩ ؛ الموطأ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٤) هيكل ، حياة محمد ، ص ٥٤٢ .
(٥) القرآن ٤ : ٩٢ ، ٥٨ : ٣ .
(٦) نفسه ٩٠ : ١٣ . (٧) نفسه ٤٢ : ٣٨ . (٨) نفسه ٢٧ : ٢٤ ،

الخلفاء الراشدون

١١ – ٤٠ = ٦٣٢ – ٦٦١

	هجرية	ميلادية
أبو بكر الصديق	١١ — ١٣	٦٣٢ — ٦٣٤
عمر بن الخطاب	١٣ — ٢٣	٦٣٤ — ٦٤٤
عثمان بن عفان	٢٤ — ٣٥	٦٤٤ — ٦٥٦
علىّ بن أبي طالب	٣٥ — ٤٠	٦٥٦ — ٦١٦

الفصل الثالث

عصر الخلفاء الراشدين

ظهور منصب الخلافة وتولية أبى بكر ـ ردة العرب ـ قمع الردة ـ بدء حركة الفتوح ـ فتح العراق ـ فتح الشام ـ تولية عمر بن الخطاب ـ فتح فارس ـ فتح الجزيرة ـ فتح مصر ـ فتح برقة وطرابلس ـ معاهدة البقط ـ تنظيم البلاد المفتوحة ـ تولية عثمان ـ سيطرة المسلمين فى البحر ـ فتح أرمينية ـ جمع القرآن ـ أسباب الفتنة الأولى ـ تولية علىّ ـ الصراع على الخلافة ـ ظهور الفرق الإسلامية ـ التحكيم ـ عام الجماعة الأول .

عرفنا مدى التطور السياسى الذى ظهر فى الحجاز بهجرة النبى إلى المدينة، وممارسته فيها الزعامة السياسية بجانب الزعامة الدينية[1]، وأنه جعل من المسلمين «أمة[2]» واحدة ؛ أى طائفة دينية متميزة قائمة بذاتها . وبهذا حقق النبى فى المدينة مبدأً جديداً فى حياة المجتمع العربى يكون فيه الشعور القبلى من نسب وحسب وعصبية ثانوياً بجانب الرابطة الدينية[3] ؛ فضلاً عن قيام نظام دولة عربية لم يكن لها وجود فى وقته، وإنما تكافل قبائلى ، ومناطق محتلة من قبل الفرس والروم .

وقد كان موت النبى مفاجأة لم يصدقها العرب[4]، بحيث أوجدت مشكلة هى : مسألة خلافته الشائكة . حقاً إن النبى ـ لا يبدو ـ أنه عيّن لهذه «الأمة» المسلمة نظام الحكم بعده ، إلا أنه أوجد لها مبدأ الطاعة ونص عليه

---

(١) أنظر. الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ، ص ١٥ .
(٢) القرآن ١٠:٤٧؛ انظر Ency de l'Isl, (art Umma)t 4. p 1070.
(٣) القرآن ٣:٢٨ ، ٩:٢٣؛ انظر أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٢ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢١٩

في القرآن: ﴿ يَاأيها الذين آمنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعُوا الرسُولَ وأولى الأمرِ منكُم ٤٠:٥٩ ﴾؛ ويقصد بأولى الأمر من يقوم بأمور الأمة الإسلامية[١]. ويظهر أنه طالما كان النبي حياً كانت الخلافات على رئاسة «الأمة» الإسلامية من بعده نائمة؛ وإن كان الراغبون فيها كثيرين.

فكان بنو هاشم يطمعون فيها، وخصوصاً أنهم ظنوا أن انتصار النبي على البيت الأموي — الذي تزعم مقاومة الدعوة الإسلامية — معناه عودة زعامتهم في مكة والحجاز. وقد كانوا ينتظرونها لعليّ[٢]، ذلك لأن أباه حمى النبي في الأيام السوداء[٣]، وعليّ نفسه كان من أوائل المسلمين، ومن أقربهم قرابة من النبي[٤]: فهو ابن عمه، وزوج ابنته فاطمة[٥]، فضلاً عن أنه أعلن أن النبي أوصى إليه صراحة في إمامة المسلمين من بعده[٦]، ولذلك نجد العباس عم النبي — وكان قد تأخر[٧] إسلامه إلى ما قبل فتح مكة — يقبل على ابن أخيه عليّ، ويقول له[٨]: «ابسط يدك ولنبايعك». ولكن لعل علياً تباطأ في قبول ذلك لظهور أطماع من أكثر من جانب، وخوفاً من أن تدخل الشبهة في أن النبوة ملك متوارث[٩]، وانشغل بدفن النبي[١٠].

---

(١) يذكر الشيعة أن المقصود بأولى الأمر هم الأئمة من نسل علي؛ ولذلك يجعلون الطاعة لهم من أولى دعائم الإسلام، ويطلقون عليها «الولاية». أنظر. دعائم الإسلام، ١ ص ٣، ٢٥ وما بعدها.

(٢) النوبختي، فرق الشيعة، تحقيق صادق، النجف ١٣٥٥/١٩٣٦، ص ٢.

(٣) أنظر. قبله.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٣٧، ٣ ص ٩٨.

(٥) تزوجها بالمدينة، وماتت بعد وفاة النبي بمائة يوم؛ وقد ولدت لعلي الحسن والحسين، ومحسناً وأم كلثوم وزينب. المعارف، ص ٧٠.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٦٨. نقل الشيعة أحاديث كثيرة تؤيد وصاية النبي لعلي؛ فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصياء من أسرهم (دعائم، ١ ص ٢٥). وحدثت هذه الوصاية، أثناء حجة الوداع، في السنة العاشرة من الهجرة، بقرب غدير خم، مكان بين مكة والمدينة. نفس المصدر، ١ ص ٢٠ — ٢١؛ أنظر. ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ١ ص ٥١ وما بعدها.

(٧) أنظر. قبله.

(٨) المقريزي، النزاع والتخاصم، ٦.

(٩) نفسه، ص ٤٨.

(١٠) ابن هشام، ٢ ص ١٠١٨ — ١٠٢٠.

ومن ناحية أخرى كان المهاجرون — وهم الذين هاجروا مع النبي إلى يثرب — يريدون الخلافة فيهم[١] ، ويميلون بها إلى أبي بكر[٢] ، ذلك لأنه كان من السابقين إلى الإسلام[٣] ، والمشاركين في الدعوة من أولها إلى آخرها ، حتى استحق لقب «صديق» ، وكان إيمانه بدعوة الإسلام ، وبضرورة تغيير العرب لدينهم يفوق إيمان جميع المسلمين ، فيقول النبي[٤] : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظرُ وتردد إلا ما كان من أبي بكر» ؛ هذا وأنه والد عائشة زوج النبي المحبوبة[٥] .

كذلك الأنصار — وهم مسلمو المدينة — الذين نصروا النبي وعملوا على إنجاح دعوته كانوا يطمعون في الرئاسة فيهم ، وخصوصاً أن النبي حتى بعد فتح مكة رجع معهم إلى المدينة ، ولم يبق في قومه[٦] ، ودفن بها . ويظهر أنهم كانوا يميلون بالخلافة إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج[٧] : ولكن سعد بن عبادة لم يكن يملك الشخصية التي تجعله يخلف النبي . أضف إلى ذلك أن الأوس — وهي القبيلة الأخرى الهامة بالمدينة — كانت فقدت سيدها سعد بن معاذ ، الذي توفي قبل وفاة النبي[٨] . ومعنى هذا أنه لم يكن بين الأنصار من يستطيع أن

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٠١٥ س ١١ ؛ ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مصر ١٣١٧ هـ ، ٤ ص ٩٧ . أنظر أيضاً نص الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر وعلي ، وما يتصل بها من كلام عمر بن الخطاب وجواب علي ؛ وهذه الرسالة قد تكون موضوعة ولكنها تعبر عن ظروف الوقت أصدق تعبير . النويري ، ٧ ص ٢١٣ وما يليها .

(٢) النوبختي ، ص ٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٣٨ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٦١ — ١٦٢ ؛ انظر . هيكل الصديق أبو بكر ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٢ هـ ، ص ٣٤ .

(٥) تزوجها في السنة الأولى من الهجرة . ابن الأثير الكامل ، ٢ ص ٧٧ .

(٦) نفس المصدر السابق ، ٢ ص ١٨٥ .

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٥ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٦٧٤ — ٦٧٥ ، ٦٩٧ .

يضم صفوفهم ، ويحقق لهم أملهم في جعل الخلافة فيهم .

على كل حال حلت مسألة خلافة النبي الشائكة بسرعة عجيبة ، وفي العام ذاته الذي توفي فيه (١١ هـ / ٦٣٢). ولعل ذلك يرجع إلى الخوف من الفتنة على هذه الأمة الناشئة ، وخصوصاً أن بعض القبائل أعلنت خروجها على طاعة النبي في حياته (١). وينسب حل هذه المسألة إلى صحابي كبير، هو عمر ابن الخطاب (٢) ، الذي كان يهدف قبل كل شيء إلى توحيد الصفوف منعاً للفتنة (٣) ، والرجوع بالعرب إلى تقاليدهم في اختيار « السيد (٤) » أو « الزعيم » ، على أن تكون الرئاسة في قريش وحدها (٥) . فأعلن في سقيفة بني ساعدة (٦) — وهو المكان الذي كان يتشاور فيه المهاجرون والأنصار بالمدينة — أن أبا بكر بحكم — سنه وتجربته — خليفة رسول الله (٧). فلقي هذا الإعلان في أول الأمر معارضة من الأنصار وبخاصة من الخزرج ، إلا أن أغلبهم وافق على اختياره بعد أن تأكدوا أن الأمر سيستمر شورى بينهم وبين المهاجرين (٨) .

وقد تأكدت طاعة الأنصار والمهاجرين لأبي بكر بما يعرف: « بالبيعة » أو « المبايعة (٩) » ، وهي كلمة في القرآن (١٠) ، تعني العهد والطاعة ، وتكون ببسط اليد

---

(١) النوبختي ، ص ٤ ؛ وبعده .

(٢) ابن الجوزي ، كتاب تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) أنظر . الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر . النويري ، ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٤) أنظر . قبله .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٣ — ١٥٤ ؛ النوبختي ، ص ٣ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٣ — ١٠١٧ .

(٧) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٠٧ . المقصود بالخليفة في اللغة من يخلف النبي ، ولذلك نهى أبو بكر عن مناداته « بخليفة الله » ، وقال : « ولكني خليفة رسول الله » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥١ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٩) ابن هشام ، ٢ ص١٠١٦ ؛ انظر. حسن وعلي إبراهيم، النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٢٩ ؛ Ency. (art Bay'a) 2ed, t 1 ,p. 1146—7

(١٠) القرآن ٤٨ : ١٠ . هذه الكلمة مصدر باع . أنظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٥ .

أو بضربها على يد المبايع [١] . ويظهر أن البيعة تكون من الرجال والنساء على السواء ؛ فقد سبق أن بايعت النساء النبي [٢] ، وتكون مبايعتهن من غير لمس أو مصافحة ، وإنما فقط بإعلان الطاعة بالكلام . أما أن تكون البيعة بتقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل ، كما ستكون فى العصر العباسى ، فهذه أساسها فى تقاليد الفرس [٣] ، لا العرب . ومع ذلك فإن عليًّا — على ما يظهر — تأخر فى المبايعة [٤] ، أما سعد بن عبادة فيبدو أنه لم يُجبر على المبايعة إلى أن قُتل فى حرب الشام [٥] .

وفى الحق أن أبا بكر يمثل روح « سيد » العرب ، التى امتزجت بروح الدين الجديد، ويتبين هذا فى أول خطبة له ألقاها من على منبر النبى فى المسجد، قال فيها[٦]: « أيها الناس إنى قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوّمونى ، الصدق أمانةٌ ، والكذبُ خيانةٌ ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتى أريح عليه حقّه إن شاء الله، والقوىُّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذَ الحق منه إن شاء الله . . أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عَصَيتُ الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم . . »

ولكن رأى أهل السقفية فى خلافة أبى بكر للنبى، لم يكن رأى السواد الأعظم من عرب الجزيرة ، فمنهم من ارتد عن دين الإسلام بحكم أن الإسلام انتهى بموت النبى [٧]، ومنهم من توقف من المبايعة لأبى بكر مع تمسكهم بالإسلام،

(١) ابن هشام ، ١ ص ٣٠٠ س ٤ .

(٢) القرآن ٦٠ : ١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ٢ ص ١٢١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٥ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢ .

(٥) نفسه، ٢ ص ٢٢٤ س ١٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٧ ، انظر . هيكل ، الصديق ، ص ٧١ .

(٧) أنظر . الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٧ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

ومنهم من امتنعوا عن دفع الزكاة التى كان النبى يجبيها من القبائل ، حتى يصح عندهم لمن الأمر ، ومن والذى استخلفه النبى (١) ، فكان على ولىّ الأمر الجديد أن يُرسل الحملات الحربية نحو من رجع عن الإسلام ، أومن لم يبادر بمبايعته ، أو من امتنع عن دفع الزكاة ، وسمى هؤلاء : « بأهل الردة (٢) ». وهذه الحروب التى وقع معظمها فى الجزيرة العربية بين سنتى إحدى عشرة واثنتى عشرة من الهجرة (٦٣٢ — ٦٣٤ (٣)) ، هى أشبه بأيام العرب ووقعاتهم ، حيث سميت كل منها بيوم من أيامها المشهورة (٤) .

ومن المؤكد أن الوحدة السياسية لعرب الجزيرة جميعاً لم تقم فى أى وقت ، وليس لدينا سند تاريخى واحد يشير إلى قيامها فى زمن النبى ، فقبل موته بثلاث سنوات كانت مكة وأرباضها فى عداء سافر مع المدينة ؛ وإن كان من المحتمل أنه عندموت النبى وبيعة أبى بكر بالخلافة ، كان قد تكوّن فى المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة تشتمل على مكة والمدينة وبعض القبائل العربية المجاورة ؛ أما الجزء الأكبر من قبائل الجزيرة فلم يكن خضوعها لنفوذ المدينة إلا خضوعاً اسمياً ، مظهره : إرسال الوفود إلى المدينة (٥) ، وإيتاء الزكاة (٦) التى كانت تؤخذ من غلات البلاد لأن الجزيرة لم تكن تعرف العملة إلا فى أيدى تجار قريش المتعاملين مع بيزنطة وفارس ، وأيضاً إعطاء الخمس (٧) من المغانم التى يحصلون عليها فى غاراتهم ، ومفارقة المشركين ، وقبولهم العمال أو القراء لجباية الصدقة وتعليم الدين (٨) ، لأن العرب كانوا أمة أمية .

(١) النوبختى ، ص ٤ .
(٢) نفسه ؛ الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٤ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ص ٢٥٢ .
(٤) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ وما بعدها .
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٣ ؛ أنظر . قبله .
(٦) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٣ س ٣ . فمثلاً كان النبى يأخذ صدقة اليمن من التمر والشعير والذرة والحنطة والزبيب والبن . أنظر . البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٢ .
(٧) ابن سعد ، ١/٢ ص ٢٣ س ٢ .
(٨) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦١ — ٩٦٢ . هم الحافظون للقرآن أو الذين يقرأون الكتاب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٥٣ .

ومن ناحية أخرى كان الجزء الأكبر من العرب في الجزيرة — فيما عدا عرب المدينة ومكة — لا يعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن ، ولم يكن فى كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار ، وأهل مكة من المهاجرين . ففى الواقع لم يحفل العرب بالإسلام ، كما لم يحفلوا من قبل بأى دين من الأديان السماوية الأخرى، ولم يحاولوا فهم قوانينه، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء ؛ حيث نعرف قسوة الحياة فى البادية وقلة الماء . وإهمال العرب للإسلام ظهر فى حياة النبى نفسه ، فهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة[1] ، وكلاهما من تعاليم الإسلام وأركانه . وقد قدّر القرآن هذه الطبيعة العربية فى مجافاة الدين، وعدم الإحتفال به ، بقوله : ﴿قالت الأعرابُ آمنّا قلْ لمْ تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخلِ الإيمانُ فى قلوبكمْ ٤٩:١٤﴾ . ولا ريب أن النبى نفسه تعب من استهتار العرب بالدين، وعدم ميلهم إليه ؛ فوصف القرآن العرب بالعبارة الآتية : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً ٩:٩٧﴾ . لذلك كانت العرب فى ذلك الوقت تُتّهم بإسلامها[2] .

وحتى قبل موت النبى لم تتردد روح الإنفصال عن الظهور[3] ، وإن كانت البواعث الدينية لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً . فقد كان عرب الجزيرة يطلبون الفكاك من سيطرة المدينة؛ حيث أن روح الإسلام لم تكن وصلت بعد إلى قلوب القبائل؛ ولكى تقطع صلتها بالمدينة منعت الزكاة التى سماها بعض العرب «أتاوة[4]» ، والتفوا حول زعماء من قبائلهم أدعو « النبوة[5] » ، وهؤلاء كانوا يدعون إلى نقض نفوذ المدينة والإسلام باسم «الله[6] » و « الوحى » ، وليس باسم آلهة العرب

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٢ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٤ .
(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٧٠ س ١٠ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٨ ؛ انظر بعده .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٣٨ .
(٥) أنظر . بعده .
(٦) ابن الأثير ، ٢ ص ٢٣٢ س ١١ ، ٢٤٢ .

القديمة ؛ كما حاولوا أن يقلّدوا القرآن فى عباراتهم الدينية[1] . ويعرّف ابن خلدون [2] « التنبؤ » بأنه من خواص النفس الإنسانية ، ومرتبة من مراتب إدراك الغيب ، وأنه انسلاخ إلى الروحانية بالفطرة ، وقد تصحبه الخوارق ، وهى الأفعال التى يعجز البشر عن فعلها : ولذلك كان التنبؤ أعلى مرتبة من الكهانة ، التى تُنال بالاكتساب والاستعانة بالمدارك والتصورات . ويبدو أن بعض العرب كانت تسعى إلى التنبؤ ، وأنه لم يكن غريباً عنها حتى قبل الإسلام : فمثلاً كان الشاعر أمية بن أبى الصلت يطمع فى النبوة ويسعى لها[3] – وإن كنا لا نعرف وسائل الحصول عليها ، وإن أعتبرت عندهم من الفراسة أو الشعور بالبعيد [4] – كذلك كان عبد المطلب – جد النبى – يأتيه فى المنام آت يكلمه عن حفر بئر زمزم[5] ، بل إن التنبؤ بالأمور كان يشمل الأحبار اليهود والرهبان النصارى فى الجزيرة ، الذين تحدثوا بأمر النبى قبل مجيئه [6] . ولكن بعد محمد مُنع التنبؤ ، فهو – كما ورد فى القرآن[7] – خاتم النبيين ؛ كما مُنعت الكهانة أيضاً [8] . ولذلك وجدنا أن من يدّعى النبوة يسمى : « بالكذاب[9] » ، وربما كان تصغير اسمه لتحقير شأنه .

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٤٤٢ (آخر الصفحة) .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٢ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ص ٨١ .
(٤) نفسه ، ص ٨٧ . لعلها فى وقتنا ما يعبر عنه بكلمة (Telepathy) .
(٥) ابن هشام ، ١ ص ٩١ — ٩٤ .
(٦) نفسه ، ١ ص ١٢٩ .
(٧) القرآن ٣٣ : ٤٠ .
(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ .
(٩) أطلق النبى هذه الكلمة على « مسيلمة » ، الذى ادعى النبوة . أنظر . ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٤ — ٩٦٥ . أصبح التنبؤ فى عهد العباسيين من الفكاهات والنوادر . النويرى ، ٤ ص ١٤ — ١٦ .

قصارى القول كفرت عامة العرب ، واندلع العصيان فى كل مكان ، وأصبح المرتدون حرباً على من يبقى على إسلامه [١] . وقد أخذ أبو بكر على عاتقه أن يحارب أهل الردة ، فقد كان فى رأيه : أنه لا يجوز أن يهادنوا أو يصالحوا [٢] ، أو حتى يُتساهل معهم فى بعض أمور الدين ؛ وإلا انقض بناء الإسلام ركناً ركنا . وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية : بأن أرسل رسله بكتب مفتوحة إلى المرتدين ، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده والبيعة له ، وإلا فالحرب [٣] .

ولكى يظهر أبو بكر تصميمه على ذلك خرج إلى ذى القصة [٤] — وهى قرب المدينة — ليوجه منها الزحوف [٥] إلى أهل الردة ، فخرجت إليه بعض قبائل البدو على رأسها عبس وذبيان وغطفان فقاتلها وهزمها [٦] ، فهربت فلولها إلى قبيلة أسد فى « عين بُزاخة [٧] » — قرب مكة — التى كان فيها رجل اسمه طليحة بن خويلد الأسدى ، كان قد ادعى النبوة فى عهد النبى ، وسخر من تأدية المسلمين الصلاة ، وأمرهم بترك السجود وعبادة الله وقوفاً ؛ وكان يدّعى أن جبريل ينزل عليه ، وكان يقول السجع .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣١ س ٢٣ .

(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ١٠٧ — ١٠٩ ؛ رفيق العظم ، كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، الطبعة الثالثة ، ١ ص ١٠٩ — ١١١ .

(٤) بفتح القاف والصاد المهملة . عنها : ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ١١٤ .

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ٩٥ س ١٠ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٢ وما بعدها .

(٧) بضم الباء . عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

بعد هذا النصر الأول وجه أبو بكر من ذى القصّة الزحوف إلى أهل الردة بقيادة أحد عشر قائداً [١] ، بعد أن منحهم عهود قتال المرتدين [٢] . ونحن لا نستطيع أن نتتبع خطة سير كل واحد منهم — وإن كنّا نعرفهم بأسمائهم — ولكن لا ريب أن أكبر المساهمين فيها : خالد بن الوليد ، وهو الشخصية المعروفة ببطشها ، والتى ظهرت أول ما ظهرت فى غزوة أحد التى انكسر فيها المسلمون ، ثم دخل الإسلام وعُرف بشجاعته ومكيدته فى فتح مكة ، وموقعة مؤتة ، التى انقطع فيها فى يده تسعة أسياف ، حتى لقّبه النبى « سيف الله » . [٣] ويُوصف خالد [٤] ، بأنه كان رجلاً مهيباً ضخماً ، بعيد المناكب ، واسع الهيكل ، يُعتبر من القواد الأفذاذ الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل . وقد قال أبو بكر لخالد قبل أن يغادر ذى القصّة لحرب أهل الردة : « إحرص على الموت توهب لك الحياة [٥] » .

خرج خالد من ذى القصّة نحو « عين بُزاخة » ليقضى على بقايا غطفان وعبس وذبيان ، ومن انضم إليهم من أسد وفزارة ، ففرّق جمعهم ، وهرب طليحة عند قبيلة كلب فى الشام [٦] ، مع أنه هو الآخر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ س ٢ ـ بعامة ، انظر ، أبو يزيد وثيمة الوشاء ، كتاب الردة ، مأخوذ من كتاب « الإصابة لابن حجر العسقلانى ، تحقيق وترجمة Hoenerbach ، ١٩٥١ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ١٨٨٤—١٨٨٥ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٢٠٩—٢١٠ ؛ هيكل ، الصديق ، ص ١٤٧ .

(٣) البخارى ، طبعة بولاق ١٣١٤ هـ ، ٥ ص ١٤٤ (المجلد الثانى) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٦٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Khâlid) 2, p. 930—931.

(٤) الأزدى ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٤ ، ص ١٧٧ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٤٢ .

(٥) الميدانى ، ٢ ص ٢٧٦ .

(٦) ابن الأثير ، ٢ ص ٢٣٥ ، فتوح البلدان ، ص ٩٩ ؛

معروفاً بشدة بأسه فى القتال[١] ، وعُرف هذا اليوم « بيوم بُزاخة »[٢]. وقد أسر طليحة فيما بعد ، وأرسل إلى المدينة وقبلت توبته ، وعاد إلى إسلامه ، وسيكون له شأن فى الفتوحات الإسلامية[٣].

بعد ذلك سار خالد إلى بلاد بنى عامر[٤] المجاورة، وهى تشمل البلاد الممتدة من شرق المدينة حتى الخليج العربى ، وكانت تسكنها قبائل بنو تميم وعشائرها من بنى حنظلة، وكان معظم هؤلاء من البدو . وكان النبى قد بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، وجعل زعيمهم مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة[٥]. ولكن بعد موت النبى نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام ، كان قد حجز الصدقة فقط ، حتى يصح عنده لمن الأمر ، ومن استخلفه النبى . ومن ناحية أخرى كانت هناك امرأة ذات شخصية غير واضحة اسمها « سَجَاح »[٦]، نشأت فى قبيلة تغلب النصرانية الموجودة فى الشمال قرب منطقة الجزيرة (مسبوتاميا) ، وقد أقبلت عند قومها من بنى تميم ، الذين التفوا حولها . ومع أنها لم تدع النبوة إلا أنها تكهنت على حسب ما كان معروفاً فى الجاهلية . ونحن لا نعرف قصد سجاح منذ مجيئها إلى بلاد بنى عامر ، وجمع القبائل حولها ،

---

(١) الذهبى ، دول الإسلام ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ ، ١ ص ٦ .

(٢) الميدانى ، ٢ ص ٣٧١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ . شهد القادسية ونهاوند مع المسلمين ، واستشهد فى سنة ٢١ هـ . أنظر . الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ٦ ؛ أبو الفضائل والبجاله ، أيام العرب فى الإسلام ، ص ١٤٣ هامش (١) .

(٤) فتوح البلدان، ص ٩٧ — ٩٨ . عنهم، انظر . Ency. de l'Isl, (art Banû 'Amir), 2ed tl. , p. 440.

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٥ س ٦ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٩٩ . ولكن ابن الأثير يقول إنها ادعت النبوة . الكامل ، ٢ ص ٢٣٩ س ١٥ .

فلعلها كانت تريد أن تدافع عن قومها بالتعاون مع مالك بن نويرة ضد نفوذ المدينة الطاغي ، ولعلها فى سبيل ذلك ذهبت أيضاً إلى بلاد اليمامة التى تجاور بلاد بنى عامر ، لتستعين بهم كذلك . على كل حال انقطعت أخبار سجاح فجأة ، فلم نعد نسمع عنها شيئاً ، فلعلها عادت إلى بنى تغلب فى الجزيرة وماتت عندهم ، أو أنها أسلمت ثم انتقلت إلى البصرة ، وعاشت حتى زمن معاوية .مهما يكن فإن خالداً سار نحو بلاد بنى عامر ليقاتل فيها المرتدين ، فهزم العشائر التى قاومته ، وبعث فيهم الرعب ، كما قتل مالك بن نويرة مع استسلامه هو وبنى حنظلة ، وتزوج امرأته الجميلة[١] . ولكن ـ ولا ريب ـ أن الذى جعل خالداً يُقدم على ذلك، هو أن منع الصدقة كان يُعتبر ردة ، وأن هذه الردة كانت تُبطل المناكحات بارتداد أحد الزوجين[٢] .

ثم سار خالد إلى أرض اليمامة[٣] ،وهى بلاد واسعة تمتد حتى الخليج العربى (الفارسى)، تسكنها قبائل عديدة من ربيعة، أقواها بنو حنيفة[٤]، المعروفة بكثرة عددها ، وشدة بأسها ، وكثرة وقائعها . وقد ظهر فيها فى حياة النبي رجل يسميه المسلمون « مسيلمة[٥] »، ربما تصغيراً واستهزاءً ، وقد شهد له رجال بأنه رسول الله ، وأنه يناجى ربه وينزل عليه ملك بآيات مثل القرآن[٦] ؛

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٧٠ .

(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ٤٧ س ٥ — ٦ .

(٣) هى قريبة من البحرين . معجم البلدان ، ٨ ص ٥١٥ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل، ٢ص ٢٤٣ وما بعدها ؛ كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٩٤٩ ، ١ ص ٣١٢ و٣١٣ .

(٥) عنه ، انظر . الجاحظ ، الحيوان ، ٤ ص ٣٦٩—٣٧٣ .

(٦) السيوطي ، الإتقان ، ٢ ص ٢٠٧ .

بل أنه كان يعرف فى السحر والنجوم، ويأتى بالمعجزات[١]. ويظهر أن مسيلمة كان كاهناً يدرك الأمور قبل وقوعها، مما جعله يظن أنه يتنبأ واستمر فى عناده[٢]. وقد دعا مسيلمة إلى نفسه، وكان يطوف فى الأسواق والبلدان، حيث يلتقى فيها الناس للبيع والشراء، مثل[٣]: الأبُلّة والأنبار والحيرة لنشر الدعوة؛ كما أنه كتب إلى النبي محمد ليشاركه فى رسالته وفى ملكية نصف الأرض[٤]، ولكن محمداً رد عليه بقوله إن الأرض يورثها الله من يشاء من عباده[٥]. وكان دين مسيلمة يشتمل على بعض مبادىء الإسلام كإقامة الصلاة وإن جعلها ثلاث صلوات بدلاً من خمس بحذف صلاة الفجر والعشاء[٦]، وأيضاً تنفيذ الشرائع من قطع الأيدى والأرجل[٧]؛ وإن دخلت دعوته عقائد نصرانية ومجوسية[٨]: فدعا إلى الزهد والصوم، والامتناع عن شرب الخمر والتقشف. وكان مسيلمة ذا شخصية قوية يسيطر على أتباعه، مع أنه كان قصيراً شديد الصفرة أفطس الأنف، يلبس ملابس البدو المهلهلة[٩].

وقد جمع مسيلمة جيشاً كبيراً عدده أربعون ألفاً[١٠]، وتمكن به قبل وصول

---

(١) فمثلاً: وضع بيضة فى قارورة ضيقة العنق دون أن تكسر. الحيوان، أنظر.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٨١ س ٢٠.

(٣) الأبله بلد على شاطىء دجلة، فى زاوية الخليج العربى (ياقوت، معجم البلدان، ١ ص ٨٩). والأنبار مدينة على الفرات (نفسه، ١ ص ٣٤١). والحيرة مدينة قرب الكوفة. نفسه، ص ٣٧٦.

(٤) ابن هشام، ٢ ص ٩٦٥؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ١٧٨؛ عبد المنعم خالد، رسالات نبوية، طبعة الهند ١٣٤٦ هـ، عدد (٩٣).

(٥) صبح الأعشى، ٦ ص ٣٨١؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ١٧٩.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٤١ س ١٠.

(٧) فتوح البلدان، ص ٨٩.

(٨) عن هذه الكلمة، انظر. بعده.

(٩) فتوح البلدان، ص ٩٠ س ١٧ — ١٨؛ انظر. هيكل، الصديق، ص ١٦٦.

(١٠) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٤٤ س ١٠.

خالد من هزيمة جيش صغير للمسلمين مُرسل من المدينة بقيادة عكرمة بن أبي جهل[١] — أحد قواد الردة البارزين — وقد حفزه هذا النجاح إلى التقدم نحو الشمال؛ ليقابل الجيش الذي كان يقوده خالد بن الوليد. فتقابل جيش مسيلمة مع جيش خالد بمكان من الصحراء في طرف اليمامة يسمى «عَقْرَبَاء»[٢]، واشتبكا في معركة فاصلة، لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً من قبل، حيث كان القتال فيها قتالاً بسبب الكبرياء. فقسّم خالد جيشه إلى أقسام أو «رايات» من المهاجرين والأنصار وغيرهم من مسلمي البوادي، كما كان أهل اليمامة يذودون عن «أحسابهم» ونسائهم اللاتي صحبن الرجال في القتال على عادة العرب. وقد اضطر المسلمون إلى التقهقر في أول الأمر أمام جيش مسيلمة، ولكن بفضل قيادة خالد الماهرة تمكن المسلمون من كبح جماح عدوهم. ولما أيقن مسيلمة بالهزيمة أسرع في الإنسحاب إلى ريف اليمامة المزروع[٤] ليتحصن بداخله، ولكن المسلمين تبعوه واشتبكوا في مذبحة هائلة، مُنى الطرفان فيها بخسائر فادحة، فقتل مسيلمة وعشرة آلاف من أتباعه، كما قُتل كثير من وجوه المسلمين وقرّاء القرآن، بحيث سُمى هذا المكان الذي دارت فيه المعركة «بحديقة الموت»، وسُمى يوم المعركة «بيوم اليمامة[٥]»، نظراً لأهمية المعركة التي دارت رحاها. أما بقية أنصار مسيلمة الذين هربوا والتجأوا

---

(١) هو ابن أبي جهل — عدو النبي — الذي قتل ببدر، أسلم بعد الفتح، وقيل لما وفد على النبي بعد فتح مكة داخلاً في الإسلام، قام النبي فرحاً به، وقيل لم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، لرجل داخل عليه من الناس شريف أو معروف إلا عكرمة، وهو بعد شرك ولم يسلم، وقتل عكرمة يوم اليرموك. المعارف، ص ١٧٠؛ الكامل، ٢ ص ٤٩، ٨٨.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ١٩٣ — ٤.

(٣) فتوح البلدان، ص ٨٩.

(٤) هو المنطقة المزروعة من اليمامة. ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ١٩٤.

(٥) الميداني، ٢ ص ٢٦١.

إلى الحصون ، فإنهم أنقذوا حياتهم بالتسليم . وبذلك كُسرت شوكة بني حنيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمنا غالياً .

بعد ذلك اتجه خالد إلى البحرين[١] على الخليج العربي ؛ ليخلّص عامل المدينة العلاء بن عماد الحضرمي ، الذي حاصرته القبائل المرتدة في مدينة « هَجَر » ، قصبة البحرين ، وإحدى أسواق العرب المشهورة[٢] . وكان سكان البحرين معظمهم من عناصر الفرس واليهود والنصارى ، الذين يسكنون الساحل ، ومن بدو العرب من قبائل عبد القيس من ربيعة وبكر وتميم داخل البلاد . ومع أن هذه البلاد كانت من مملكة فارس ، إلا أن النبي دعاها إلى الإسلام[٣] ، وأرسل إليها عماله ومعهم العلاء لجمع الصدقات ولنشر الدين . ويبدو من الكتب المتبادلة بين النبي وزعماء العرب من سكان البحرين أنهم قبلوا الإسلام . كما أخذ الصدقة من مجوس هجر ؛ بل وأرسلوا وفداً منهم إلى المدينة[٤] . ولكن ارتدت العرب بعد موت النبي[٥] ، وإن بقي بعضهم مسلماً ، وقد تزعم طائفة من المرتدين النعمان ابن المنذر أو فقط المنذر ، ولعله من سلالة ملوك الحيرة ، أما أغلبيتهم فإنها ارتدت برئاسة رجل اسمه « الحُطم[٦] » . فسار المسلمون إليهم بقيادة العلاء عامل النبي ، فهزمه الحُطم والجأه إلى حصن مدينة « هجر » ، إلى أن جاء خالد من اليمامة فقتل « الحُطم » ، ودخل « هجر » وأنقذ العلاء ؛ ثم غادرها أي « هجر » بعد ذلك إلى العراق . وبقي العلاء في البحرين وهاجم المنذر الذي هرب بعد هزيمة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٢ — ٧٦ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ .

(٣) ابن سعد ، ١/٢ ص ١٩ ، ٢٧ـ٢٨ ؛ انظر ، مجموعة الوثائق ، ص ٥٦ـ٦٤ .

(٤) ابن سعد ، ٢/١ ص ١٩ ، ٥٤ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٨٣ـ٨٥ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٤٩ـ٢٥٢ ؛ أبو الفضل البجاوي ، أيام العرب في الإسلام ، ص ٢٧٧ ؛ انظر . Annali dell' Isl. 8, 185.:Caetani

(٦) الحطم في اللغة القليل الرحمة ، وهو من الحطم وهو الكسر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٩٧ .

الحُطَم إلى الحصن المسمى «جُوَاثاء[١]» ، فهزم العلاء المنذر وقتله، وعُرف ذلك اليوم «بيوم جُوَاثاء» .

أما عُمان[٢]، وهي تقع شرقي البحرين، فإن أبا بكر وجه إليها عِكرمة ابن أبي جهل بعد هزيمته على يد مسيلمة[٣] . وكانت عُمان بلاداً كثيرة تسكنها على الخصوص قبيلة الأزد، التي هاجرت إليها من اليمن. وكان النبي قد بعث بكتبه[٤] إلى شيوخها من أسرة «الجُلَندى» — ملوك عُمان في الجاهلية — بل وجاء وفد[٥] منهم إلى المدينة، وأرسل إليهم أحد رجاله ليأخذ صدقة أعيانهم. ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الإسلام بعد موت النبي[٦] ، والتفت حول زعيمها المسمى «ذي التاج» ، فقتل عكرمة هذا الزعيم ، وعدداً كبيراً من المرتدين ودخل «دَبا[٧]» ، قصبة عُمان ، وهي سوق من أسواق العرب الهامة.

بعد ذلك انتقل عِكرمة إلى بلاد جنوب الجزيرة : الشِحر[٨] وحضرَموت[٩] واليمن[١٠]، وهي بلاد واسعة بحذاء بحر الهند، وكانت اليمن منها على الخصوص خاضعة لنفوذ الفرس منذ أن طرد منها الأحباش، وإن كان

---

(١) عنها ، انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص ١٥٥. وهي تقع في البحرين أيضاً.
(٢) نفسه ، ٦ ص ٢١٥ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ س ٣ .
(٤) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٨٠ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٦٩ .
(٥) ابن سعد ، ١/٢ ص ٨٠ — ٨١ .
(٦) البلاذري، فتوح، ص ٧٦ — ٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ؛ انظر ، كحالة ، معجم قبائل العرب ، ١ ص ١٦ — ١٧.
(٧) عنها ، انظر. ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٤٠ — ٤١ .
(٨) تقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. ياقوت، معجم البلدان، ٥ ص ٢٤٠.
(٩) أنظر . قبله .
(١٠) أنظر قبله .

الفرس - قبل الإسلام - قد تركوها وشأنها؛ بسبب انشغالهم بحروبهم مع بيزنطة ومشاغلهم الداخلية ، وبقى لهم فى « صنعاء » - عاصمة اليمن - نفوذ اسمى ، يتمثل فى شخص الحاكم الفارسى « باذان[١] » . وقد أصبح يسكن جنوب الجزيرة قبائل[٢] البدو من : طيئ وخولان وكندة ومراد وحمير ومذحج وهمدان ، وهى القبائل التى حلت مكان الشعوب المعينية والسبئية والحميرية ، كما كانت تسكنها طائفة « الأبناء » ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسى الذى أرسل لطرد الحبش . وبظهور الإسلام أرسلت القبائل البدوية فى جنوب الجزيرة وفودها العديدة للنبى[٣] ، وقبلت الإسلام ، ورضيت بدفع الزكاة ، كمعظم قبائل شبه الجزيرة . كذلك أسلمت فى ذلك الوقت طائفة « الأبناء » ، وعلى رأسهم « باذان »[٤] ، الذى قبل أن يكون نائب النبى فى « صنعاء » ، واستمر على ذلك إلى أن مات . ولم يمض وقت قليل حتى كان عمال النبى قد انبثوا فى كل مناطق جنوب الجزيرة فى اليمن وحضرموت على الخصوص ، ينظمون جباية الصدقة ، ويقومون بنشر العدل والدين ؛ كما بعث النبى إلى اليمن باثنين من كبار الصحابة هما[٥] : علىّ بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، ولعل ذلك لتنظيم هذا القطر الغنى بالزراعة والتجارة .

على كل حال لما ارتدت قبائل جنوب الجزيرة ؛ لتتخلص من نفوذ المدينة نجد أن عِكرمة بعد عُمان يتجه إلى منطقة « الشحر[٦] » ، ليقضى على من ارتدوا حتى يظفر بهم . ثم توجه بعد ذلك إلى صقع حضرموت ؛ وكان على رأس المرتدين

(١) أنظر . قبله ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٥ . فى البلاذرى « باذام » . فتوح ، ص ١٠٥ .
(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٥٩ وما يليها .
(٣) نفسه ، ١/٢ ص ٥٩ ، ٦٦ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٩٦١ — ٩٦٣ .
(٤) الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٧ وما بعدها .
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٩٩ .
(٦) البلاذرى ، فتوح ، ٧٧ . ابن الأثير يقول مهرة (أنظر ، الكامل ، ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣) ، ولعلها قبيلة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٢١١) ، تسكن بين عمان واليمن ، فى منطقة الشحر .

فيها من قبائل كندة شخص اسمه الأشعث بن قيس ، كان قد جامع وفد بلاده إلى النبي [١]. وقد ساعد عكرمة أحد عمال حضرموت من قبل النبي [٢]، وهو زياد بن لبيد البياضي ، في القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم، فحصرهم عكرمة وزياد بن لبيد حتى جهدوا [٣] ، وتمكن المسلمون من فتح الحصن ، وأسر الأشعث بن قيس [٤]، الذى أرسل إلى أبى بكر وقبلت توبته ، وتزوج فيما بعد بأخت الخليفة « أم فروة » .

أما فى اليمن ففى حياة النبي ظهر شخص من قبيلة مذحج – كان أول من ادعى النبوة – اسمه عبهلة بن كعب وهو الأسود العنسى [٥] ، وقد استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمن ، وطرد عمال النبي منها، ثم دخل « صنعاء » وقتل « شهر بن باذن » ، وأكره زوجته « آزاد » على الزواج منه، كما سيطر على « نجران [٦] » ، الواقعة على حافة بلاد الحجاز الجنوبية ، وكانت تدفع الجزية للنبي بمقتضى عهد بينها وبينه [٧]. وكان العنسى كغيره من المتنبئين يدعى إدراك الغيب، ويستعين فى سبيل ذلك بحمار [٨] « معلم »

---

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٥٣ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٦٩٥ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٤ .

شهد بعد ذلك موقعتى اليرموك والقادسية ، وكان ممن ألزم علياً بالتحكيم ، وتوفى سنة ٤٠ هـ. أنظر . المعارف ، ص ١٧٠ ؛ وبعده .

(٥) أنظر . البلاذرى ، فتوح، ص ١٠٥ ومابعدها؛ الكامل، ٢ص ٣٢٧ وما بعدها. تقرأ فى النص «عيهلة بن كعب»، ولكنى أقرأها «عبهلة» مفرد «عباهلة» ، وهى صيغة تعنى أميراً أو سلطاناً قاهراً (اللسان، ١٣ ص ٤٤٩) ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، شرح الألفاظ، ص ٣٣٤)، وخصوصاً أنه كان يسمى أيضاً «الأسود بن كعب»، لسواد لونه كصفة دالة عليه .

(٦) عنها، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٢٥٩ .

(٧) البلاذرى، فتوح، ص ٦٨؛ تاريخ النسطوريين (P.O.) ١٣ ص٦ ؛ انظر. مجموعة الوثائق ، ص ٨٠ وما يليها .

(٨) فى بعض المصادر الأخرى ، تلقب « بذى الخمار » ، ولعل ذلك بسبب أنه كان دائماً يتغطى بثوب، أو لانكبابه على شرب الخمر. الكامل، ٢ ص ٢٢٧ ص ١٥ ؛ المصباح المنير، ١ص ٢٨٠ ؛ انظر . هيكل، الصديق أبو بكر، ص ٨٦ .

فسمي : « بذى الحمار » ، كما سمى نفسه باسم مبهم : « رحمان اليمن [١] » .
ولكي يزيد الأسود العنسي من التفاف قبائل اليمن حوله استذل الأبناء ، وهي الطبقة الأرستقراطية التي كان معظمها من سلالة الفرس ، الذين كانوا يسيطرون في البلاد . وقد استطاع النبي في حياته أن يقضي على ردة الأسود العنسي بتأليب : القبائل التي لم تكن ارتدت من حمير وهمدان [٢] ، أو باستمالة أهل نجران النصارى [٣] ، الذين كانوا احلفاء النبي ، وأيضاً طبقة الأبناء المسلمين [٤] . وبفضل هذا تمكن عمال النبي من تدبير مؤامرة في صنعاء ساعدتهم عليها امرأة شهر الفارسية « آزاد » ، التي كانت تحقد على الأسود قتل زوجها فذبح الأسود العنسي ذبح الشاة وهو نائم ، بحيث أنه كان يخور خوار الثور ؛ وكان قتل الأسود العنسي قبل وفاة النبي بأيام . وبذلك عادت اليمن إلى طاعته ، وأرسل أهل نجران وفداً ، فجدد أبو بكر [٥] لهم العهد الذى عقدوه مع النبي . وقد ارتدت بعض القبائل من حمير في عهد أبي بكر ، فكان عكرمة [٦] ، أكبر مساعد على القضاء على هذا التمرد بعد مجيئه من حضرموت .

أما شمال الحجاز فنعرف أن قبائل عديدة كان تسكن تخوم الشام ، مثل : جذام وكلب [٧] وقضاعة وطيء [٨] ، وعنزة وبلي [٩] ؛ وأن هذه القبائل كان أغلبها

---

(١) الرحمن هو الله وإن كانت هذه الكلمة على ما يظهر غير حجازية ، بحيث أن العرب في الحجاز اعتبروها دخيلة . انظر Ency. de l'Isl. I, p. 306 . كذلك قد يكون « الرحمان » أيضاً : إلهاً في اليمن قبل الإسلام . أنظر Nöldeke : Gesch. des. Qorâns, p. 92—93; n (1) ؛ هيكل ، الصديق ، ص ٨٨ هامش (١) .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٣٠ س ٣ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٢٩ س ٤ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٠٦ .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٢٥٤—٢٥٥ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ٢٦٠ .

(٧) سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ٢ ص ١٣ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣١—٢٣٤ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ١٥٦ س ١٥—١٦ .

من النصارى [١] وبعضها من اليهود [٢]، بل إن من كانت منها بِدُومَة الجندل — وهى إحدى الأسواق [٣] الهامة لعرب الشمال — كانت تعترف للبيزنطيين بالسيطرة [٤]. وقد ذهب النبي إلى هذه القبائل بنفسه فى غزوة « تبوك »، ولعله أراد أن يشعرها بوجود الإسلام : وقد أمضى النبي معها معاهدات، كما أنها أرسلت وفودها إلى المدينة [٦]: ومن الكتب المتبادلة بين النبي وبعض القبائل، نعرف أن بعضها أسلم [٧]. بل إن النبي كان قد أرسل خالد بن الوليد إلى دُومة الجَنْدل ليهدم أصنامها [٨]، مما يدل على وجود وثنيين فى هذه المنطقة بجانب المسيحيين . ولكن هذه القبائل الشمالية مثل غيرها من قبائل الجزيرة قلبت ظهر المجن للمدينة وارتدت [٩]، ولعل ذلك كان قبل وفاة النبي ، الذى جهز بعثاً بقيادة أسامة بن زيد إلى الشمال [١٠]. وعلى الرغم من حاجة المدينة إلى جميع من فيها للدفاع عنها ضد القبائل التى أخذت تهجم عليها ، فإن أبا بكر صمم على إرسال البعث [١١] ، ولعل سبب ذلك قد يكون رغبته فى تنفيذ إرادة النبي ، أو التمويه على قبائل العرب بقوة المدينة، وأيضاً القضاء على حركة الارتداد ، وخصوصاً أن هذه المنطقة الهامة كانت منفذاً لتجارة الحجاز . وإن كنا نجهل ما قام به البعث وغايته ومدى نجاحه ، إلا أنه يبدو أنه لم ينجح فى القضاء على حركة الارتداد فى شمال الحجاز ، بدليل أن أبا بكر أرسل نحو

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ س ٥ .
(٢) ابن سعد ، ١/٢ ص ٣٨ .
(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ .
(٤) المسعودى ، التنبيه ، ص ٢١٥ ؛ انظر . La Lutte, p. 21. : Cheira
(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٠٢ — ٩٠٤ ؛ انظر . قبله .
(٦) ابن سعد ، ١/٢ ص ٤٤ ، ٦٦ — ٦٨ .
(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦١ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ١٦٧ وما بعدها .
(٨) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦١ . كانوا يعبدون ود . ابن هشام ، ١ ص ٥٢؛ الأصنام ، ص ١٠ س ٣ ؛ انظر . قبله .
(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٢ .
(١٠) ابن هشام، ٢ ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧ ؛ انظر . هيكل ، الصديق، ص ١٠١ .
(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٦ س ١١ ، ٢٢٧ س ١٠ — ١٣ .

المرتدين قواداً آخرين ، مثل : عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة نحو قضاعة(١) . كما أن خالداً حينما [illegible] لعراق إلى الشام استولى في طريقه على دومة الجندل من جديد(٢)، التي [illegible] كون آخر من سلم لنفوذ المدينة.

كل هذه الحملات التي وجهت نحو المرتدين في أنحاء الجزيرة انتهت بنجاح ، وساعد على ذلك عدم اتحاد القبائل المرتدة في حلف واحد، بسبب طبيعتها البدوية التي لم يكن من الممكن أن تتخلص من العصبية؛ وذلك على عكس الأمة الإسلامية الواحدة ، التي تربطها صلة الدين وذكريات الجهاد في سبيله . فانتهز أبو بكر هذه التفرقة وطحنهم قبيلة قبيلة، معتمداً على قواد مهرة . هذا فضلاً عما امتاز به هذا العجوز المحنك وقواده من الحزم والتصميم في قتال المرتدين(٣) : وذلك بحرقهم بالنار ، وقطع أيدى وأرجل بعض النساء المرتدات ، والرجم بالحجارة ، ورميهم من الجبال ، وتنكيسهم في الآبار ، وتخزيقهم بالنبال ؛ وحتى بسبي النساء والذرارى . وكانت نتيجة ذلك أن بسطت المدينة سيطرتها على ربوع الجزيرة العربية؛ ولذا كانت هذه الجزيرة في عهد أبي بكر تعتبر بحق وحدة سياسية لا تتخللها جيوب المقاومة ، وهي الوحدة التي تكونت لأول مرة في تاريخ الجزيرة القديم ، بحيث تحول العرب إلى اتباع زعيم واحد يسيرون خلفه. وكان انتصار أبي بكر على المرتدين هو انتصار الإسلام على الشعور القبلي ، ومعناه أيضاً أن نشرت صفحة جديدة في تاريخ العرب.

---

(١) الطبرى (Annales) ١: ١٨٨٠، ١٢-٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٣٤ س ٩؛ انظر .La Lutte, p. 28. ; Cheira ! Ann dell'Islam 12 no. 367 ! Caetani من عمرو بن العاص، انظر، قبله. شرحبيل هو منسوب إلى أمه. أنظر، المارقشه س ١٦٥.

(٢) البلاذرى ، فتوح ، س ٦٢ .

(٣) الكامل، ٢ ص ٢٢٦ س ١٨-١٩؛ البلاذرى، فتوح، س ١٠٢ س ١١-١٢.

هذه القوة العربية التى أوجدها ووحدها تصميم أبى بكر سرعان ما انتشرت على الأرض ، واستطاعت فى سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين[١] والفرس[٢] ، وهما أكبر دول العالم آنئذ، بسرعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل،وأصبح لقب « خليفة » يفوق لقب « Imperator[٣] » البيزنطى ، فما السر فى ذلك ؟ .

فلعل ذلك راجع إلى أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين ـ وهم ورثة الرومان ـ فى شمال الجزيرة العربية، والفرس فى شرقها، كانا قادرين فى أيام قوتهما أن يحجزوا العرب فى بلادهم. ولكن الخصومة الشديدة التى كانت بينهما قد أدت إلى ضعفهما . وهذه الخصومة بين الفرس وكل من يسود فى منطقة البحر الأبيض قد تأصلت بينهما منذ قديم الزمان، وكأنها عداء طبيعى بين الشرق والغرب . فظهرت بين دول الفرس : الأكمينيين[٤] ، والبارثيين[٥] ،

---

(١) تنسب هذه الدولة إلى مدينة بيزنطة القديمة، التى أنشأها اليونان ق ٦٥٢ ق م.، قرب البسفور، وهى التى اتخذت اسم القسطنطينية منذ ٣٢٦م، نسبة إلى قسطنطين (Constantinus)، مؤسس الدولة الرومانية المسيحية فى الشرق ، بعد أن زالت دولة الرومان الوثنية نتيجة لهجات المتبربرين . أنظر . Runciman : La Civilisation byzantine 330—1453, trad. Lévy. Paris, 1952, p. 9—14.

ولكن هذه الدولة كانت تعرف للعرب باسم دولة «الروم» . القرآن ٣٠ : ١ ؛ الأزدى ، الشام ، طبعة كلكتا ١٨٥٤ ، ص ٣٠ ؛ وبعده.

(٢) أنظر ما يلى .

(٣) تقصد بهذا اللقب هنا ملك على عدة بلاد ؛ وإن كان أصله من كلمة «Imperium» ، بمعنى السلطة . أنظر . Homo : Raman Polilical Institutions. London, 1929, p. 217 ; 220.

عن معنى هذه الكلمة، انظر . عبد اللطيف، روما، القاهرة، ص ٧١ وما بعدها .

(٤) سعيد بن بطريق، ١ ص ٧٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٣ س ١٠ وهى تسمى أيضاً الكيانية، وهو اسم يونانى محرف عن الاسم الأصلى: هخامنشية (أى الدولة النظيمة) ، وهذه الدولة حكمت فى إيران من ٥٥٨ ق.م.، إلى أن قضى عليها الإسكندر الأكبر حوالى ٣٣١ ق.م. Huart et Delaporte : L'Iran Antique, p. 345 sqq. ; Aymard : La civilisation iranienne. Paris, 1952, p. 48. وبعده

(٥) سميت بالبارثيين نسبة إلى السكان الذى ظهرت فيه ، وهو شرق إيران ، التى كان يعرف ببارت (خراسان الحالية) ؛ كما أنها سميت أيضاً بالأشكانيين أو بالأرشكانيين . وهذه الأخيرة نسبة إلى «أرشك»، مؤسس دولتهم، وقالوا إن هذا اللقب اتخذوه لأنفسهم لأنهم =

والساسانيين[١] من ناحية، وبين سكان المدن اليونانية والسلوقيين[٢] والرومان وأخيراً البيزنطيين من ناحية أخرى. وقبل ظهور الإسلام انتهز ملك فارس خسرو الأول المسمى أنوشروان (٥٣١ – ٥٨٩م)، حدوث نزاع بين عرب الحيرة وعرب الغساسنة[٣]، فهجم على أملاك البيزنطيين فى عهد الأمبراطور جستنيان[٤] (٥٢٧ -٥٦٥م)؛ فاستولى على أجزاء كثيرة من الشام والجزيرة[٥]، بحيث أنه استمر يحارب أكثر من أثنى عشر عاماً، فلما قل الرجال أدخل النساء فى الجيش[٦]. ولكن ما لبث أن دخل جيش بيزنطى بقيادة الأمبراطور موريس — يسميه العرب مورق[٧] — فى فارس، ليساعد أبرويز خسرو الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م)، الذى قتل والده هرمز الرابع[٨]، واستولى على العرش. ولكن بعد قتل موريس نجد خسرو الثانى يقلب

= يصلون نسبهم بالدولة الأكينية، فيقولون إنهم من سلالة أرشك بن أردشير الثانى (أنظر . حسن بيرنيا، إيران قديم، طهران ١٣١٣ هـ. ش، ص١٢١ وما بعدها؛ L'Iran Antique p. 321.) . ويسمى العرب البارثيين باسم دولة الطوائف ، لكثرة ملوكها ؛ وهى استمرت من ٢٤٧ ق.م إلى ٢٢٤ م. أنظر . اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٧٩ س ٤ — ٥؛ وبعده.

(١) نسبة إلى جد مؤسسها «أردشير»، واسمه ساسان، وكان من رجال الدين؛ وهى استمرت من ٢٢٤ م ، حتى مجىء الإسلام . أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٤٧ ؛ انظر . Civil. Iran, p. 120. : Grousset ؛Op. cit, p. 341 sqq. : H. et Del

(٢) هو اسم الأسرة أو الدولة التى تنسب إلى القائد اليونانى «Seleucos»، الذى حكم فى شمال الجزيرة، بعد موت الإسكندر الأكبر، واستمرت من ٣١٢ ق. م. إلى ٨٤ ق. م. أنظر. Grousset؛ Histoire des Lagides. Paris, 1934, p. 43. : Bevan: Civil. Iran, p. 88.

(٣) أنظر . الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، تحقيق Zotenberg ، ص ٦٠٥ — ٦٠٦ .

(٤) يسميه المؤرخون العرب أحياناً يخطيانيوس. اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٨٦ س١٢.

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٦ ؛ انظر . Op. cit, : H. et Del p. 354 sqq.

(٦) يذكر Essad Bey ذلك فى كتابه: Mahomet. Paris, 1948, p. 36 ؛ Op. cit, p. 354—5. : H. et Del.

(٧) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٩١ . اسمه باللاتينية هو Mauricius . أنظر. بل، مصر ، ص ٢٥٢ .

(٩) أنظر . Op. cit, p. 356—7. : H. et Del

للبيزنطين ظهر المجن، ويغزو في آسية الصغرى والجزيرة وسورية وفلسطين ومصر[١] ، وتبع ذلك هجوم الجيش البيزنطي لاستعادة المستعمرات المفقودة بقيادة هرقل[٢] (٦١٠ — ٦٤١ م) ، في سنة ٦٢٢م . وقد كان لهذا الصراع صدى في القرآن ، بحيث أنه لدينا سورة تسمى : « سورة الروم » ، ذُكر فيها غزو الفرس، والتنبؤ بغلبة الروم[٣] . فكأن هذه الخصومة قد رسمت للدولتين بيدها الهلاك[٤] ، بحيث أن الحاجز الشمالي والشرقي لم يجد مقاومة من جانب أمة العرب الفتية المتحدة على يد أبي بكر .

ولكننا لا نوافق بعض المستشرقين في قولهم[٥] : إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني ، وإن الحروب التي قاموا بها تعتبر حروباً دينية. فنحن لا نظن أن العرب — ومعظمهم من البدو — كانت تسودهم الروح الدينية، والرغبة في نشر الإسلام . فقد رأينا كيف ارتدت العرب، وأنهالم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف . ومهما تكن البواعث الدينية قوية عند الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين في المدينة ومكة ؛ فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوي — وهو الذي لا يهتم بالدين[٦] — لنشر الإسلام . كذلك جاء القرآن بنص صريح في حرية العقيدة: ﴿ لا إكراه في الدين ٢ : ٢٥٦ ﴾[٧] . ولإتمام هذه الحرية لم ينص على وجود طبقة كهنوتية ، كما جرى العرف منذ أن وُجدت الأديان ، فالإسلام دفع بالحرية

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ، طبعة مصر، ص ٤٠٦ وما بعدها؛ سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، ١ ص ٢١٦، ٢١٨ ؛ انظر. بل، مصر، ص ٢٠٤ .

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف ، تحقيق De Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٩٣ ، ص ١٤٧ ؛ انظر. بل، ص ٢٠٤؛ Seston : Civil. Iran, p. 137.

(٣) أنظر . سورة (٣٠) مكية .

(٤) أنظر . Gibbon Decline, 5, p. 207.

(٥) أنظر . Ivring : Lives of Mahomet and his Successors. Paris, 1840, p. 174.

(٦) أنظر . Caetani : Studi di Storia Orientale. Milano, 1911, 1. p. 365. sqq.

(٧) أنظر أيضاً القرآن ١٠ : ٩٩ .

الإنسانية خطوات . ولا ريب أن المسلمين الذين ذاقو الأمرين من الكفار في عقيدتهم ؛ لا يمكن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم؛ هذا بإضافة إلى أن الكتب التي كتبها النبي[١] ، أو قواد الفتوح مع غير المسلمين[٢] ، فيها تأمين على الحرية الدينيه . أما « الجهاد » الذي ورد في القرآن[٣] ، أو على لسان أبي بكر[٤] ، وأصبح عند بعض المذاهب ركناً من أركان الشريعة[٥] ، فهو لم يكن يعني في أي وقت غير الدفاع عن الإسلام ومحاربة أعدائه، وليس إطلاقاً تحويل الناس إلى الإسلام . بل على العكس جاء الإسلام في وقت ليس فيه حرية للعقيدة في كل أجزاء المعمورة ، بل اضطهاد وتعذيب؛ فقد كانت الدولة البيزنطية تفرض مذهبها الرسمي[٦] على أهالي مستعمراتها في سورية ومصر ، ومن لا يقبله لا يتعرض فقط للأذى، وإنما تنسب إليه تهمة الخروج على الدولة[٧]؛ بل إن هذه الدولة حينما اعتنقت المسيحيه بعد الرومان الوثنيين كانت تجبر اليهود في بيت المقدس على التنصر أو القتل[٨]. وحتى في فارس نجد أن الدولة الساسانية كانت تقاوم بالقتل والتعذيب كل حركة إصلاحية دينية[٩] .

(١) أنظر، مجموعة الوثائق، ص ٣٢ و٣٤ — ٣٦؛ وقبله.

(٢) مثلاً صلح خالد مع أهل الحيرة المسيحيين. أبو يوسف، الخراج، ص ٨٤؛ — ٥ انظر، مجموعة الوثائق، ص ٢١٨ — ٢٢٠؛ وبعده.

(٣) القرآن ٩ : ٨١ .

(٤) ابن هشام ؛ ٢ ص ١٠١٧ .

(٥) دعائم الإسلام، ١ ص ٣ ؛ انظر . Lammens : L'Islam. Beyrouth, 1941, p. 82.

(٦) تقصد به المذهب المعروف باسم « الملكاني » ، وهو مأخوذ من لفظة « ملك » ، ولعل أصل هذه التسمية سريانية . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة فريد أبي حديد ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٤ هامش (٢)؛ بل، مصر، ص ٢٢٨ هامش (١) .

(٧) أنظر . Thoumin : Histoire de Syrie, 2ed, p. 155.

(٨) سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، ١ ص ١٢٣ س ١ — ٢ .

(٩) فمثلاً قتل ماني ومزدك، وكلاهما كان من المصلحين الدينيين. أنظر. بعده .

ومع ذلك، فإن بعض الباحثين يرون أن الفتوح تفسر على أنها هجرة عربية[١]؛ وخصوصاً أنه سبق أن خرجت هجرات من داخل الجزيرة نحو المناطق الخصبة المحيطة بها، بحكم أن المناطق الخصبة تجذب البدو إليها، مثل: هجرة العاموريين والكنعانيين أو الفينيقيين والآراميين والعبرانيين والإسرائيليين[٢]؛ بحيث كانت شبه الجزيرة أشبه بمستودع للجنس السامي ينساب من حين إلى حين. وقد زاد من مصائب الجزيرة قبل ظهور الإسلام بعد قرون، اختلال نظم اليمن الزارعية، بحيث حدثت هجرات يمنية عديدة نحو بادية الشام والخليج العربي (الفارسي)، بعضها كان يخضع لفارس وبعضها الآخر للدول التي سادت في البحر الأبيض كاليونان والرومان وأخيراً البيزنطيين. ومع ذلك، فليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربي سببها الجفاف[٣] أو حتى الجوع[٤]. وإن كان البيزنطيون يظنون ذلك[٥]. كما أن المستشرق كيتاني «Caetani»، يميل إلى تفسير دوافعها الأولى بقصد الغارة[٦]. ونلفت هنا إلى قول أبي بكر لجيوشه؛ مما ينفي قصد الغارة: لا تخونوا، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا إمرأة ... ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً، ودعوا النساك في صوامعهم يتعبدون[٧].

كذلك لا نعتقد أن العرب حصلت على سلاح جديد أرادت تجربته، بحيث كان عاملاً حاسماً في حدوث الفتوح. فنحن نعرف أن الحرب عند العرب كانت فطريه؛ فكل قبيلة تحارب على حدة ملتفة حول زعيمها[٨]، حيث ينشرون راية[٩]

(١) أنظر: Caetani: Studi di Storia Orientale. Milano, 1911, 2, p. 831—861؛ أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى، الجيزة ١٩٤٧، ص ٤٢.

(٢) أنظر. Huzyyin: Arabia and the far east, p. 7.؛ Driot et Vand.: Les Peuples, p. 403 ; 421 ; 521.

(٣) أنظر. Huzyyin: Arabia, p. 7.

(٤) أنظر. O'Leary: Islam at the Cross roads. London, 1923. p.2.

(٥) الواقدى، فتوح الشام، طبعة Calcutta، ١٨٥٤، تحقيق W.N.Less، ١، ص ٩.

(٦) أنظر. Caetani: Annali. ann. 12. no 305—312 ann 14, no 95—96؛ Cheira: La Lutte, p. 31—32.

(٧) الكامل، ٢ ص ٢٢٧.

(٨) نفسه، ١ ص ٣٨١.

(٩) ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٤؛

أو ما ُيعرف «باللواء»[1]، وهم ُيبقون على النساء معهم فى المؤخرة لتشجيع المقاتلة، وإثارة غيرتهم عليهن، [2] إذهن «العرض» كما بيّنا؛ وقد يصطحبون معهم الشاعر الذى يستثير همم الأبطال [3] . أما خططهم فى القتال فتكون بالكر والفر [4]، أو الزحف بالصفوف؛ ويقوم المقاتلون بالطعن بالرماح والرمى بالنبال والضرب بالسيف [5]. ولا ريب أن العرب عرفت عند التقائها بالجيوش البيزنطية والفارسية خططاً جديدة، وتوزيعات للمقاتلة أسهل فى الحركة [6] . أما آلات حربهم فكانت أقل جودة من آلات الحرب عند أعدائهم [7]، وقليل من العرب كان يلبس الدروع، كما كان أكثرهم عراة؛ ولكن العرب حينما شاهدوا أسلحة غيرهم لم ينتظروا إلا قليلاً؛ حتى كانت لهم مثل هذه الأسلحة من خوذ ودروع [8]... الخ.

أما الإبل وهى الحيوانات الصبورة والسريعة [9]، فقد كانت معروفة عند أعدائهم؛ هذا فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يملكون عدداً كبيراً من الخيل، التى كان وجودها ُيعتبر عنصراً فعالاً فى الحرب القديمة. وقد كان مدح النبى الخليل؛ وربطه الجهاد بها: «رباط الخيل»؛ مما جعل العرب تكثر من استخدامها [10] .

وأخيراً ـ أكبر الظن ـ أن الدافع إلى هذه الفتوح يرجع على الخصوص إلى ارتفاع معنويات العرب بالدين الجديد. وقد لاحظ ابن خلدون ـ كما جاء فى مقدمته [11] ـ

(١) ابن الأثير، الكامل، ١ ص ٣٨١ س ٦ — ٧؛ النويرى، ٦ ص ١٦٨ س ٧ .

(٢) الواقدى، فتح الشام، ٢ ص ١٢٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ١٩٢ .

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٤ س ٨ — ١٠ .

(٤) نفسه، ص ٢١٤ .

(٥) الأزدى، فتوح الشام، ص ١١٥ ؛ انظر. Huart : Hist. des Arabes, Paris, 1921, I, p, 34.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٥ — ٢١٦ . كتقسيم الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين وساقة إلى غير ذلك من التعبيرات التى تدل على تطور خطط القتال .

(٧) ومع ذلك، فقد عرفوا بعضها، بحكم صلة الجوار مثل المجانيق؛ فالنبى نصب على أهل الطائف منجنيقاً. أنظر قبله؛ النويرى، ٦ ص ١٦٥ .

(٨) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ٦٢، ١٢٤، ١٣٨؛ الأزدى، ص ٢٢٩ .

(٩) أنظر. Herodotus. 7 : 86 (vol 3, p. 393)

(١٠) المقدمة، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(١١) ابن هذيل، ص ٤٣ — ٤٤ ؛

أن العرب لا يحصل لها الملك إلا بظهور نبوة أو أثر عظيم من الدين ؛ وذلك لأن بيئتهم كانت تدفعهم إلى التطاحن والفردية ، وأن سلطة الدين وحدها هي التي تتمكن من نفوسهم المتوحشة ، وتعمل على تأليف قلوبهم ، وبذلك يحصل لهم التغلب والملك. والواقع أن ظهور الإسلام بين العرب، كان من شأنه أن أوجد بينهم رابطة الدين التي تسمو على الرابطة القبلية . وقد كان القرآن من جانبه يثير فيهم الإحساس بالكرامة [١] ، بقوله مثلاً : ﴿ كُنتُم خَيرَ أمة أخرجت للناس ٣ : ١١٠ ﴾ [٢] . ومن ناحية أخرى كانت الثقة في الجنس العربي قد بدأت تظهر حتى قبل الإسلام، وذلك حينما خرج جيش الحبشة بقيادة أبرهة مهزوماً من مكة [٣] ، كما نسمع أن العرب تحدت ملك فارس، واشتبكت مع جيوشه في موقعة ذي قار [٤] ، التي انتصروا فيها . ولكن العرب التي قويت معنوياتها بالإسلام، وتوحدت بعد حرب الردة ، مازال بعضهم تحت سيطرة بيزنطة في بادية الشام، والبعض الآخر تحت سيطرة الفرس في باديه العراق ، أو في منطقة الخليج العربي (الفارسي)؛ وهاهي الفرصة سانحة لأبي بكر في أن يلم شمل العرب جميعاً ، أو يحول من لم يسلم منهم إلى الدين العربي [٥] ، كما فعل بالنسبة لعرب الجزيرة ، مما يكون قد جر إلى حركة الفتوح ، وخصوصاً أن النبي وضع بذور هذه السياسة، حتى أنه قام بنفسه بغزوة تبوك [٦] ، بل إن سورة براءة [٧] نزلت لتؤيد هذه السياسة.

---

(١) أنظر. أرنولد، الدعوة، ترجمة حسن إبراهيم وغيره ، ص ٣٤ .

(٢) أنظر أيضاً القرآن ٤٣ : ٣ .

(٣) أنظر . قبله .

(٤) أنظر . قبله .

(٥) أنظر . Caetani.: Annali, ann,12 no 305.: Chefra: La lutte,p.31.

(٦) أنظر . قبله .

(٧) القرآن سورة ٩ ؛ انظر . قبله .

على العموم لم ينته خالد بن الوليد من حروبه مع المرتدين فى البحرين حتى طلب منه الخليفة أبو بكر السير إلى «العراق[١]»، أو ما يُعرف فى ذلك الوقت باسم «السَّوَاد[٢]»؛ لكثرة زرعه ونخيله وأشجاره: وهو يشمل النصف الجنوبى من دجلة والفرات الممتد حتى الخليج العربى (الفارسى)، والذى يتاخم أرض العرب حيث توجد بادية «السَّماوَة[٣]».

وكان يسكن العراق عدة عناصر منها: عناصر فارسية «عجم[٤]»، أتت إليه من إيران، وعناصر آرامية أو سريانية[٥]، انتقلت إليه منذ قديم الزمان من داخل الجزيرة، وما لبثت أن دخلت فى جملة الفرس، وهم ما يُعرفون: «بأنباط السواد[٦] أو العراق»، لتمييزهم عن نبط الشام، وأخيراً عناصر عربية من قبائل تنوخ وبكر[٧]، كانت تسكن البادية على الخصوص.

ومنذ قديم الزمان، وقد نشأت فى العراق دول عديدة، أشهرها مملكة

---

(١) الطبرى (Annales) ١: ٢٠١٦؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢١٧.

لعل هذه التسمية آتية من «العروق»، للدلالة على كثرة شجره. أنظر. ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ١٣٣ وما بعدها؛ Ency. de l'Isl, t 2, p. 546.

(٢) سمى هكذا لخضرته، وذلك على عكس جزيرة العرب الصفراء التى لا زرع فيها، وخصوصاً إذا نظر إليه من بعد. أنظر. معجم البلدان، ٥ ص ١٥٩؛ Ency de l'Isl, t2,, p. 546؛ Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge, 1930, p. 24.

(٣) معجم البلدان، ٥ ص ١٣٠. هى الأراضى التى بين الكوفة والشام.

(٤) الكامل، ٢ ص ٢٦٥ س ٢، ٣٦٨ س ٩.

(٥) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٨٨؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص ٣٧٩ س ٤؛ ابن صاعد الأندلسى، طبقات الأمم، بيروت ١٩١٢، ص ٦.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٣ س ١٢ — ١٣؛ المسعودى، التنبيه، ص ٣٦، ٧٨.

(٧) معجم البلدان، ٣ ص ٣٨٠؛ الكامل، ٢ ص ٢٦٤.

بابل[١] « Babylonia » الآرمية، التى عرفت للعرب باسم « كلدة »، وملوكها باسم « النماردة ». ولكن منذ أن ظهرت فى فارس الدولة الأكمينية ، وهى التى استطاعت أن تقضى على مملكة بابل فى ٥٣٩ ق.م[٢] ، فإن العراق كان يخضع لنفوذ دول الفرس . وقبل الإسلام بعدة قرون نجد أن الفرس شجعت عرب البادية المجاورين لهم على تكوين مملكة الحيرة على حدودهم[٣] لتمنع غارات البدو من داخل الجزيرة العربية، بحيث عرفوا « بالعباد » لطاعتهم الفرس[٤] . ولكن ما لبث هؤلاء أن خافوا منهم ؛ بعد أن اعتنق سكان الحيرة المسيحية على المذهب النسطورى[٥]، فأخضعوهم لسلطانهم نهائياً[٦]، وبثوا فى بلادهم الحاميات فى « حصون »[٧] أو « قصور »[٨]؛ كما أن أغنياء الفرس المسمّين « دهاقين[٩] » ، أصبحوا يملكون معظم الأراضى الخصبة فى السواد .

ونحن لا نعرف السبب الذى من أجله أقدم العرب على مهاجمة العراق ، وهل كان ذلك بناء على خطة مدبرة فى المدينة بسبب ارتفاع معنويات العرب بالدين

---

(١) ابن صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦ ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٨ س ١٣ . الكلدانيون هم أهل بابل ، ويظهر أن هذه الكلمة سريانية. أنظر أيضاً: التنبيه ، ص ٧ و ٣٥ و ٣٦ .

(٢) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ انظر . Beneviste : La Civil. Iran, p. 45.

(٣) أنظر. قبله.

(٤) معجم البلدان، ٣ ص ٣٨٠؛ انظر. حسن إبراهيم، الدولة العربية، ص ٤٣ . وقد سبق أن ذكرنا رأياً آخر بصدد هذه التسمية هو : اعتناقهم المسيحية. أنظر. التنبيه، ص ٧؛ الشابستى، ديارت، ص ٢٣ ؛ وقبله.

(٥) أنظر . قبله .

(٦) التنبيه ، ص ٣٩ س ١٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ س ٦ .

(٨) الدينورى، الأخبار الطوال، طبعة مصر، ص ١١٥ .

(٩) هذه الكلمة أصلها فارسى « دهكان » ، من كلمة « ده » أى قرية ، ثم عربت إلى « دهقان » ، بمعنى مالك الأرض، والجمع « دهاقنة » أو « دهاقين » . أنظر . Noldeke : Geschichte der Perser und Araber, p. 440 ؛ فان فلوتن، السيادة العربية، ترجمة حسن إبراهيم وزكى إبراهيم، القاهرة ١٩٣٤، ص ٤٥ .

الجديدة كما ذكرنا، والرغبة فى ضم عرب العراق إلى حظيرة الإسلام، وخصوصاً أن الجيوش العربية المنتصرة بقيادة خالد كانت تحارب بجوارهم فى اليمامة والبحرين. ومن ناحية أخرى يدل الواقع على وجود عداء بين العرب والفرس، بسبب أن هؤلاء طمعوا فى العرب، وأخضعوا لهم معظم أطراف الجزيرة العربية فى البحرين واليمن (١). كذلك كان ملوك الفرس يستعملون القسوة مع العرب: فمثلاً شهبور الثانى — أو سابور (٢) — (٣١٠ — ٣٧٩م)، يسمى « بذى الأكتاف (٣) »، لكثرة ما قتل من العرب انتقاماً لوالده، الذى يبدو أن العرب قتلوه (٤)، أو أن خسرو الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م)، قتل ملك الحيرة النعمان (٥)، مما جر إلى موقعة ذى قار، التى انتصر فيها العرب على العجم. فكان إذن لابد من تسوية هذا الثأر القديم؛ وقد رأينا القرآن (٦) يعلن سرور العرب برجوع الروم وغلبتهم على الفرس. ومن ناحية أخرى نعرف أن السهول الخصبة فى الدجلة والفرات كانت تجذب (٧) البدو دائماً إليها من داخل الجزيرة حتى أنهم سموها السواد لكثرة زروعها.

ومهما يكن من أمر فقد كانت مهاجمة خالد للعراق مفاجأة للحاميات الفارسية فيها، وخصوصاً أن معظمها كان قد سحب إلى داخلية إيران، بسبب اضطراب شئونها الداخلية. ولكن معلوماتنا عن خطة هجوم العرب فى العراق غير واضحة (٨)؛ وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً فى بعض أجزاء البادية

---

(١) أنظر. قبله: Massé: La Civil. Iran, p. 168.

(٢) عن هذا الاسم: L'Iran Antique, p. 343؛ وقبله.

(٣) اليعقوبى، تاريخ، ١ ص ١٨٣ س ٣؛ الثعالبى، غرر ملوك الفرس، ص ٥١٩ وقبله.

(٤) أنظر. L'Iran Anitque, p. 346

(٥) أنظر. قبله؛ Ency. de l'Isl, (art Sâsânides) t. 4, p. 187

(٦) القرآن ٣٠ : ١.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٨؛ انظر. Ency. de l'Isl, t 2, p. 549

(٨) الكامل، ٢ ص ٢٦١؛

حيث سهّل فتحها وجود قبائل عربية فيها ، وأن قائداً اسمه المثنى بن حارثة الشيبانى كان يقوم بالغارة فيها قبل مجىء خالد[١] . وقد أمضى خالد مع رؤساء العرب معاهدات تؤمّنهم على دياناتهم[٢] — التى كانت مسيحية فى الغالب وإن أمرهم ببعض الواجبات كدفع الجزية[٣] ، وترك مساعدة الأعداء. ثم سار خالد فى منطقة السواد[٤] ، واستخدم السفن لعبور قنوات المياه الكثيرة المتفرعة من الفرات ، فاستولى على قرى عديدة ، وحصون كثيرة . ويظهر أن مقاومة الفرس فى العراق كانت شديدة ، مما جر إلى مواقع هامة منها : موقعة ذات السلاسل[٥] ، التى ترتب عليها الاستيلاء على : ميناء « الأُبلّة » الهام على الخليج العربى (الفارسى) ، وذلك على الرغم من أن الفرس ربطت نفسها فى السلاسل حتى لا تفر ، وأن معظم أهلها هربوا فى السفن ، وموقعة « الثِّنى[٦] » أو النهر — لعله أحد فروع الفرات — التى قُتل فيها ثلاثون ألف فارس ، وموقعة « أُلّيْس[٧] » على الفرات ، التى جرت فيها الدماء أنهاراً . وعلى العموم نجد نتيجة لهذه الانتصارات أن الدهاقين فى العراق أسرعوا بالتسليم إلى خالد من كل النواحى[٨] ، وقد عومل

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٦٢ س ٢ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٤٤ — ٢٠٤٥ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٣ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ .

(٤) تاريخ النسطوريين ، (فى P.O) الجزء ١٣/٢ ، ص ٥٨٠ [٢٦٠] ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٥ س ١٨ ؛ الطبرى (Annales) ١ : ٢٠١٦ — ٢٠١٧ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٢ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٨٩ — ٩٠ ، ٥ ص ٢٧ ؛

(٦) معجم ، ٣ ص ٢٥ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٢٨ .

(٨) الكامل ، ٢ ص ٢٦٨ س ٣ .

الفلاحون المجوس كالنصارى على أساس أنهم من أهل الكتاب(١)، ففرضت عليهم الجزية(٢). ولكن أبا بكر لم يترك قائده خالداً فى العراق ليستفيد من نصره فى مهاجمة فارس، وإنما أمره بترك العراق فى يد القائد المثنى بن حارثة الشيبانى، ليتقابل مع قوات كانت مرسلة لفتح الشام(٣)؛ وقد كان فتوح العراق أول فتوح فى الإسلام.

بعد العراق جاء دور الشام أو ما يسميه العرب أيضاً «الشأم»(٤)، واليونان «بسُورية Syria»(٥): وهو صقع كبير يمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض، من الفرات إلى الديار المصرية؛ فيشمل الأراضى الخصبة قربُ الساحل التى تغذيها عدة أنهار أهمها: اليرموك(٦)، والأردن(٧)، وبَرَدى(٨)، والأرند(٩)، وقوَيق(١٠)، وأيضاً بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تُعرف «بالبلقاء(١١)».

وكان يسكن الشام عناصر أغلبها سامية، جاءته باستمرار من داخل الجزيرة

(١) نفسه، ٢ ص ٢٦٣ س ١٦؛ أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٥؛ انظر، بعده.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٣٣.

(٣) الطبرى، ١ : ٢٠٧٦؛ انظر، مجموعة الوثائق، ص ٢٧٧ — ٢٧٨؛ الكامل، ٢ ص ٢٧٩ س ٤.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٥ ص ٢١٧. قيل فى هذه التسمية عدة أقوال منها: لأن الشام على يسار جزيرة العرب، أو لأنه من شمال الأرض. أنظر، نفسه، ٥ ص ٢١٧ وما بعدها؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، المجلدة الأولى، ص ٨.

(٥) معجم البلدان، ٥ ص ١٧١، ٢١٨. أطلق الإغريق هذه التسمية على بلدة «صور»، ثم عممت على البلاد الشامية كلها. أنظر، Le Strange: La Palestine, under the Moslems. London, 1890, p. 14.

(٦) وهو يصب فى نهر الأردن. معجم البلدان، ٨ ص ٥٠٤.

(٧) وهو يصب فى بحيرة طبرية. نفسه، ١ ص ١٨٥ وما بعدها.

(٨) وهو يمر بمدينة دمشق. نفسه، ٢ ص ١١٨ — ١١٩.

(٩) وهو فى شمال الشام يمر بحمص وحماة، ويسميه العرب أيضاً بالعاصى لذهابه إلى الشمال بدل الجنوب. نفسه، ١ ص ٢٠٦، ٦ ص ٩٦.

(١٠) وهو يمر بحلب. نفسه، ٧ ص ١٨٨.

(١١) نفسه، ٢ ص ٢٧٦ — ٢٧٧.

العربية فى شكل موجات ضخمة منتظمة كالفصول[١]، مثل[٢] : العامورييين والكنعانيين أو الفينيقيين والآراميين والعبرانيين والإسرائيليين والأنباط ، وأخيراً العرب اليمنيين من قبائل الضجاعم وغسان وكلب وعذرة وجذام وجهام ؛ حيث أن هذه قبل الإسلام كانت تكوّن معظم سكان الشام ، وتمتد فى جنوبه من دمشق حتى حدود الحجاز[٣] .

ومنذ قديم الزمان ، نشأت فى الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات ، ولكونه منطقة اتصال طمعت فيه الدول المسيطرة فى حوض البحر الأبيض ، مثل : المصريين القدماء والبطالمة والرومان ، وأخيراً البيزنطيين الذين كانوا يُعرفون للعرب باسم «الروم»[٤]. ومن ناحية أخرى كانت دولة الشرق الكبرى — فارس — تطمع فيه هى الأخرى ؛ ولذلك اكتسحته جيوشها عدة مرات[٥] ؛ وإن كان بقاؤها فيه غالباً لا يطول .

ومع ذلك ، فإنه كانت تظهر من آن لآخر دويلات من سكانه لها كيان مستقل ، تقوم فيه بتشجيع الدولة المستعمرة ؛ لتقف حارسة لحدود أملاكها فى الشرق ، ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس ، مثل[٦] : مملكة النبط وتدمر وأخيراً الغساسنة ؛ فكان هؤلاء يُسمون :

---

(١) أنظر Nau : Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie, p. 31.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٢—١٨٣ ؛ Driot et Vand : Peuples, pp. 403 ; 421 ; 521 ؛ Huzyyin : Arabia, p. 7. ؛ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ، الطبعة الثانية ١٩٤٩ ، ص ١٠ وما بعدها .

(٣) الكامل ، ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ ؛ انظر قبله .

(٤) القرآن ٣٠ : ١ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

« روم العرب(١) » لمحالفتهم البيزنطيين . ويبدو أن حروب الفرس الأخيرة في الشام ، وتغلب هرقل البيزنطي عليهم في ٦٢٢ م(٢) ، جعل بيزنطة تشرف على الشام إشرافاً مطلقاً ، فقسمته أقساماً حربية عُرفت باسم « Thema »(٣) ، وبثوا فيه الحاميات ، وهذا النظام هو الذي طبقه العرب فيما بعد وعُرف عندهم « بالجند » (٤) .

وقد كان ظهور المسيح في الشام سبباً في تحول أهله منذ عهد مبكر إلى الدين الجديد ؛ وساعد على ذلك أن الدولة البيزنطية — التي ورثت الرومان في الشرق — جعلت للمسيحية ديانتها الرسمية حوالى القرن الرابع الميلادى . ومع ذلك كان سكان الشام — الذين كان أغلبهم وقتئذ من العرب المتنصرة(٥) — يعتنقون المسيحية على أساس مذاهب مخالفة للمذهب البيزنطي أو ما يُعرف بالملكاني(٦) ، بالنسبة إلى الإختلاف في طبيعة المسيح ، مثل : المارونية(٧) في شمال الشام واليعقوبية(٨) في جنوبه ؛ وهذه الأخيرة كانت منتشرة في مصر أيضاً . كذلك تميزت المسيحية الشامية

---

(١) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٠١ ؛ انظر . La lutte, p. 19. : Cheïra .

(٢) أنظر . بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، ص ٢٥٤ ؛ وقبله.

(٣) أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣١ — ١٣٣ ؛ Le Monde Oriental de 395, : Diehl et Marcais à 1081 2ed, p. 223 ; 214.

(٤) جمعها «أجناد» ، والتجنيد التجميع. ياقوت، معجم البلدان، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦.

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ ؛ الكامل ، ٢ ص ١٩٢ س ١١ — ١٢ ؛ انظر . La Lutte, p. 19. : Cheïra

(٦) أنظر . Early Christianity in Arabia. London, 1895,: Wright. ; p. 181. وقبله؛ La Syrie, p. 155—160. : Thoumin

(٧) نسبة إلى مارون راهب ظهر في عصر الإمبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) قال بالطبيعتين للمسيح : إلهية وبشرية. أنظر. سعيد بن بطريق، ١ ص ٢١٠ س ١٣ — ١٨؛ التنبيه ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٨) نسبة إلى يعقوب البرذعاني «Jacobus Baradeus» ، ومذهبه هو الأرثوذكسية (عن «الأرثوذكسية» ، سعيد بن بطريق ١ ص ١٤٦ س ١٥) ، أى أتباع الدين الصحيح ، وهو لا يعترف إلا بطبيعة واحدة للمسيح ؛ وهذا المذهب كان مذهب المصريين أيضاً . أنظر ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ١ ص ٤٩ ؛ قبله وبعده .

بالرهبنة (١) ، التي لعلها جاءتها من مصر، إذ ظهرت في الوقت ذاته الذي ظهرت فيه في مصر ؛ بحيث كثرت في الشام الصوامع والديارات (٢) .

وفي الواقع إننا نستطيع أن نقول: إن حرب العرب ضد الشام بدأت منذ عهد النبي ، وذلك حينما أرسل حملة مؤتة (٣) ، التي التقت فيها عرب الحجاز بروم العرب في أطراف الشام (٤) ، ثم إعداده بعث أسامة بن زيد قبيل وفاته (٥) ، وإن كنا لا نعرف قصد النبي من هذه الحملات ، إلا أننا نستبعد أن يكون إرسالها بقصد فتح الشام أو محاربة البيزنطيين (٦) ؛ وذلك لصغر أعداد هذه الحملات، ولمشاغل النبي في الحجاز التي لم تكن قد استقرت بعد . ولعل النبي كان يرمي من وراء ذلك إلى إشعار عرب الشام بظهور دولة عرب الحجاز وضرورة التحالف معها بحكم صلة العروبة (٧)، أو لعله أراد تأديب قبائلها بسبب اعتداءاتها على الآمنين من سكان الحجاز . كذلك — في أول الأمر — سار أبو بكر على أساس خطة النبي: فأرسل بعث أسامة بن زيد على الرغم من حاجة المدينة لهذا البعث في الدفاع عن نفسها (٨) ، كما اتبع البعث بعدة حملات أخرى (٩) ؛ لإعادة عرب شمال الحجاز إلى الطاعة، وبخاصة عرب دُومة الجندل (١٠) ، التي كانت تُعتبر من تخوم الشام، وتابعة لبيزنطة.

---

(١) ساويرس ، سير الآباء البطاركة (في P.O) ١ ص ٤٩٨ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٥٨ وما بعدها ؛ أبو الفرج الأصبهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٩ وما بعدها ؛ انظر . قبله .

(٤) الطبري ١ : ٢١٠٩ ؛ انظر . قبله .

(٥) الكامل ، ٢ ص ١٩٢ ؛ انظر . قبله .

(٦) يستخدم المؤرخون الإسلاميون عادة كلمة «الروم» (الكامل، ٢ ص ١٥٩ س٣)، ولكنا لا نظن بأن قصدهم كان البيزنطيين ، فمن سياق تاريخهم يبدو أنها حرب ضد روم العرب في هذه المناطق. أنظر . Cheira : La Lutte, p. 21.

(٧) كما فعل مثلاً في غزوة تبوك : انظر . قبله .

(٨) انظر . قبله .

(٩) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٣٤ ؛ انظر. قبله .

(١٠) البلاذري، فتوح ، ص ٦٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٠٧ ؛ التنبيه ، ص ٢١٥ ؛

انظر . Cheira : La lutte, p. 21. ؛ وقبله .

ولكن من المحقق أن أبا بكر بعد أن انتهى من المرتدين فى الجزيرة وجه الحملات ـ هذه المرة ـ بقصد إخضاع عرب الشام للحجاز ، بدليل إرسال الحملات الأولى نحو جنوب الشام على الخصوص(١) . وإن كنا نجهل الأسباب المباشرة أو غير المباشرة لذلك ؛ فلعل الحوادث هى التى جر بعضها بعضاً ، وأن نجاح الحملات الأولى ضد المرتدين من عرب الشمال جر إلى السير فى فتح الشام ؛ أو لعلها خطة مدبرة للغزو والفتح ، وخصوصاً أن حركة الفتوح كانت قد بدأت فى العراق ؛ وإن لاحظنا أنها فى هذا القطر لم تتعد أيضاً عرب العراق . ولكن « Caetani (٢) » يرى أن الذى جعل أبا بكر يقدم على فتح الشام هو حدوث اتفاق بين عرب الروم وعرب الحجاز للغارة فى الشام ـ كما حدث فى العراق ـ وبخاصة أن بيزنطة كانت قد منعت الجعل السنوى عنهم ، بسبب ما حدث من اضطراب نتيجة لهجوم الفرس الأخير . ولكن شعيرة يرد على هذا الرأى بقوله إنه لم يصلنا ما يؤيد هذا الاتفاق إلا من الأسقف الأرمنى Sébêos (توفى حوالى القرن السابع الميلادى) ، الذى يتحامل على العرب ؛ وأنه على العكس كان هناك عداء واضح بين عرب الحجاز وعرب الشام استمر فى عهدى النبى وأبى بكر(٣) ، بل نجد أن عرب الشام قاوموا حملات أبى بكر مع حلفائهم البيزنطيين(٤) .

وعلى كل حال : لما استنفر(٥) أبو بكر عرب الجزيرة لغزو الشام ـ وقد كانت هذه البلاد معروفة لهم ، بسبب تجارتهم فيها ـ جاءته أعداد كبيرة من جميع أجزائها(٦) ، وبخاصة من اليمن وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل ـ (٧)

(١) أنظر . بعده .
(٢) أنظر . Annali, ann 12 no 309
(٣) أنظر . La Lutte, p. 30 ; 34—35
(٤) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ .
(٥) أنظر نص كتاب الاستنفار فى الأزدى ، ص ٥ — ٦ ؛ الواقدى ، كتاب فتوح الشام ، ١ ص ٢ — ٣ .
(٦) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٧ .
(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ انظر . قبله .

ـ بطل حروب الردة المعروف ـ فوجههم أبو بكر نحو الشام بقيادة عدد من القواد(١)، أشهرهم ثلاثة عُرف اثنان منهم فى حروبهم مع عرب شمال الحجاز(٢)، وهم: عمرو بن العاص(٣)، وشُرحبيل بن حسنة(٤)، وأضاف إليهم يزيد بن أبى سفيان(٥). وقد أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة: فسار عمرو بن العاص عن طريق وأيلة(٦)، أو ساحل البحر الأحمر (القلزم) نحو أرض فلسطين، وسلك يزيد وشرحبيل طريق «تبوك(٧)» أو البلقاء نحو شرق الأردن. وقد قوبل القواد الثلاثة بمقاومة(٨)، وبخاصة من العرب المتنصرة فى هذه المنطقة، وهم الذين كانوا فى عداء مع عرب الحجاز منذ عهد النبى، مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة؛ وإن كانوا قد ثبّتوا أقدامهم بنجاح فى جنوب الشام. وهذا يؤيد أن محور سياسة أبى بكر فى هذه الفتوح كان ضم العنصر العربى الشامى إلى عرب الحجاز(٩).

ولذلك يُرسل إليهم الخليفة المدد الذى توافد على المدينة، بقيادة أحد الصحابة، وهو أبو عبيدة بن الجراح، الذى كان النبى يلقبه: «بأمين الأمة(١٠)»، وكأنه

---

(١) الأزدى، ص ٤ — ٥. (٢) أنظر. قبله.

(٣) وهو القائد الذى كان قد أسلم مع خالد (المعارف، ص ١٤٦)، وأرسله أبو بكر لمحاربة قضاعة. الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٨٠؛ أنظر. قبله. وقد شبه عمرو نفسه بسهم من سهام الله، وأن أبا بكر هو الرامى. ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٧٦.

(٤) المصدر السابق، ٢ ص ٢٣٤ س ٩؛ انظر. قبله.. منسوب الى أمه، وهو أحد كتاب النبى. المعارف، ص ١٦٥؛ الواقدى، فتوح الشام، (ملاحظات) Notes, p. 28.

(٥) كان أبوه هو الذى قاد المقاومة المكية ضد المسلمين، ولكن النبى قربه بعد فتح مكة، وفعل أبو بكر الشىء ذاته، فعينه قائداً لحملات الشام. أنظر. ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٧٦؛ قبله.

(٦) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ٢٢ س ٧. وهى على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام. ياقوت، معجم البلدان، ١ ص ٣٩١.

(٧) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٠٨؛ انظر. La lutte, p. 36-7. : Cheïra

(٨) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٠٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٧٧، ٢٨٦.

(٩) أنظر. La lutte, p. 37. : Cheïra

(١٠) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٢٠ س ١١.

ينتظر على يديه حماية أمة الإسلام، والرفع من شأنها؛ فخرجت نحو البلقاء في اتجاه دمشق[١]. وفي الوقت ذاته أمر خالداً ـ قائده بالعراق ـ بكتاب[٢]، بالتوجه إلى الشام، على أن تكون له القيادة العامة «أمير الأمراء[٣]»، على جميع جيوش المسلمين. فما كان من خالد إلا أن أسرع بترك العراق صاعداً الفرات نحو الشام، فاستولى في طريقه على عدة بلاد ـ معظم سكانها من العرب ـ منها: عَين التمر[٤] وقَرقيسيا[٥] ودُومَة الجَنْدل[٦] وتدمر[٧]، وظهر فجأة أمام دمشق[٨]. وكان عبور خالد الصحراء القفر إلى الشام من هذا الطريق دليلاً على عبقريته الحربية؛ إذ تنقل الرواية أنه لجأ إلى تعطيش الجمال قبل مغادرته العراق وسقيها بالماء، ثم شد أفواهها حتى لا تجتر، وجنّب الخيل وركب الجمال، فكان كلما وصل إلى مكان ليس به ماء نحر بعض الجمال وشق بطونها وأخذ ما فيها من الماء، ليسقيه للجنود والخيل[٩].

وما أن وصل خالد قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين، فأمر جميع جنوده بالتجمع في أجنادين[١٠]، وهي بلدة قرب الرملة من أرض

(١) نفسه، ٢ ص ٢٧٧ س ٢٠؛ البلاذري، فتوح، ص ١١٢؛ الواقدي، فتوح الشام، ١ ص ٢٤.

(٢) الطبري (Annales) ١: ٢٠٧٦ و ٢١١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٧٩؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٢٧ -- ٢٢٨.

(٣) الأزدي، ص ٥٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٩. كلمة أمير تعني قائد. أنظر. قبله.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٦٩. بلدة على سيف الصحراء قرب الفرات، عرفت بكثرة تمرها. ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٤.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٠. بلد على نهر الخابور، أحد فروع الفرات. معجم البلدان، ٧ ص ٥٩ — ٦٠.

(٦) الكامل، ٢ ص ٢٧٠؛ انظر. قبله.

(٧) الواقدي، فتوح الشام، ٢ ص ٤٤.

(٨) الأزدي، ص ٦٤؛ البلاذري، ص ١١٢. وهي قصبة مدن الشام، معجم البلدان، ٤ ص ٧٢.

(٩) الواقدي، فتوح الشام، ١ ص ٤١.

(١٠) الأزدي، ص ٧٢ — ٧٣. موضع من نواحي فلسطين. أنظر. معجم البلدان، ١ ص ٣٦. يظهر من سياق كلام الطبري أنها قلعة. أنظر. (Annalee) ١ : ٢٤٠٨؛ Ency. de l'IsI .(art Adjnâdain) I, p. 144.

فلسطين، حتى لا يؤكلوا لقمة سائغة وهم متفرقون. فقد أرسل هرقل من حمص[١] فى شمال الشام أخاه ثيودوروس « Theodoros »[٢] ، — الذى سماه العرب «وردان»[٣] ، — على رأس جيش كبير، يزيد عدده على مائة ألف[٤] ، من الروم والعرب المتنصرة (الأنباط)[٥] ، ومعه البطاركة والقسس والرهبان بالصلبان[٦] ; وقد سلحوا بالأسلحة المعروفة فى ذلك الوقت: فكان المقاتلة منهم يلبسون خفاف الحديد فى أرجلهم، وهى مكفوتة فى الدروع، لا يرى منهم إلا الحدق[٧] . وحينما وصل ثيودوروس إلى أجنادين نظم جيوشه أمام العرب على أحدث ما هو معروف عند الروم من فن الحرب ، فوضع فارساً بين كل اثنين من المشاة : أحدهما ناشب والآخر رامح[٨] .

أما المسلمون الذين تجمعوا فى أجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين ألفاً من قبائل متعددة[٩] ، اتخذت لها رايات وألوية شعارها عقيدة الإسلام:[١٠]

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ٢ ص ٢٧٨ س ١٤ . بلد مشهور بين دمشق وحلب ، فى داخل البلاد . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣٩ .

(٢) أنظر Histoire d'Heraclius, traduite de l'arménien, Sébêos. et annotée par Macler. Paris, 1904, p. 96 ؛ أنظر : De Goeje . Mémoire sur la conquête de Syrie, 2ed. Leyde. 1900, p. 35. ؛ Cheïra : La lutte, p. 39.

(٣) الأزدى ، ص ٧٢ — ٧٣ . أختلف فى اسمه ، بسبب خلط مؤرخى العرب بين موقعتى أجنادين واليرموك — سنتكلم عنهما — فمثلاً ابن الأثير يقول «تذارق» . الكامل، ٢ ص ٢٨١ س ٢٠ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٣ ؛ أنظر . Gibbon : Decline, 5, p. 314. يقول الواقدى تسعين ألفاً . أنظر . فتوح الشام، ١ ص ١٢٧ .

(٥) المصدر السابق، ١ ص ٣١، ٥٣، ٩٨ .

(٦) نفسه، ١ ص ٥٧ . (٧) نفسه، ص ١١٠ .

(٨) الأزدى ، ص ١١٤ . (٩) فتوح البلدان، ص ١٠٩ ؛ الأزدى ، ص ٧٧ س ١ .

(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ١ ص ٣ ، ٣٢ . كان لخالد راية خاصة به، اسمها العقاب. أنظر. ابن الأثير، الكامل ، ٢ ص ٢٨١.

«لا إله إلا الله محمد رسول الله». وكانوا على عكس الروم منهم العرجلة الحفاة [١]، الذين ليس عليهم غير السراويل، وفى أيديهم أسلحة لا تصل إلى قوة أسلحة الروم؛ وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبيض [٢] (أى الخوذ).
وقد نظّمهم خالد إلى فرق للرجالة: ميمنة وميسرة [٣]، وجعل الفرسان وحدهم ليحاربوا على حدة، فكان منهم من يمتطى الخيل أو الإبل [٤]. أما خالد نفسه، فقد تعمم بعمامة صفراء، واشتهر بحريرة حمراء، حتى يراه الجميع [٥].

ومع عدم تكافؤ العدد والسلاح من الجانبين، فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجديد: فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم بلغ خمسين ألفاً فى هذه الموقعة [٦]، التى دارت رحاها فى جمادى الأولى من سنة ١٣ [٧] هـ (يوليو ٦٣٤). وهذه أول وقعة عظيمة [٨]، بين عرب الحجاز والبيزنطيين، منذ أن ظهر الإسلام.

ولقد كان للانتصار فى «أجنادين» وقع عظيم؛ بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله [٩]، وخصوصاً أن العربى فى العهد الإسلامى الأول كان مستعداً الآن يقبل كل ما يحدث له على أساس أنه من الدين، وأن النبى قد تنبأ له بالنصر [١٠]. وقد استغلت المدينة هذا النصر استغلالا كبيراً فى حث المسلمين على الجهاد [١١]، بحيث

(١) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ٦٢.
(٢) نفسه، ١ ص ٣ س ٢١ — ٢٢.
(٣) الأزدى، ص ٧٦ — ٧٧.
(٤) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ١٨ س ٨.
(٥) نفسه، ١ ص ١٢١.
(٦) نفسه، ١ ص ١٢٧ س ٢.
(٧) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١١٤.
(٨) الأزدى، ص ٨١ س ١.
(٩) الطبرى (Annales) ١: ٢١٠٨؛ انظر: Cheïra: La lutte, p. 40 sqq.
(١٠) نفسه، ١: ٢٢٠٤؛ Ibid, p. 41;42.
(١١) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ٣٤؛ انظر: Cheïra: La lutte. p. 41.

أنه أشعل الحماس فى عرب الجزيرة مما جعلهم يقبلون زرافات على الشام[1] ، وشجعهم على السير بدون تردد فى مشروع الفتح ، بل منهم من فكر فى سُكنى الشام نهائياً[2] .

وعلى العكس كانت الهزيمة لأعدائهم الروم فى « أجنادين » طعنة غير منتظرة ، بحيث لم يصدق هرقل أنهم « ليسوا بشراً[3] » . ومع ذلك لم يتصوروا إطلاقاً بأن هزيمتهم فى « أجنادين » ستؤدى إلى القضاء على امبراطوريتهم فى الشرق ، وإنما اعتقدوا أنها محنة نزلت بهم من المسيح[4] ؛ بسبب ما ارتكبوه من الخطايا والذنوب[5] ، وأنه من الممكن إصلاح الخطأ بالرجوع إلى المسيح .

* * *

توفى أبو بكر فى ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣[6] (٢٣ أغسطس ٦٣٤) ، بعد هـــذا الانتصار الرائع ، وذلك بعد أن قضى فى الخلافة حوالى سنتين (١١ - ١٣ / ٦٣٢ - ٦٣٤) ؛ وقد حافظ على الإسلام من ردة العرب ، ووجه الجيوش نحو الفتوح ، مما يجعلنا نعتبره من أعظم مؤسسى الدولة الإسلامية بعد النبى . وكان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جديد ، ولكن أبا بكر أخذ على عاتقه قبل موته اختيار خليفة لهم ؛ حتى يجنّبهم الفُرقة فى هذه الظروف العصيبة ، فكتب لعمر بن الخطاب ـ وهو الذى كان قد رضى[7] عن

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ١٣١ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ١١٨ .

(٣) الأزدى ، ص ١٣٣ س ١ .

(٤) أنظر . Sébêos : Op. cit, p. 97. : انظر . De Goeje : Mém, La lutte, p. 40, : Cheïra : p. 56

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٢ .

(٦) ابن الجوزى ، كتاب تاريخ عمر ، صححه الهادى حسين ، القاهرة ، ص ٤١ س ١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٨٧ ؛ انظر . Ency de l'Isl, (art Abû Baker.) I. p. 34. وقيل إن موته بسبب أكلة أرز ، قدمها له يهودى . الطبرى ١ : ٢١٣٧ـ٨ .

(٧) أنظر ما حدث فى السقيفة . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها ؛ هيكل ، الصديق ، ص ٦١ ؛ قبله

طيب خاطر أن يترك مقاليد الحكم له بعد موت النبي — عهداً بالخلافة[١]، لقي قبولاً من جميع المسلمين.

فمارس عمر بن الخطاب حقه في الخلافة بناء على اختيار أبي بكر له، لذلك تسمى في أول الأمر: «خليفة خليفة رسول الله[٢]»، أو حتى «خليفة أبي بكر[٣]». ولكن ثبت بالتجربة تعقيد المخاطبة بهذا اللقب، فتسمى عمر «بالخليفة» فقط[٤]. كما أنه أضاف إلى هذا اللقب لقباً جديداً متمشياً ومناسباً لعهد الفتوح، هو لقب: «أمير المؤمنين»[٥]، لأن الأمير عند العرب يُقصد به من ولّى جهة من جهات المسلمين، أو سرية أو جيشاً[٦]، والمؤمن هو المسلم الذي دخل الإسلام في قلبه[٧]، وخصوصاً أن العرب رجعت إلى الإسلام بعد ارتدادها، وخرجت للجهاد؛ فكان عمر أول من يتسمى به[٨]، وتوارثه الخلفاء من بعده، لا يشاركهم فيه أحد.

وفي الواقع إن مؤرخي العرب يبرزون شخصية هذا الخليفة كأعظم ما تكون في جزيرة العرب وقتئذ لحماسه الشديد للإسلام ولموقفه الحاسم في يوم السقيفة، ولأنه أيضاً أبو حفصة زوج النبي[٩]. فما لا ريب فيه أنه أشهر خلفاء المسلمين، فعصر عمر يعتبر العصر الذهبي للإسلام، ولم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام أن عهدين كمّل ثانيهما أولهما، كما حدث في عهدي أبي بكر وعمر.[١٠]

---

(١) أنظر نص كتاب عمر. ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٣٦؛ الكامل، ٢ ص ٢٩٢؛ رفيق العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام، ١ ص ١١١.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٩ س ١٦.

(٣) ابن الجوزي، عمر، ص ٤١ س ١٦. (٤) ابن خلدون، المقدمة، ١٧٩.

(٥) نفسه. يبدو أن هذا اللقب كان مألوفاً عند العرب وقتئذ، فقد كان سعد بن أبي وقاص أحد قواد جيوش العرب في فارس يدعى بأمير المؤمنين أيضاً. نفسه. أنظر أيضاً.
Ency. de l' Isl, (art Amir al-Mu'minîn) 2 ed. t I, p. 445.

(٦) المقدمة، ص ١٧٩، ٢١٩؛ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبعة مصر ١٣١٧ هـ، ٤ ص ٩٠. (٧) هذه تستند أيضاً إلى القرآن: (قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ٤٩ : ١٤).

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٩.

(٩) الكامل، ٢ ص ٢١٠؛ أنظر .Ency, de l'Isl, t 3, p. 1051 وهي ماتت سنة ٢٦ / ٦٤٦. الكامل، ٣ ص ٤٧.

(١٠) أنظر Cheira : La lutte, p. 44.

ولكن ما أن تولى عمر الخلافة حتى أمر بعزل[١] خالد بن الوليد من قيادة الجيش فى الشام، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح، أحد قواد الحملة فى الشام . ويبدو أن عمر اتخذ هذه الخطوة لأنه كان قد غضب من أن خالداً سعى إلى تولية علىّ بن أبى طالب بعد موت النبى[٢] ؛ وإن كان من الجلى أن الرجال الأشداء[٣] يخشون الأشداء مثلهم، وعلى الأخص شخصية قائد مثل خالد : فاقىء الردة[٤]، وبطل أجنادين . ولم يخيب خالد أمل المسلمين فيه، أو يعمل على انقسامهم، فلم يعترض على عزله، بل اذعن وعمل كجندى تحت قيادة القائد الجديد[٥]، واستمر يقاتل مع المسلمين ولا يرجع إلى المدينة، حتى توفى بحمص[٦] فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢) . وفى الواقع لم يظفر قائد منذ الإسكندر بمركز يضارع مركز خالد، بحيث أصبح اسمه شيئاً يدل على القوة والبطولة، ويخوّف به الأعداء .

ومع ذلك فإن العرب سارت بخطوات سريعة نحو الاستفادة من نصرها فى أجنادين، فقصد كل أمير إلى ناحية من الشام ليغزوها ويبثها غاراته : فعمرو قصد فلسطين، وشرحبيل الأردن[٧]، وأبو عبيدة وخالد دمشق[٨]، ويزيد

---

(١) ابن الجوزى، تاريخ عمر، ص ٦٧ . أختلف فى تاريخ العزل، فمثلاً ابن الأثير يجعله تارة بعد اليرموك وقبل حصار دمشق (الكامل، ٢ ص ٢٩٣)، وتارة فى أثناء حصار دمشق قبل اليرموك (نفسه، ٢ ص ٢٩٣) ؛ وهذه الأخيرة هى الأصح، كما تؤيدها روايات المؤرخين القدامى مثل الواقدى والأزدى والبلاذرى . أنظر .مثلاً . فتوح البلدان، ص ١١٥.

(٢) الكامل، ٢ ص ٢٧٦ س ١ .

(٣) الواقدى، فتوح الشام، ٢ ص ٦ . أنظر . نص خطاب عمر لأبى عبيدة .

(٤) الكامل، ٣ ص ٧١ س ١٤ .

(٥) نفسه، ٢ ص ٢٩٣ وما بعدها .

(٦) الطبرى (Annales) ١: ٢٦٤٥ ؛ انظر. Caetani : Annali, an 21 no 83 . يقول الذهبى إنه توفى وله ستون سنة ولم يبق فى جسده نحو شبر إلا وعليه طابع الشهداء. أنظر . دول الإسلام، ١ ص ٦ . أيضاً، انظر . معجم البلدان، ٣ ص ٢٩٣ — ٣٤٠.

(٧) فتوح البلدان، ص ١١٦

(٨) الواقدى، فتوح الشام، ١ ص ٣٣ .

الساحل(١) . ولكن أمبراطور الروم أسرع بإرسال جيوش جديدة وصلت حتى شرق الأردن(٢)، مما جر إلى حدوث معارك هامة انتصر فيها العرب ، وهى: «فحل»(٣) ، (فى ذى القعدة ١٣ / يناير ٦٣٥ — قرب عمّان(٤) من أرض الأردن — وهى التى مهدت لسيطرة العرب فى شرق الأردن ، و«مرج الصُّفر»(٥) ،(فى المحرم ١٤ / مارس ٦٣٥) — قرب دمشق(٦) — التى هيأت لهم الاستيلاء على دمشق(٧) ذاتها ، وفتحت لهم طريق الغزو حتى جبال طوروس(٨) ، وحدود بلاد الروم .

هال هرقل انتصارات العرب المتتالية، ووصولهم حتى حدود بلاده فى آسية الصغرى ، فاستجاش الجند من كل شعوب امبراطوريته : من الروم والصقالبة والروس والأرمن(٩)، وحتى من العرب المتنصرة - حلفائهم - بقيادة زعيمهم جبلة ابن الأيهم الغسانى(١٠)، فأقبلوا على العرب فى جحافل عديدة كأنها الجراد(١١)، بقيادة

---

(١) فتوح البلدان، ص ١١٧.
(٢) الأزدى ، ص ٩٤ و ٩٧.
(٣) نفسه ، ص ٩٧ وما بعدها؛ فتوح البلدان ،ص ١١٥.
(٤) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤٠ . اختلف فى ترتيب سنوات هذه المعركة : فقيل إن فحل بعد فتح دمشق فى عام واحد (الكامل ، ٢ ص ٢٩٤ ؛ الأزدى ، ص ٩٤) ؛ ولكن الواقدى يرى أنها قبل دمشق (البلاذرى ، فتوح ، ص ١١٥ ، ١١٨) . ونحن أيضاً نميل إلى هذا الرأى ، من سياق تواريخ المؤرخين .
(٥) فتوح البلدان ، ص ١١٨
(٦) معجم البلدان ، ٥ ص ٢٦٧ ، ٧ ص ١٦ .
(٧) فتوح البلدان ، ص ١٢٠ .
(٨) نفسه ، ص ١٣١ . استولى العرب على عدة بلاد منها : صيدا وجبيل وبيروت وبعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وفامية . أنظر. نفسه ، ص ١٢٧ و ١٣٠ و ١٣١.
(٩) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ١٣ .
(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ .
(١١) نفسه ، ٢ ص ١٢٤ . أختلف فى عددهم : فابن خلدون يذكر ٤٠٠ ألف (المقدمة ص ١٢٥ س ٢٦) ، والأزدى ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف (الأزدى ، ص ١٣٤ ، ١٨٥) ، والبلاذرى زهاء ٢٠٠ ألف (فتوح ، ص ١٣٥ س ٣) ، وابن الأثير ٢٤٠ ألفاً . الكامل ، ٢ ص ٢٨١ .

« باهان »[١]، الذى يظهر من اسمه أنه كان أرمنياً . ولم يكن قصد هرقل من إرسال هذا الجيش الجرار فقط طرد العرب من الشام ؛ وإنما أيضاً غزو الجزيرة العربية[٢]: وكأنه قدّر مدى الخطر على بلاده من وجود العرب فى الشام ، الذين لن يقنعوا به قط[٣]، وإنما قد يسعون إلى غزو بيزنطة ذاتها وقد اصطحب الجيش البيزنطى ـ على عادته فى الحرب ـ القسس والرهبان، الذين وضعوا الأناجيل على صدورهم ، وحركوا الصلبان والمباخر[٤].

أما العرب الذين رأوا تحفز هذا الجيش للانقضاض عليهم ، فقرروا الانسحاب إلى مكان يسهل منه إرسال المدد عبر الصحراء[٥] ، وخصوصاً أن عددهم كان أقل بكثير جداً من عدد عدوهم[٦] . ومع أن بعض العرب نصحوا بالرجوع إلى الجزيرة العربية وترك الشام[٧] ، فإن الأغلبية قررت البقاء فيه، ولم ترهبها كثرة العدو . فقد سبق للعرب أن انتصروا فى أجنادين وفحل ومرج الصفّر على الرغم من قلة عددهم ؛ هذا وإن المعارك على حسب اعتقادهم هى حكم من الله لهم أو عليهم[٨]. ولذلك قال خالد فى هذه المناسبة[٩]، لسنا بمرتحلين « حتىّ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ». أضف إلى هذا ، أن أغلبية المقاتلين العرب كانوا من البدو الفقراء ، فلم يرضوا أن يتركوا الشام الغنى ويرجعوا إلى جزيرتهم القاحلة ، وهاهى بعض عبارات أهل الحجاز منهم[١٠] : « وكيف ندع هذه الأعين المتفجرة ،

---

(١) الأزدى ، ص ١٣٤؛ سعيد بن بطريق، ٢ ص ٤؛ س ١ . ويسمى أيضاً « ماهان ».

(٢) أنظر . Sébêos, p. 96

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٥ س ١٨ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٥٧ ، ٢ ص ١١٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١١٩ .

(٦) يذكر البلاذرى عدد المسلمين ٢٤ ألفاً (فتوح، ص ١٣٥ س ٧) . وابن خلدون لجند الشام وفارس ٣٠ ألفاً (المقدمة ، ص ١٢٥ س ٤ — ٥) ، والأزدى ٣٠ ألفاً (الأزدى ، ص ١٨٥) ، وابن الأثير ٤٦ ألفاً (الكامل ، ٢ ص ٢٨١) .

(٧) الأزدى ، ص ١٣٧ ، ١٥٢ .

(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٦٣ س ٩ .

(٩) الأزدى ، ص ١٥٢ س ١٥ .

(١٠) الواقدى، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١٠

والأنهار والزرع والأعناب ، والذهب والفضة والحرير ، وترجع إلى قحط الحجاز ، وجدوبة الأرض ، وأكل الشعير ولباس الصوف » . ولهذا قرر العرب التراجع - بناء على نصيحة خالد [١] - ونزلوا وادياً يُعرف باليرموك يصب فى نهر الأردن ، يصفه لنا الجغرافيون بأنه [٢] : سهل فسيح صحراء على سيف صحراء الأردن ، يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير .

ولكن الجيش البيزنطى سار فى أعقاب الجيش العربى وعسكر هو الآخر فى وادى اليرموك بإزاء العرب [٣] ، وإن وصل إليه منهوك القوى [٤] وقد أراد باهان بادىء ذى بدىء أن يستميل العرب بترك الشام ، بأن عرض عليهم المال [٥] ، والإبقاء على أواصر الجيرة التى كانت فى الماضى بين الروم وبينهم . ولكن العرب لم يرضوا بغير الحرب ، وبدأوا ينظمون صفوفهم استعداداً للقتال ؛ كما وضعوا النساء والأولاد على جبل خلف ظهورهم [٦] - على طريقتهم فى الحرب - وأخذوا يرقبون الجيش البيزنطى دون أن يستعجلوا الهجوم . وقد أفاد هذا التريث العرب لكثرة ما أتاهم من المدد الذى عبر الصحراء [٧] ؛ هذا فضلاً عن أنهم تمكنوا من استمالة العرب المتنصرة بقيادة جبلة [٨] ، الذين كانوا فى صفوف الجيش البيزنطى ، فالعرب - ولا ريب - يميل بعضهم إلى بعض بحكم الجنس [٩] . ولما استعد المسلمون ؛ وضعف العدو بانسحاب العرب

---

(١) نفسه ، ٢ ص ١١٩ س ١٤ .
(٢) أنظر . ياقوت . معجم البلدان ، ٨ ص ٥٠٤ .
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٢ ؛ انظر . Theophanis : Chronographia, éd de Boor, p. 332 ؛ أنظر . Ency. de l'Isl, (art al-Yarmûk) t4, p. 1223.
(٤) أنظر . Sébêos, p. 97
(٥) الأزدى ، ص ١٨١ .
(٦) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٠ س ١٨ .
(٧) نفسه ، ٢ ص ١١٩ .
(٨) نفسه ، ٢ ص ١٢٨ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٦ .
(٩) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢٤ س ١١ — ١٢ .

المتصرة ، اختارت قيادة العرب بحذق يوم هجومها : فني مساء يوم ذي ضباب شديد، غابت فيه الشمس، وأظلم الأفق ، وعصفت الريح، وسفت الرمال[١]، هاجم العرب هم ونساؤهم[٢] البيزنطيين ، بحيث أن هؤلاء سادت بينهم الفوضى وأخذوا يتساقطون فى الوديان العميقة التى تجاور منطقة اليرموك، حتى سقط منهم عدد كبير[٣]، وتبعهم المسلمون يقتلون الأحياء منهم فى كل وادٍ، وفرت فلول جيوشهم نحو الشمال ؛ وقد دارت هذه الموقعة الخاسمة فى ٥ من رجب سنة ١٥[٤] / ٢٣ أغسطس ٦٣٦ .

وقد كانت موقعة اليرموك حاسمة. تحمّل الروم فيها خسائر فادحة فلم يستطيعوا بعدها أن يرسلوا حملة أخرى كبرى ، بل[٥] ينسب المؤرخون العرب وداعاً رمزياً من هرقل للشام عند هزيمة جيوشه، وهو: السلام عليك يا سورية سلام مودّع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً : «Vale Syria et Ultimatum Vale» .

وعلى العكس مهـد النصر للعرب استعادة المدن السورية التى انسحبوا

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٣٧ س ١٠ ؛ الأزدى ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٨٤ س ٨ .

(٣) أختلف فى عدد القتلى من جانب البيزنطيين ،فيقول الواقدى أو الأزدى إنهم حوالى ١٠٠ ألاف (فتوح الشام ، ٢ ص ٢٣٩ ، الأزدى ، ص ٢٠٧)، والبلاذرى ٧٠ ألفا (فتوح ، ص ١٣٥ س ٩) ، والذهبى ٥٠ ألفاً (دول الإسلام ، ١ ص ٤) ، أما Sébêos فيقول ألفين فقط ؛ انظر Op. cit, p. 98.

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٣٧. تخلط الروايات العربية بن اليرموك وأجنادين ، ولكن النصوص المتقدمة تشير دائماً الى أن أجنادين قبل اليرموك (الأزدى ، ٨١ س ١) ، ولعل الاضطراب جاء من أن المؤرخين المتأخرين (الكامل ، ٢ ص ٢٨٧) ، بعد بهم الوقت عن هذه الوقائع الأولى . ويحاول بعض المؤرخين الحديثين إيجاد تعليل ذلك الاضطراب بوجود بلد اسمه يقرب من اسم أجنادين قرب اليرموك ، مع أن هذا البلد لا وجود له عند ياقوت (معجم البلدان) . أنظر : De Goeje . Mém sur la conquête. de la Syrie 2éd.. p. 59 suiv ؛ Encv. de l'Isl, t. 4, p 1223. ؛ تاريخ الشعوب ، ١ ص ١١٣ هامش (١٧) .

(٥) الأزدى، ص ٢١٣ س ١٣ — ١٤ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 45. أورد هذه الصيغة اللاتينية الكاتب المعروف الأستاذ العقاد فى كتيبه الشهير عن « معاوية » . أنظر . كتاب الهلال ، عدد ٥٥ ، ص ٤١ .

منها ، فزحفوا من جديد على دمشق ، التي رحب أهلها بهم (١) ؛ ثم أخذت المدن تتساقط الواحدة بعد الأخرى (٢)، ولم تعد الحاميات الرومية الباقية فى أى مكان فى الشام قادرة على صد اندفاع جيوش العرب الفتية . ولكن « إيلياء (٣) » (بيت المقدس) فى فلسطين اشترطت أن تسلم للخليفة نفسه ، على أن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم ؛ فقبل عمر وقدم فى سنة ١٧/٦٣٨ (٤)، وشوهد راكباً بعيراً أحمر ، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء (٥) ، ودخل القدس التى سلمها إليه البطريرك اليونانى صفرنيوس «Sophronios»، فمنح أهلها النصارى دون اليهود الأمان (٦)، وصلى هناك ركعتين على الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذى عرف باسمه (٧) .

ولا ريب أن مجىء عمر ، وقبوله تسلم القدس يدل على مدى اهتمامه بالشام؛ وقد كان أن نظر العرب إلى هذا القطر نظرة جديدة ، حيث أنهم ، أعتبروه فيما بعد فى عهد الأمويين (٨)، أرضاً عربية أفضل من الحجاز: لغناه وموقعه الممتاز ووجود الصخرة المقدسة به (٩). وقد انتهز عمر فرصة وجوده بالشام ، وعقد فى «الجابية» (١٠)

---

(١) الأزدى ، ص ٢٠٨ .

(٢) الوقداى ، فتوح الشام ، ٣ ص ٢٠١ س ١١ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٤٤ ؛ انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩٢ — ٣٠٣. أصل هذه التسمية غير معروف ، ولعله على اسم أحد الأباطرة ، المسمى هدريانوس « أندريانوس » ، الذى أخرج اليهود وأسكن اليونان . سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) البلاذرى ، فتوح، ص ١٣٦ س ٢ .

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٥٧ .

(٦) أغابيوس (Agabios) ، العنوان ، تحقيق (Vasiliev) ، ٢ ص ٢١٥ ؛ سعيد بن بطريق ، ٢ ص ١٧ .

(٧) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٦٧ س ٦ .

(٨) أنظر . بعده .

(٩) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١.

(١٠) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ س ٨٨ ؛ الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١ . أنظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣ ؛ قبله .

عاصمة الغساسنة [١] - مؤتمراً من قواده، وضع فيه خطة استمرار الغزو، وأفضل السبل للاحتفاظ بالبلاد المفتوحة [٢]، فى الشام والعراق.

والواقع إنه بعد موقعة اليرموك لم يعد فى الشام مقاومة إلا فى المدن الساحلية [٣]؛ التى كانت بيزنطة تحتفظ بها عن طريق تموينها من البحر، أوكانت قد استعادتها قبل وقعة اليرالوك [٤]. وعلى الرغم من حدوث طاعون شديد سنة ١٨ (٦٣٩)، عرف بطاعون عمواس [٥]- قرية من أرض فلسطين-توفى فيه كبار قواد الشام المعروفين، وهم [٦]: أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان، وغيرهم من الصحابة؛ فقد استمر العرب قابضين على زمام السيطرة فى الشام، ولم تستطيع بيزنطة استعادة ماضاع. بل عمل معاوية - الذى ولى الشام بعد موت أبى عبيدة ويزيد ابن أبى سفيان - على الاستيلاء على المدن الساحلية؛ وبذلك تمت فتوح الشام.

وبعد الشام جاء دور بلاد الفرس، ونقصد بها البلاد التى سماها العرب «فارس» أو اليونان «Persis»: وهى تلك الهضبة [٧] أو منطقة الأستبس من الأراضى

---

(١) أنظر. قبله.

(٢) يقول الواقدى إنه «دون الدواوين». فتوح الشام، ٣ ص ٢٧١ س ١٠.

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ١٣٧، ١٤٠ — ١٤١.

(٤) الكامل، ٣ ص ٣٩٦.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ١١٦؛ انظر.
Encv. de l'Isl. (art 'Amwâs) tI. p. 460.
روى أنه مات فى هذا الطاعون نحو خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين

(٦) هذه الكلمة «فارس» معربة عن الفارسية «فارس» أو «مارس»؛ وهى تعنى المنطقة الواقعة شرق دجلة، وإن أطلقها اليونان على جميع بلاد الفرس. ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٣٢٤ — ٣٢٥؛ انظر. Massé: Civil, Iran, p.; Le Strange: The Lands of the Eastern caliphate. Cambridge, 1930, p. 248.

(٧) أنظر. H. et Del: Op. cit, p. 3—4 et cartes.

الصلبة والصحارى والجبال : التى تمتد فى الجنوب إلى ساحل بحر الهند ، وفى الغرب إلى الخليج العربى (الفارسى) ودجلة والفرات ، وفى الشرق إلى السند ، وفى الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون [١] .

ومنذ الزمن القديم كانت بلاد الفرس مقاماً لهجرات متعددة من أجناس البحر الأبيض [٢] ، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآرى [٣] « Aryas » الذى ظهر على الخصوص فى المنطقة الشمالية الغربية من الهضبة ، أوما يُعرف بميديا « Mydia » [٤] ، وهى التى سماها العرب « بالجبال » [٥] لكثرة جبالها . ويظهر أن الآريين — وبهم سميت إيران [٦] — كانوا يسكنون أول الأمر هذه البلاد مع الهندوس الذين غادروها إلى الهند ، بدليل تقارب اللغتين : الزند [٧] الإيرانية والسنسكريتية الهندية . ولكن جاء إلى بلاد ايران هجرة الفرس ، وهم من الآريين أيضاً ، التى امتدت على الخصوص حتى دجلة ؛ فعرفت بهم المنطقة التى سميت « فارس [٨] » شرق الدجلة ؛ وإن اندمجوا مع العناصر السابقة فى أنحاء إيران ، وكونوا الشعب الذى سماه العرب : « العجم [٩] » ، كما ظهرت لهم اللغة التى عُرفت « بالفهلوية [١٠] » .

وقد كانت هذه الهجرات المتعددة سبباً فى حدوث اضطراب فى بلاد الفرس ،

---

(١) وهو نهر ببلاد خراسان يحدد منطقة ماوراء النهر ، ويعرف أيضاً بنهر بلخ (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٨٨) ، أما اليونان فيسمونه Oxus . أنظر Le Strange. Lands of the East., p. 8

(٢) أنظر H. et Del. : Op. cit, p. 47 sqq.

(٣) أنظر De Lafont. : Le Mazdéisme. L'Avesta. Paris. 1897, p.19.

(٤) أنظر Le Strange : Lands of the East, p. 5.

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٤ — ٤٥ .

(٦) أنظر Le Strange : Lands of the East, p. 248.

(٧) ابن صاعد ، ص ٦ ؛ انظر De Eafont : Le Mazd, p. 20.

(٨) أنظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٢٤ .

(٩) الكامل ، ٢ ص ٣٦٨ .

(١٠) ابن صاعد ، ص ٦ ؛ التنبيه ص ٧٨ ؛ براون ، تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة الشواربى ، القاهرة ١٩٤٠ ، ٢ ص ١١ .

عما أطمع فيها ممالك العراق كالآشوريين والبابليين [١]، الذين كان أغلبهم من الجنس السامى [٢] . ولكن الفرس استطاعوا أن يوحدوا بلادهم بقيادة كورش الأكبر [٣] « Cyrus » (٥٥٨ - ٥٢٩ ق . م) ، الذى أسس فى فارس الدولة الهخامنشية أى العظيمة ، وهى التى أطلق اليونان عليها الاسم المحرف: الأكمينية «Achaemenid» [٤]. وقد استطاع كورش الأكبر هذا سنة ٥٣٩ [٥] ق.م. القضاء على بابل « Babylonia » ، وكان جده المسمى أيضاً كورش قد استولى على نينوى « Ninive » عاصمة أشور سنة ٦١٤ [٦] ق م . ؛ كما أن خلفاءه اشتهروا بحروبهم ضد مصر [٧] ، والمدن اليونانية [٨] ، ومدوا سيطرتهم من النيل حتى التركستان [٩] . ولكن الإسكندر الأكبر استطاع أن يقضى على هذه الدولة سنة ٣٣١ [١٠] ق.م؛ بحيث أن بلاد فارس تفرقت إلى قطيعات على كل منها ملك؛ وإن خضعت حوالى سنة ٢٤٧ ق . م إلى أسرة الأرشكانيين [١١] « Arsacides » التى ظهرت

---

(١) أنظر . Op. cit, p. 187. : H. et Del

(٢) أنظر . La Civilisation Babylonienne, 1945, p. I.:Pirenne

(٣) سعيد بن بطريق ، ١ .ص ٧٢ . وهو كورش الثانى . أنظر . H. et Del : Op. cit. p. 231.

(٤) أنظر . سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ Herodotus I. 123—130 ؛ La Civil. Iran, p. 48. : Aymard

(٥) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ Op. cit, p. 239—249. : H. et Del

(٦) أنظر . Op. cit. p. 225. : H. et Del

(٧) أنظر . Herdotus I. 1—4,9—16

(٨) أنظر . فشر ، تاريخ أوربا فى العصور القديمة ، ترجمة نصحى وعواد ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٤٣ وما بعدها ؛ Civil. Iran, p. 48. : Aymard

(٩) أنظر . Civil. Iran, p. 33: Massé

(١٠) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ١ ص ٥٠؛ انظر . Op. cit.: H. et Del. p.321 .

(١١) نسبة إلى أرشك الأول Arasaces (٢٤٨ — ٢٣٦ ق . م) مؤسسها ، الذى ينتسب إلى دولة الأكمينيين . حسن بيرنيا ، إيران قديم ، ص ١٢١ وما بعدها ؛ انظر . Op. cit, p. 320. : H. et Del.

فى بارث (١) ، وهى خراسان الحالية ؛ فختمت عليهم الظروف مهمة قتال السلوقيين (٢) خلفاء الإسكندر فى الشرق - فكان الملك منهم يلقب «بشاهنشاه (٣)» أى ملك الملوك ، وهم الذين يسميهم العرب «ملوك الطوائف (٤)» . ولكن هذه الدولة الممزقة توحدت من جديد على يد «الساسانيين (٥)» سنة ٢٢٤ ب م ، بقيادة أردشير (٦) ، وهى الدولة التى حاربها العرب .

ولم يكن السبب الذى مهد لفتح العرب فارس فى عهد هذه الدولة : هو أن قواها كانت قد أنهكت فى حروب مستمرة مع الرومان ، ثم مع الروم ، أو حتى مع العناصر المغولية المعروفة «بالهياطلة (٧)» ، التى هددت حدودها الشمالية منذ القرن الخامس الميلادى ؛ ولكن أيضاً بسبب سوء حكم ملوكها ؛ فقد كان ملوك هذه الدلة يستبدون بشعب فارس ، ويحكمونه بالحق الإلهى المقدس ، معتبرين أنفسهم ظل الله على الأرض (٨) : فكان الشعب ينظر إليهم بعين الكراهية . وقد زادت

---

(١) أنظر أيضاً حسن بيرينا ، إيران قديم ، ص ١٢١ وما بعدها ؛ H. et Del : Op. cit, p. 321.

(٢) تنسب هذه الدوله الى Seleucos ، أحد قواد الإسكندر ، وهى حكمت فى الشرق من ٣١٢ ق.م. إلى ٨٤ ق.م. أنظر Bevan. : Histoire des Lagides, p. 43. ؛ قبله .

(٣) أنظر . Massé : Civil. Iran, p. 88.

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ س ٤ — ٥ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر ، ١ ص ٤٧ ؛ انظر H. et Del. : Op. cit. 341. ؛ Ency. de l'Isl, t 4, p. 186 sqq • نسبة إلى ساسان جد أردشير ، مؤسس الدولة ، ويبدو أن اسمه مشتق من لقب فارسى قديم يعنى قائد القواد. أنظر . دونالد ، إيران ، ترجمة عبد النعيم ، ص ٤٢ .

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠٦ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٧٩ .

(٧) يقول البلاذرى عنهم إنهم ترك أو فرس (فتوح ، ص ٣٩٤) ، ولكن المقصود بهم قبائل مغولية تعرف الأوربيين باسم الهون البيض ، كانت قد ظهرت فى القرن الخامس الميلادى واستولت على حدود إيران الشمالية . أنظر . شعيرة ، الممالك الحليفة ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة فاروق (الإسكندرية حالياً) ، المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ ، ص ٤ . أنظر Gaudefroy-Demombynes. : Le Monde musulman et byzantin, Paris. 1931. p. 1.

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ س ٩ — ١٠ .

الهوة عمقاً بين الشعب والملوك ؛ بسبب أن هؤلاء عملوا على تقوية نفوذ رجال الدين [١] ؛ بقصد الإبقاء على طغيانهم ومباركته ، وتمسكوا بالمبدأ القائل : بأن الدولة والدين أخوان [٢] ، فحاربوا كل حركة دينية إنشقاقية .

ومع ذلك فإن دين الفرس القديم ، وهو ما يُعرف بالمجوسية [٣] ـ كسكل ديانة ـ لم يكن يقبل الاستبداد : فهو فى أصله يعترف بإله عادل [٤] ، يتمثل فى خالق العالم وكل ما فيه ، اسمه « آهورامزدا » ، ويُرمز له بالنور [٥] . أما عناصر خالق هذا الإله فهى بخاصة ما يُعرف بلفظة « يزت » ، أى ما يستحق الإعجاب ، مثل : الشمس والماء والريح والأرض ، وهى عناصر ضرورية للوجود [٦] . ولكن هناك الشر المسمى « أهرمن » ، الذى لا يخلق وإنما يهدم ، ويُرمز له بالظلام [٧] ؛ وأنه فى عداء مستمر مع الخير ، إلا أن الخير يفوز فى نهاية الأمر [٨] ، ويعيش

---

(١) أنظر . Hist.des Rel., p.140.:Saurat:Ency. de l'Isl,4, p.187

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ٢ ص ١٦٢ .

(٣) هى كلمة فارسية انتقلت الى العربية لتدل على دين الفرس ، والمؤمن بهذه الديانة يسمى « مجوسى » مثل يهودى ، والجمع مجوس (أنظر من هذه الأخيرة القرآن ٢٢ : ١٧) ؛ وهى ـ بحسب رواية العرب ـ ديانة تنسب الى شخص معين اسمه منج كوش ، ظهر قبل زردشت ـ ستتكلم عنه ـ الذى بشر بها ، ومن اسم منج كوش أخذت لفظة « المجوسية » . لسان ، ٨ ص ٩٨ — ٩٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Madjûs) t3, p. 101 .

(٤) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٨٣ ؛ انظر . De Lafont: L'Avesta,p.142;151.

(٥) هذا الأسم مكون من « آهورا » أى الخالق ، « ومزدا » أى المعرفة أو الخير . أنظر . L'Avesta.p.139 ;144 :Benveniste: The Persian Religion, according to the Chief Greek texts, p. 15.

(٦) أنظر . L'Avesta.p.180 sqq :The Pers.Rel,p.27: H. et Del; Op. cit, p 408. ؛ عبد الله رازى ، تاريخ إيران ، طهران ١٣١٧ ش ، ص ٢٢ .

(٧) أنظر . The Pers. Rel, p. 15 : L'Avesta, p. 147 ; 152

(٨) أنظر . L'Avesta, p. 148 ؛ الرازى ، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٨٦ .

الناس فى هناء . كذلك الإنسان يحاسب على عمله بعد موته [١] ، وتوزن حسناته ، فإذا أحسن عبر الصراط « بُل چينوات » إلى الجنة حيث يوجد عرش الخالق آهورا مزاد ، أما إذا أساء فذهب إلى الجحيم التى هى عذاب [٢] .
ولذلك كانت المجوسية ديانة رمزية ، لا تعتقد فى التماثيل كما عند المسيحيين أو الوثنيين ، وإنما تشعل النار « أتش » وتعظّمها فى المعابد : « بيوت النيران » [٣] ، أو تشعلها على رءوس الجبال ، على أنها مصدر النور ، الذى هو أساس الخير الذى يحرق الشر . [٤]

وكان رسول هذه الديانة إلى الفرس نبي اسمه زَرَدُشت أُوزرتَشت « Zarathustra » [٥] ، ظهر فى عصر قديم فى منطقة ميديا — وهى منطقة الجبال — موطن الآريين ، ودعا الفرس إلى ما سماه الدين المجوسى — وهو دين الفرس الأول — وحضهم على ترك السحر ؛ وحاول تفسير الوجود على أساس مبدأى الخير والشر ؛ ولذلك عُرفت هذه الديانة للعرب أيضاً « بالثنوية » [٦] ، أو حتى بالمزدية نسبة إلى آهورامزدا . وهذا الخير والشر نجد له شبهاً فى عقائد المسلمين ، حيث توجد فكرة الخير ممثلة فى الله ، والشر فى

---

(١) أنظر . L'Avesta, p. 179

(٢) أنظر . Ibid, p. 222 ; 224 ; 225 : 226

(٣) ابن ساعد ، ص ١٧ ؛ The Pers. Rel, p. 23 : L'Avesta, p. 180 ؛ الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ ، ١ ص ١٩٧ .

(٤) أنظر . L'Avesta, p. 151

(٥) ابن حزم ، الملل ، ١ ص ١١٥ ؛ الرازى ، إعتقادات ، ص ٨٦ ؛ L'Avesta, p. 151—152 ; 201 ؛ أنظر . Hastings : Ency. of Relig. and, Ethics, 12 ,p. 807 . هذا الاسم معناه النجم الذهبي . أنظر . L'Avesta, p. 109-110
. يقول الرازى ظهر زردشت فى آذربيجان ؛ وهو ولا ريب شخصية واقعية ، دعا فى أول الأمر عشيرته ، وهاجر إلى خراسان ، فآمن به الملك بشتاسف وابنه اسبنديار ، وكانت له ثلاث زوجات . أنظر . L'Avesta, p. 114 sqq

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ س ٥ .

إبليس أو الشيطان . وقد جمع زردشت هذه العقائد من تراث الأجداد الديني في عدة كتب أو سور[١] ، تشتمل على أغاني وحكم مسجوعة وحوار بينه وبين آهورامزدا ، سماها : « الأفستا »[٢] ، أي النص الأصلي ، وهي عربت باسم : « الأبستاق » أو « الأبستا » .

ثم ظهرت حركات دينية إصلاحية ترمي إلى جعل الدين المجوسي القديم يتلاءم مع تطور الزمن والمجتمع الفارسي الجديد : الذي ظهر من إندماج الهجرات المختلفة في إيران ، وخصوصاً أن ملوك الفرس الذين كانوا يقيمون في إصْطَخْر[٣] « Persopolis » ، أو غيرها في داخل البلاد ، انتقلوا في عهد الساسانيين إلى الطيْسَفون[٤] « Ctésiphon » ، عند وسط دجلة والفرات ، فاقتربوا من مواطن اليابان والمسيحية ، بل إنهم بنوا مدينة جديدة سموها : « جُنْدَيسَابور[٥] » ،

---

(١) أنظر . L'Avesta. p. 8 . أشهرها كتب : ونديداد ويسناويسپرد وكاتا . Ibid, p. 81 sqq . يذكر المسعودي أسماء أخرى . أنظر التنبيه ، ص ٩١ — ٩٢ . كما أن للأفستا شرحاً اسمه « الزند » (الكامل ، ١ ص ١٤٦) ، وشرح الشرح اسمه « بازند » . نفسه ، ١ ص ١٤٦ ؛ التنبيه ، ص ٩٢ ؛ أنظر . Horn : Geschichte der Persichen Litteratur. Leipzig, 1901, S. (2)

(٢) يظهر أن جزءاً كبيراً من الأفستا أحرق أيام غزوة الإسكندر (التنبية ، ص ٩٢) ؛ وإن ذكر Burnouf أن بقية الكتاب كادت تضيع عند غزو المسلمين ، لولا هروب بعض الفرس ، الذين عرفوا بالبارسيين إلى الهند . أنظر Ency. de l'Isl, (art Pârsîs) t 3, p. 1097 L'Avesta. Préface, p. IX :

(٣) معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ . كانت عاصمة الأكمينين . أنظر The Lands of the Eastern caliphate, p. 6 ; 275 : Le Strange اسمها بالفارسية تخت جشيد .

(٤) نفسه ، ٦ ص ٥٠٨ ، ٧ ص ٤١٣ . ولعلها أنشئت في عهد البارتيين ، وهي مسكن الملوك الساسانيين ، فكان كل واحد منهم إذا ملك ؛ بنى لنفسه مدينة إلى جانب التي قبلها وسماها باسمه ، وإن كان أشهرها فرهادسوم « توسفون » ، التي عربها العرب إلى الطيسفون والطيسفونج ، ولذلك سميت في العهد العربي « بالمدائن » ، لكثرة مدنها . أنظر . Ency de l'Isl. (art al-Madâ'in) t 3, p. 76 sqq.

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ١٤٩ — ١٥٠ ؛ تاريخ النسطوريين (في P. O) ٤ ١ ص ٢٢١ [١١] : وهي تنسب إلى سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢ م) .

فى خوزستان شرقى الخليج العربى (الفارسى)، ليقيموا فيها ما كانوا يجلبونه من سبى الروم أو المسيحيين ؛ مما جعل ثقافة البحر الأبيض وديانته تنتشر فى فارس . ومع ذلك لم يعترف ملوك الفرس الساسانيون بضرورة الإصلاح ، وتمسكوا بالدين المجوسى على علاته ؛ مع أنه كان قد أهمل فى عهد ملوك الطوائف[1]، الذين استعاروا كثيراً من سبل الحياة من اليونان ، مما كان له أثره فى اضطراب البلاد .

وقد ظهر فى أخريات أيام الملك شهبور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) — سابور[2] — رجل يدعى مانى[3] ؛ وإليه تنسب فرقة المنانية أو المانوية ، وادعى بأنه ملك موهبة النبوة وهو فى سن الثانية عشرة ؛ فكان يأتيه الملك المسمى « التوم » برسالة مؤداها : تخليص الإنسانية من دنس المادة . وقد آمن مانى بزردشت وعيسى[4]، وآمن بالخير والشر ، ودعا إلى الزهد ورفض الدنيا ومقاطعة النساء ؛ لينقطع النسل ويضمحل العالم الجسدى[5] ، وكان يؤمن أيضاً بالتناسخ[6]. ولما كانت الأرواح الطاهرة الإلهية قد امتزجت بالأبدان النجسة ، فإنه شرّع الصيام[7]، وفرض الصلوات[8] : بأن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجارى أو غيره ، ويستقبل النير الأعظم قائماً ،

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ ؛ انظر : Op. cit, p. 345.: H. et Del

(٢) أنظر : Op. cit, p. 343 : H. et Del

(٣) اليعقوبى تاريخ ، ١ ص ١٨٠ وما بعدها ؛ ابن اسحق الوراق ، المنانية ، تحقيق Fluegel ، ص ٤٩ وما بعدها .

(٤) ابن حزم ، الملل ، ١ ص ١٠٢ .

(٥) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٠٢ ؛ انظر . Hist. des, : Saurat Rel, p. 139.

(٦) تاريخ النسطوريين ، (فى .P. O) ، ١/٤ ، ص ٢٢٨ [١٨] .

(٧) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٠٢ .

(٨) محمد بن اسحق الوراق ص ٦٤ وما بعدها .

ثم يسجد ويقوم ويذكر بعض التسبيحات ؛ فتكون إحدى الصلوات عند الزوال ،والثانية بين الزوال وغروب الشمس ، ثم صلاة بعد غروب الشمس ، ثم صلاة العتمة بعد المغرب . وظهر أن مانى ذهب إلى الهند وبشر فيها أيضاً بمذهبه[(١)]، كما أرسل تلاميذه حتى اليمن[(٢)]. وتعتبر الدعوة المانية إلى الزهد مرآة للحياة التعسة التى كان يعانيها شعب فارس فى ظل دولة الساسان . ويظهر أن مانى هرب فى آخر أيام شهبور ، فلما جاء بهرام الأول (٢٧٣ – ٢٧٠م ، دعا مانى واتهمه بالخروج عن الدين المجوسى وقتله ، ثم صلبه على باب مدينة جند يسابور، كما قتل من أتباعه اثنى عشر ألفاً . ومع ذلك انتشرت المانية بعد ذهاب مانى بين الفرس وفى خارج بلادهم ، فنذكر ممن تأثر بمانى كثيراً من بطاركة بيزنطة[(٣)]، وبقيت هذه الديانة إلى العهد الإسلامى[(٤)] .

والظاهر أن هذا الاضطهاد الدينى لم يمنع من ظهور حركة أخرى ، تهدف إلى إصلاح المجتمع الفارسى . فبعد قرنين من ظهور مانى ، قام مزدق[(٥)] (مزدك) فى عهد الملك قباذ الأول (٤٨٨ – ٥٣١ م) بحركة جديدة ، فى الوقت عينه الذى ظهرت فيه فى الهند حركة دينية ؛ لإصلاح مفاسد الديانة البرهمانية . وقد آمن مزدق – مثل مانى – بالنور والظلمة ،

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨١ .

(٢) تاريخ النسطوريين (فى P. O.) ، ٤/١ ص ٢٢٧ [١٧] .

(٣) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٣٨ . نذكر ممن تأثر بمانى الفيلسوف أو غسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) ، الذى ظل مانياً عهداً طويلاً ، قبل اعتناقه النصرانية . دراز ، الدين، ص ١١ ، Hist. des Rel., p. 261 - 3. : Saurat

(٤) أنظر . محمد بن اسحق ، ص٦٦ . كانت تسمى الديناورية فى عهد الخليفة الأموى: الوليد بن عبد المالك . أنظر . بعده .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٦ ؛ الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٩٦ ؛ أنظر . Ency. de l'Isl, (art Mazdak) t 3,p. 492 sqq

ولكن امتازت تعاليمه بالإصلاح الداخلي والإشتراكية الصريحة (١) : فهو قد فسر الأفستا لصالح الشعب ، فكان يرى (٢) : أن الله جعل الأرزاق فى الأرض ؛ ليتقاسمها العباد بينهم بالسوية، حتى لا يكون لأحدهم فضل على الآخر ، ولكن الناس تظالموا وتغالبوا، فغلب الأقوياء الضعفاء، واستأثروا بالأرزاق والأموال عليهم، والواجب المفروض أن يؤخذ للمقلين من المكثرين ، حتى يتساووا فى الأملاك ،ومن كان عنده فضل من الأموال والنساء والخدم والأمتعة فما هو أولى به من غيره. وقد مال الفقراء إلى مزدق وأحبوه حباً شديداً، وأعتقدوا فيه النبوة، وخصوصاً أن المجاعة كانت تعم إيران وقتئذ، وأهلكت كثيرين(٣). ويظهر أن الملك قباذ قبل الانخراط فى سلك دعوة مزدق (٤)؛ لرغبته فى الحد من نفوذ طبقة رجال الدين « الموابذة(٥)» ،وطبقة الحكام « المرازبة (٦)» : فالأولى كان يعتمد عليها فى مباركة حكمه مما جعلها تسيطر على كل شىء ، والثانية كانت تقوم بإمداد الجيش بالجند، بحيث كانت تسيطر على المملكة . وقد كان أن حشر مزدق الغوغاء والمساكين ، وجعلهم

---

(١) أنظر . Nöldeke : Geschichte der Perser. Leyde, 1879, p. 455 — 467

(٢) التنبيه ، ص ١٠١ — ١٠٢ ؛ الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس . ص ٦٠٠ ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ٢٠٦ س ١٥ وما بعدها .

(٣) الثعالبى ، ص ٥٩٧.

(٤) نفسه، ص ٥٩٦ ؛ انظر . Christensen: Le règne de roi kawâdh et Ie Communisme mazdakite, (Det Kgi Danske Videnskabernes Selskab, Hist - Filol Meddelelser t. Ix, no. 6). kopenhague, 1925.

(٥) كان رئيس هذه الطبقة يسمى موبذان — مفردها موبذ — أى أعلم العلماء ؛ وهم طبقات. الشهرستانى ، ص ١٨٠ ؛ انظر . Huart : la Perse Antique. Paris, 1925, p. 169 sqq.

(٦) « المرازبة » واحدها « مرزبان » ، وهو صاحب البلد وبخاصة الثغر ، لأن « المرز » هو الثغر . اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٠١ ؛ التنبية ، ص ١٠٤ ؛ انظر . Huart : la Perse Antique, p. 170. ؛ Ency. de l'Isl, t 3, p.360. كان من نظام المرازبة ألا يعد بعضهم بعضاً إلا بإذن الملك . الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٣،٧.

يسيطرون على المملكة(١) ، وأغضى قباذ عن نفوذ مزدق خوفاً من العامة، بل منع مزدق الملك نفسه من حاشيته(٢) .

ولكن خلفه خسرو الأول (٥٣١ — ٥٧٩ م) ، جمع إليه الموابذة والأرستقراطية حتى يستعيد سلطانه المفقود(٣)؛ وخصوصاً أن رجال الدين كانوا لا يستسيغون هذه الآراء الشيوعية في المساواة: إذكيف يعمل الناس بعضهم لبعض مع تساويهم، وكيف يعرفون أولادهم ويصححون أنسابهم إذا تشاركوا في النساء ، وكيف لا تخرب الدنيا مع هذه الحالة . ولذلك أعد الملك عدته فأوقع بالمزدقيين عند النهروان بالقرب من الفرات ، فقتل منهم نحو ثمانين ألفاً(٤) ، وسقى الأرض من دمائهم، وحينما هم بقتل مزدق قال هذا الأخير الذي كان يعتقد أن حركته الإصلاحية ستبقى بعده : « أو تقدر على قتل الناس كلهم » . وقد سر الموابذة من استعادة الملك نفوذه ونفوذهم ، ولقبوه العادل « دادكر » و « أنو شروان(٥) » ، أي النفس الخالدة .

ولكن خلفه هرمز الرابع (٥٧٩-٥٩٠م) ، الذي وجد أن الأرستقراطية استعادت سلطانها ، وبدأت تتطاول عليه، أراد أن يوجد التوازن باتباع سياسة إصلاحية متأثرة بالحركة السابقة(٦) . ولكن سوء الحظ حالفه فهجم على بلاده الأعداء من الترك والبيزنطيين ، وهم الذين كانوا يترقبون الحالة الداخلية ؛

---

(١) الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .
(٢) نفسه ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ .
(٣) نفسه ، ص ٦٠٢ .
(٤) نفسه ، ص ٦٠٥ . عن النهروان ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٧ .
(٥) الثعالبي ، ص ٦٠٦ . وهذه الكلمة مكونة من آنوش بمعنى خالد ، وروان أي نفس انظر . Op. cit, p. 354 : H. et Del ; Ency. de l'Isl, (art Anûshrwân) 2 ed, tl, p. 520
(٦) الكامل، ١ ص ٢٧٧ وما بعدها، انظر. Les penseurs, : Carra de Vaux de l'Islam, 3, p. 9.

ليطعنوا فارس ، لذلك انتهزت الأرستقراطية ضعف مركز الملك نتيجة لهزائمه ، فعزلته وسملت عينيه ، وقبضت على نواصي الأمور ، وطلبت من ابنه أبرويز خسرو الثاني قتل أبيه . وبعد قتل هرمز أصبح مصير الملوك فى يد الأرستقراطية ، ولذلك لم يستقر الملوك فى الحكم إلا قليلا (١) ، وقد كان منهم النساء والصبيان ، مما أجرى أمور الدولة — كما يقول الثعالبي ، (٢) مؤرخ ملوك الفرس — أسوأ مجاريها ، فتحرك الأعداء ، وتمرد المرازبة ، وهبت ريح العرب . وقد كان آخر ملوك الفرس يزدجرد الثالث ؛ الذى تولى العرش عندما بدأ الفتح العربى لفارس ، وكان هو نفسه غلاماً مراهقا ، ودولة العجم لم يبق منها إلا رمق (٣) .

فنحن نعرف أن العرب كانوا قد بدأوا فى حرب الفرس بغزو منطقة السواد أو العراق ؛ ولكن أخروا فتحهم لفارس إلى ما بعد الانتهاء من معاركهم الأولى فى الشام . ويظهر أن العرب بعد نجاحهم فى الشام قصدوا إلى تكوين أمبراطورية كبيرة فى هذه الناحية ، وخصوصاً أنهم كانوا قد سبروا غور قوة الفرس فى العراق فوجدوها خاوية ضعيفة ؛ كما كان العرب يعتقدون أن النبى قد تنبأ لهم بالاستيلاء على فارس (٤) .

والظاهر أن عمر — كما ذكرنا — لم تكن تعجبه الشخصيات القوية ، فعزل المثنى بن حارثة الشيبانى ؛ الذى كان خالد تركه فى العراق بعد ذهابه إلى الشام ،

---

(١) الكامل ، ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ٢٩٨ ؛ الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٦ .

(٢) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣١ .

(٣) نفسه ، ص ٧٣٧ .

(٤) الكامل ، ٢ ص ٢٦٧ س ٧ .

وولى مكانه أبا عبيد بن مسعود الثقفى (١)، وزوده بالإمدادات ، وبقى المثنى يحارب تحت لواء القائد الجديد ، كما فعل خالد . وقد بدأ أبو عبيد غزواته بعبور الفرات على جسر (٢)، ولكن الفرس ردوا العرب على أعقابهم وكادوا يسحقونهم ، بحيث غرق كثير منهم ، ودهس أبو عبيد تحت أرجل الفيلة (٣). ولم ينقذ فلول الجيش العربى إلا إسراع المثنى — القائد السابق — إلى الدفاع عن الجسر ، وإن كان هو نفسه جرح ، ومات متأثراً بجرحه (٤)، وقد سميت هذه الموقعة الخاسرة بموقعة الجسر ، وكانت فى سنة ١٣ هـ (٦٣٤) .

وفى الوقت ذاته قرر يزدجرد أن يخوض معركة حاسمة ضد العرب ، فندب رستم (٥) — أحد المرازبة الأقوياء — على رأس جيش كبير (٦)، مزود بالفيلة (٧)، لملاقاة العرب ، وقد ساروا ومعهم راية كسرى الكبيرة المسماة : « درفش كاويان (٨)» المصنوعة من جلد البقر ؛ كما اتفقوا مع أهل العراق على القتال معهم (٩). ويظهر أن الخليفة قدر خطورة هذا الزحف ، فأسرع بإرسال الإمدادات التى

---

(١) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١١٢ — ١١٣ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٧ . يقال إن السبب هو أن المثنى لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، على عكس أبى عبيد ، الذى كان قد شهد بدراً . الكامل ، ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٥ .

(٣) الكامل ، ٢ ص ٣٠٢ ص ٤ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٣١١ . وكانت وفاته قبل موقعة القادسية . أنظر . بعده .

(٥) الثعالبى . غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٨ .

(٦) يختلف المؤرخون فى تقدير عددهم ، فمثلاً ابن خلدون يذكر أنهم كانوا حوالى ٢٠٠ ألف أو حتى ٦٠ ألفاً (المقدمة ، ص ٨) ، أما ابن الأثير فيقول إنهم كانوا ١٢٠ ألفاً . الكامل ، ٢ ص ١٣٦ س ٦ .

(٧) المصدر السابق ، ٢ ص ٣١٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٥٨ .

(٨) الكامل ، ٢ ص ٣٠١ ، ٣٣٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ ؛ انظر . H.et Del: Op. cit, p. 359 . هذه الكلمة مكونة من درفش بمعنى علم ، وكاويان بمعنى رأس البقرة ، ويقصد بها العلم الكبير .

(٩) الطبرى (Annales) ١ : ٢٢٣٠ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣١٤ .

سحب بعضها من الشام [١]، ووجه معها الخطباء والشعراء والنساء على عادة العرب فى القتال ، وجعل القائد عليهم سعد بن أبى وقاص [٢]، وهو صحابى اشتهر بشجاعته فى غزوة أحد؛ بل يبدو أن الخليفة عمر فكر فى الذهاب بنفسه للقتال [٣] . وقد تقابل الجيشان فى الصحراء ، عند مكان قرب الحيرة اسمه « القَادِسِيّة [٤] »، وهى التى كانت تُعرف عند العرب فى الجاهلية على أنها باب فارس [٥]. وقد حمى وطيس الحرب بين العرب والفرس، واستمرت المعركة عدة أيام [٦]: وكان العرب يقاتلون بالنهار، ومن يُجرح منهم يُرسل إلى النساء لترعاه [٧]، فإذا جن الليل يدوون بالقرآن دوىّ النحل [٨]. وقد انتصر العرب على الفرس: لتعودهم على الحرب فى الصحارى، كما أن سعد بن أبى وقاص أعلم العرب أن مقتل الفيل من خرطومه [٩]؛ فقتل قائد الفرس رستم ، وأخذت رايتهم الكبرى [١٠]. ويبدو أن هذه الموقعة ، كانت بعد عام ١٥ هـ [١١] (٦٣٦) - وهو عام اليرموك — لكثرة ما أُرسل إلى المحاربين من إمدادات ، وعُرفت عند العرب: بالفتح الأعظم (١٢)، لما ترتب عليها من انتصارات متعددة هامة .

---

(١) كانت العرب فى بضعة وثلاثين ألفاً . الكامل ، ٢ ص ٣١١ ؛ الطبرى (Annales) ١ : ٢٢٦٣ .

(٢) عنه، انظر.الطبرى ١ : ٢٢٢٣-٢٢٢٧، ٢٢٣٠-٢٢٣١؛ انظر Ency. de l'Isl, (art Sa'd b. Abî Waqqâs' t 4, p. 30-31.

(٣) ابن الجوزى، تاريخ عمر ، ص ٦٧ .

(٤) عنها، انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٧ ص ٥ وما بعدها .

(٥) الطبرى ١ : ٢٢٢٨ .

(٦) الكامل ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها .

(٧) نفسه ، ٢ ص ٣٣١ .

(٨) الطبرى (Annales) ١ : ٢٣٦٦ .

(٩) فتوح البلدان، ص ٢٥٨ .

(١٠) الكامل ، ٢ ص ٣٣٥ ؛ تاريخ النسطوريين (P. O.) ١٣ / ٢ ، ص ٦٢٧ [٣١٧] .

(١١) الكامل، ٢ ص ٣٢٧. أختلف فى التاريخ،فقيل فى سنة ١٤ أو ١٥ أو ١٦؛ ونحن رجحنا عام ١٥ هـ .

(١٢) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٤٠ .

استغل العرب النصر فى القادسية ، وما أحدثه من اضطراب بين الفرس، لغزو العاصمة طيسفون(١)، الواقعة عند اقتراب دجلة والفرات، وهى التى أطلق عليها العرب المدائن لكثرة مدنها(٢) . ففتح العرب منها المدينة الشرقية ،وعند ذلك رفع الفرس المعابر وأحرقوا الجسور(٣)، ليمنعوا المسلمين من الاستيلاء على المدينة الغربية، ولكن المسلمين عبروا دجلة سباحة وعبرت الخيل(٤)، وسقطت المدائن جميعها فى قبضة يدهم بكنوزها وإيوانها وقصورها ،وذلك سنة ١٦هـ(٥) (٦٣٧). ولكن يزدجرد الذى رأى إطباق العرب عليه ، أسرع بالانسحاب إلى داخل فارس(٦) ، كما أرسل فى طلب العون ملك الصين(٧) .

ويظهر أن الفرس لم تيئس من ضد العرب ، فجمع يزدجرد فى منطقة « جَلُولاء»(٨) ، جموعاً هائلة ، بعد أن أمر بحفر الخنادق حولها . ولكن العرب الذين كانوا بقيادة سعد بن أبى وقاص حاصروا المدينة، وحملوا عليها حملة واحدة وتمكنوا من دخولها ، وأجبروا الفرس فيها على الهرب ؛ وكان ذلك آخر سنة ١٦ هـ(٦٣٧) . وقد مهد هذا النصر الجديد للعرب عبور جبال زجروس الهائلة إلى هضبة إيران(٩).

---

(١) عنها، انظر. معجم البلدان، ٦ ص ١٣٤؛ وقبله .

(٢) نفسه ، ٧ ص ٤١٣ ؛ انظر . قبله .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٤ .

(٤) أغابيوس ، العنوان ، تحقيق وترجمة Vasiliev ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ ، ٢ ص ٢١١ .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٣٥٤ — ٣٥٨ ؛ Sébêos, p. 99.
المقصود بالإيوان قاعة كبيرة ذات أعمدة سامقة .

(٦) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٧ .

(٧) يروى الثعالبى أن يزدجرد أرسل إحدى بناته إلى ملك الصين. غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٩ .

(٨) البلاذرى ، فتوح ، ٢٦٤ وما بعدها ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٦٢ ؛ الدينورى ، الأخبار الطوال، ص ١٢٨ — ١٢٩ . أنظر أيضاً - معجم البلدان ، ٢ ص ١٢٩ .

(٩) أنظر . H. et Del : Op. cit., p. 359

ولكى يتابع العرب فتحهم المظفر فى فارس عملوا فى سنة ١٧ هـ (٦٣٨) على إنشاء معسكرين على سيف الصحراء لإنزال جيوشهم : فكان أحدهما بقرب الحيرة، وأطلقوا عليه الكوفة(١)، والآخر فى الجنوب عند شط العرب وسموه البصرة(٢)؛ وقد عرف كل من هذين المعسكرين بالمصر(٣)، أى الأرض التى على الحدود، ولأنهما اثنان سميا بالمصرين : كما أنه لقربهما من العراق سميا أيضاً بالعراقين(٤) .

وبفضل إمدادات البصرة والكوفة ذهب المسلمون لمقابلة جيوش الفرس الكثيرة ، التى تجمعت من جديد بقيادة الفيروذان فى مدينة « نهاوند »(٥) القديمة ، بمنطقة الجبال الشمالية موطن الآريين . وقد عمد عمر إلى عزل سعد بن أبى وقاص ، الذى قيل عنه إنه أساء استغلال سلطته فى الكوفة(٦) ، وعين بدلاً منه النعمان بن مقرن المزنى(٧) ، الذى قتل عند إلتقاء الجيشين ، وإن كان العرب نالوا النصر بعد قتال شديد على يد حذيفة بن اليمان . وقد سميت هذه الموقعة التى دارت رحاها حوالى سنة

---

(١) الطبرى (Annales) ١ : ٢٣٦٠؛ الكامل، ٢ ص ٣٦٧؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٣٥؛ Explication du Plan du Kûfa (Irak). Le Caire : Massignon M. I. F, 68, p. 338. يظهر أنها سميت هكذا لاستدارتها ، أو لاجتماع الناس بها . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٢٩٥ وما بعدها.

(٢) عنها ، انظر. معجم البلدان ، ٢ ص ١٩٢ وما بعدها . اشتقاق اسمها من الحجارة التى ليست صلبة ، أو حتى من أصل فارسى ؛ وكانت تقع بعيدة عن الدجلة على عكس ما هى عليه حالياً .

(٣) ولذلك يقال إن عمر : « مصر الأمصار » . البلاذرى، فتوح، ص ٢٧٥ — ٢٧٧؛ انظر. لسان، ٧ ص ٢٤ ؛ Ency. de l'Isl, p. 591

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٣ .

(٥) عنها، انظر. فتوح البلدان، ص ٣٠٥؛ الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٤٣؛ الكامل ، ٣ ص ٢ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٩ — ٣٣٢ .

(٦) ابن سعد ، ١٣ ص ٧٩ وما بعدها؛ Ency. de l'Isl. t 4. p. 31

(٧) كان قد اشترك فى القادسية من قبل . الكامل ، ٢ ص ٣١٥ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ س ١٢ .

١٩ هـ[1] (٦٤٠)بفتح الفتوح ، نظراً لأنها قصمت ظهر المقاومة الفارسية. وبعدها هرب يزدجرد بفلوله منسحباً نحو خُرَاسَان[2] ، وهى البلاد الواسعة فى الشمال الشرقى من إيران .

كذلك خرجت قوات أخرى للتوغل فى منطقة بلاد الجبال ، فاستولت على : دِينَور[3] والرَّىّ [4] و هَمَذان[5] وغيرها من المواقع، فى سلسلة من الانتصارات الرائعة ، حتى أن الخليفة الذى تولى الخلافة بعد عمر اقتصر عمله على جنى الثمر .

وفى الوقت ذاته خرجت جيوش عربية عديدة من الكوفة والبصرة عبر الخليج العربى (الفارسى) : ليغزو بعضها خوزِسْتان [6] ، فى الزاوية المجاورة للخليج؛ فاستولت على مدن كثيرة منها: اصْطَخر[7] (Persopolis)— العاصمة القديمة للفرس — وجُنَدْيسَابور [8] ، المدينة الحصينة كانت معسكراً لأسرى الروم ، واستولوا أيضاً على بعض الجزائر فى الخليج العربى (الفارسى) ، وذلك بعد أن استخدموا السفن لذلك [9] .

---

(١) أختلف فى تاريخ فتحها، فقيل سنة ١٩ أو ٢٠ أو ٢١. مثلاً ، انظر. معجم البلدان ، ٨ ص ٣٣١ .

(٢) تاريخ النسطوريين (فى P. O) ٢/١٣ ص ٥٨١ [٢٦١] ؛ انظر. عن هذه البلاد . ياقوت، معجم البلدان ، ٣ ص ٤٠٧ .

(٣) الذهبى، دول الإسلام، طبعة حيدر آباد ١٣٦٤ الثانية ، ١ ص ٤ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٠٧ . عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان، ٤ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٤) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٥٥ وما بعدها. أختلف فى عام فتحها سواء أ كان فى ١٩ أم ٢٠ هـ ، وذلك على يد عمار بن ياسر عامل الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص .

(٥) ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ ؛ ياقوت ، ٨ ص ٤٧١ وما بعدها . فتحها المغيرة بن شعبة فى حكم عمر حوالى سنة ٢٤ هـ .

(٦) أنظر. Sebêos, p. 101. عن هذه البلاد، انظر. معجم البلدان، ٣ ص ٤٨٨ — ٤٨٩ ؛

(٧) الكامل، ٢ ص ٣٧٧ . عنها، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٦ ؛ Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, p. 6 ; 275. ; Ency, de l'Isl, (art Istakhr) 1 2, p. 592 sqq.

(٨) الكامل ، ٢ ص ٣٧٧ . عنها ، انظر. معجم البلدان، ٣ ص ٤٨٩، ١٤٩ — ١٥٠ . هذه المدينة بناها سابور ذو الأكتاف ؛ وفتحت سنة ١٩ هـ .

(٩) أنظر. Sebêos, p. 101

رأى يزدجرد ضياع مُلكه؛ فولى هارباً إلى سجستان (١) في وسط الهضبة، ومنها إلى كِرمان (٢) ومُكران (٣) على البحر الهندى، ثم إلى خرسان، آملاً أن يجد من المرازبة — حكام المقاطعات — معاونة ليعود إلى مقاتلة العرب. ومع أنه قوبل من المرازبة بالحماس لمقاومة العرب، إلا أن مرزبان خراسان كان قد حقد عليه لرفضه أن يزوجه ابنته، وأزمع قتله بالاستعانة بخاقان الترك(٤)، الذى رحب بالانتقام من عدوه الفارسى؛ فأسرع يزدجرد وابنه فيروز بالهروب، حيث هرب هذا الأخير إلى الصين(٥)، لعله يجد فيها المعاونة، وهى أكبر دول الشرق وقتئذ. ولكن القدر كان يقف ليزدجرد بالمرصاد، فقد أرسل إليه مرزبان خراسان الخائن أحد أتباعه ليذبحه وهو مختبىء فى إحدى الطواحين، وذلك سنة ٣١ / ٦٥١، فى عهد الخليفة الثالث عثمان. وبموت يزدجرد مات آخر الساسانيين، وانتهت مقاومة الفرس الحقيقية؛ ومازالت ذكرى جهاده تعيش بيننا متمثلة فى طائفة فى الهند تعرف بالپارسيين(٦)، تؤرخ لنفسها من يوم توليته العرش.

والواقع إن العرب وجدوا مقاومة شديدة من جانب الفرس، كما وجدوا مشقة كبيرة فى استمالتهم على عكس ما حدث فى الشام، وذلك لأن الفرس كانوا يختلفون بجنسهم الآرى عن الشاميين الذين كانوا من نفس جنس العرب. وسنجد أن فارس ستظل محتفظة بقوميتها متمثلة فى لغتها و نظمها العديدة التى

---

(١) الثعالبى، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٤٧٢ — ٤٧٣، ٧٤٥. عنها؛ انظر. معجم البلدان، ٥ ص ٣٧ — ٣٩.

(٢) معجم البلدان، ٧ ص ٢٤١ وما بعدها.

(٣) نفسه، ٨ ص ١٣٠ ومابعدها. (٤) هولقب تركى معرب أصله «قاغان»، انظر. Ency de l'Isl, (art Khàkàn) 2, p. 926—7.

(٥) لعله هرب أيضاً إلى بلاد الترك. أنظر عن هذا: البلاذرى، فتوح، ص ٣١٦؛ بدر الدين الصينى، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥٠، ص ٢٤، ٣٢.

(٦) أنظر. Menant: Les Zoroastriens de Perse, R.M.M. vol. 3, Oct et Nov. 1907; 10; 11-21; 193-221; 421; 453; Ency. de l'Isl, (art Pârsîs) t 3, p. 1097—1098.

ستنتقل إلى الحضارة العربية ، بل إن الإسلام نفسه تطور فى فارس إلى ما يُعرف بالمذهب الشيعى(١)، بحيث أصبح الإسلام بصفة عامة حتى وقتنا الحاضر : سنة وشيعة .

وبعد أن قام العرب بالاستيلاء على العراق والشام، وخلال انتصاراتهم على الفرس فى إيران، عمدوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على ما يسمونه: «الجزيرة(٢)»، أو ما يُعرف لليونان باسم ميزوبتاميا « Mesopotamia (٣)»: وهى المنطقة الشماليه الخصبة بين دجله والفرات ، التى تجاور الشام ، وتمتد إلى منطقة الدروب(٤) ، عند سلاسل جبال طوروس والجبال الفارسية .

وكان يسكن هذه المنطقة عناصر مختلفة ،: منها: الأراميون الذى عُرفوا غالباً باسم لهجتهم : « السريان(٥)»؛ ولكن قبل الإسلام كانت غالبية سكانها من العرب الذين — على ما يظهر — جاءوها نتيجة للغزوات أو الغارة ؛ فخالطوا أهلها وكثروا بها ، أو لعلهم هاجروا إليها فى عهد الساسانيين(٦)؛ حتى

---

(١) أنظر : René Grousset : L'Ame de l'Iran. Paris, 1951. p.8-9. ؛ Aubin : Le Chiisme et la nationalité persane. R. M.M. Vol 4, Mars 1908 n. (3), p. 457 sqq.

(٢) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٦ . تسمى أيضاً «جزيرة أقور»؛ وإن كنا لا نعرف سبب هذه التسمية .

(٣) Strabo : Geog I 2;34 (Book 1, p. 164)؛ انظر : Le Strange. The Lands of the Eastern Caliphate, p. 24.

(٤) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٨ : — ٩ : . وهذه الكلمة تعنى الطريق بين الجبال .

(٥) مراد كامل والبكرى ، تاريخ الأدب السريانى . القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٣ . وهو لفظ أطلقه اليونان على من يتكلمون إحدى اللهجات الآرامية فى هذه المنطقة .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ ؛ أنظر . Le Strange : The Lands of the East. Caliph, p. 86.

كانت الجزيرة بالنسبة لهم «دياراً» ، عُرفت بأسماء قبائلهم التى استقرت فيها مثل : ديار ربيعة ومضر وبكر وتغلب ؛ كما وجدت فيها بعض عناصر من السكان المجاورين من الأرمن والكرد والفرس .

وقد عرفت هذه المنطقة ديانات متعددة قبل الإسلام، منها على الخصوص ديانة مجهولة الأصل يسميها المؤرخون العرب « الصابئية » أو «الصابية»[1]، التى مركزها حرّان فى وسط الجزيرة[2]. وقد كان أخص ما يميّزها الاعتراف بخالق هو سيد الأرواح «روحانيات[3]»؛ ولذا سُمى أيضاً «رب الأرباب»، وكان الصعود إليه هو بالقيام بصلوات - تشبه صلوات الفرس - عددها سبعة، والصوم ثلاثين يوماً . كذلك كانت هذه الديانة تعترف بمعلمين أشبه بالأنبياء منهم شيث وإدريس مما يدل على قدمها ، ولها كتب مقدسة منها صحف شيث أو « الكنز الكبير[4]». ولكن قبل الإسلام حدث لهذه الديانة المجردة ما حدث للحنيفية فى الجزيرة العربية ، فتحولت إلى عبادة النجوم ، والسيارات

---

(١) الرازى ، إعتقادات ، س٩٠ ؛ الشهرستانى ، الملل والنحل ، ١ ص ١٨٠-١٨١ ، ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ - ٢٤٥ . وهى كلمة سريانية (التنبيه ، ص ٩٠ - ٩١) ، لعلها اسم أحد الفلاسفة أو المعلمين (أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ١٣٢٤ هـ ، ١ ص ٨٢) ، أو أصلها من فعل « صبأ » ، أى خرج من دين إلى آخر ؛ على أنهم فى الظاهر نصارى وفى الباطن عبدة الكواكب . المصباح المنير ، ١ ص ٥٠٩ ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Sâb'a), t 4, p. 22-23.

(٢) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤٢ .

(٣) لعلها الملائكة . المقريزى ، الخطط المقريزية ، طبعة مصر ١٣٢٤ هـ ، ١ ص ٣٦٨ ص ١٦ .

(٤) الأدب السريانى ، ص ١٢ . لا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب ، وإن كان لابد أنه يحتوى على عقيدة الصابية .

السبع : كزحل والمريخ والمشترى والشمس والقمر ... الخ ، أوما عرف «بالهياكل»، على أنها عالية رمزاً للروحانيات. كما أنهم جعلوا لها صوراً أو تماثيل، أوما عُرف «بالأشخاص»؛ فظهرت من هنا عبادة الأصنام، وسُموا : بعبدة الكواكب. كذلك انتشرت فى الجزيرة عدة أديان منها : النصرانية المتأثرة بعقيدة بيزنطة(١)، وبخاصة النسطورية(٢)، بحيث أن قبيلة تغلب(٣) العربية كانت نصرانية ، كما أنه انتقلت إليها المجوسية(٤) من فارس .

وقد نشأت فى هذه البلاد التى كانت فى طريق الغزاة والهجرات منذ أقدم العصور دول سامية عديدة أشهرها أشور(٥): « Assyria »، التى كانت عاصمتها نينوى(٦) « Ninve »على الدجلة. ولكن بعد أن ظهرت فى إيران دول قوية، أصبحت الجزيرة موضع نزاع بينها وبين الدول المسيطرة فى البحر الأبيض. ومع ذلك فقد ظهرت فيها دويلات مستقلة عن هذه الدول الكبرى - تشبه الدويلات الحاجزة فى الشام - ولعل أشهرها دويلة الرُّها(٧)« Edessa » : فهـــذه

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٣ — ١٧٤ ؛ انظر. Les Arabes, : Nau Chrétiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIe au VIIIe siècle. Paris, 1923, p. 5.

(٢) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠٨ ؛ انظر . The Origin, : Bell of Islam, p. 9—10 ; 4 — 25.

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ س ٢٠ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٠٨ ؛ انظر . Op. cit, p. 24. : Nau

(٥) أنظر . The Lands of the East. Caliph, p. 24. : Le Strange

(٦) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٦٨ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ ؛ انظر . الأدب السريانى ، ص ١٢ . وتسمى أيضاً « أذاسا » . معجم البلدان ، ١ ص ١٥٩ .

الدويلة كان يسكنها عناصر آرامية أو عربية ، بدليل أسماء ملوكها مثل[١] : أبجر ووائل ومعين ؛ وقد يكون الفرس هم الذين قضوا عليها [٢] . أما قبل الإسلام فكانت هذه البلاد طائفة منها للروم[٣] ، وطائفة للفرس، أى أنه لم يكن لها كيان مستقل .

ونحن لا نعرف سبباً للغزو العربى فى هذه المنطقة ؛ إلا أن العرب كانوا راغبين فى تأمين[٤] فتوحاتهم فى الشام والعراق وفارس، بدليل أن فتح الجزيرة جاء مترتباً على السير فى حركة الفتوح ؛ وخصوصاً أن العرب كانت تقدّر سهولة فتح هذه البلاد الغنية، التى تقع بين العراق والشام الخاضعتين لهم. ويظهر أن غزوها كان قد قرر فى مؤتمر الجابية ، أو أنه جاء من جانب قائد الشام أبى عبيدة أو حتى من جانب قائد فارس سعد بن أبى وقاص[٥] . كذلك يبدو أن الدافع إلى غزو بلاد الجزيرة ، هو أن الجيوش البيزنطية كانت لا تزال تحتفظ فيها ببعض المواقع[٦]، على الرغم من هزيمتها فى الشام .

وقد بدأ العرب غزوهم بلاد الجزيرة فى آخر سنة ١٨ هـ[٧] (٦٣٩)، بقيادة

---

(١) أنظر . الأدب السريانى ، س ٢ ، ٢٣ — ٢٤ . يقول ياقوت إنهم قبيلة من مذحج. ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر الأخير ، ٣ ص ٩٧ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٤٩ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٦ .

(٤) أنظر . Cheira : La lutte, p. 47.

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ — ٩٨ ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٣ .

(٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٦ .

(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٢ . أختلف فى تاريخ الفتح فقيل أيضاً سنة ١٩ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٣٩٤ . توفى عياض سنة ٢٠ / ٦٤٠ . الكامل ، ٢ ص ٣٩٨ .

عياض بن غنم؛ فاستولى على أهم مدنها ومنح بعضها الأمان، مثل: الرَقّة [٢] على الفرات، وحَرّان [٣] القديمة « Carrhae »، والرُّها التى اتخذها معسكراً لفتح بقية المدن [٤]؛ بحيث وصلت جيوشه إلى طرف بلاد الروم عند سُمَيْشاط [٥]، « Samosate »، وإلى حدود أرمينية [٦] عند نينوى عاصمة آشور القديمة، فبنى بجوارها مدينة الموصل [٧].

بعد فتح الجزيرة وجه العرب حملة لفتح مصر [٨]: وهى البلاد التى تحيط بنهر النيل من حدود أرض النوبة [٩]، إلى ساحل البحر الأبيض، ومن برقة [١٠] إلى

---

(١) معجم البلدان، ٤ ص ٢٧٢؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٧٠.

(٢) البلاذرى، فتوح، ص ١٧٤ — ١٧٥. عن حران، انظر. معجم البلدان، ٣ ص ٢٤٣. فى النقوش السمارية خارنو: بمعنى طريق. انظر. شيدر، روح الحضارة العربية، ترجمة وتعليق بدوى، بيروت ١٩٤٩، ص ٩٩ حاشية (١).

(٣) البلاذرى، فتوح، ١٧٤ — ١٧٥؛ انظر. La lutte, p. 48. : Cheïra

(٤) البلاذرى، فتوح، ص ١٧٤ — ١٧٥؛ Sebêos, p. 99 sqq.؛ انظر. La lutte, p. 49 : Cheïra. عن هذه البلدة، انظر. معجم البلدان، ٥ ص ١٣٨.

(٥) أنظر. بعده.

(٦) تاريخ النسطوريين (فى P. O.)، ١٣/٢ ص ٦٢٨ [٣٠٨]. عن الموصل، انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٨ ص ١٩٥ وما بعدها.

(٧) عنها، انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٨ ص ٦٨.

(٨) عنها، انظر. الإدريسى، المغرب، وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق، تحقيق de Goeje و Dozy، طبعة Leyde، ١٨٦٦، ص ١٣؛ انظر. بعده. هذه البلاد التى تقع جنوب مصر، قد تكون نسبة إلى مدينة نوابة وبها عرفوا؛ انظر. بعده.

(٩) هو صقع كبير يجاور الإسكندرية. أنظر. معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣.

ساحل البحر الأحمر . وكانت هذه البلاد تسمى قديماً بلسان أهلها «كمت»[١] ، أى الأرض السوداء ، وذلك على عكس المنطقة التى تحيط بها ـ فكانوا يسمونها «دشرت» — ومنها أخذت الكلمة الأوربية «Desert» ـ ويقصدون بها الأرض الحمراء أى الصحراء . ولكن غلبت على هذه البلاد التسمية اليونانية الأصل : «Aegyptus»[٢] — ومنها أخذت الكلمة الأوربية «Egypte» — التى لعلها مشتقة من أحد أسماء منف القديمة عاصمة مصر : وهى التى نقلت مختصرة إلى العرب بلفظة «القبط»[٣] ، للدلالة على أهل مصر المسيحيين ؛ فهذه الكلمة الأخيرة مأخوذة من المقطع الأخير من «Aegyptus» . ويظهر أن مصر[٤] لم تسم مصر إلا من الساميين أو من العرب ، حيث تعنى : الأرض التى على الحدود أو الحضر[٥] أو الكثيرة الخيرات[٦] : وقد ورد ذكرها فى القرآن عدة مرات[٧] ، مما يدل على أنها كانت معروفة للعرب فى الجاهلية بهذا الاسم .

ويسكن هذه البلاد منذ قديم الزمان جنس جمع خصال الحاميين[٨] والساميين ؛ وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضعيف من الجنس الزنجى . وقد

---

(١) أنظر . Driot et Vand : Op. cit, p. 3. وربما اشتقت منها كلمة «كيمياء» ، لتدل على العلم الخاص بتحويل العناصر .

(٢) أنظر . Strabo : Geog. 1 : 2; 29 (Book 1—11), p. 131. ؛ انظر . Ency de l'Isl, (art Egypte) t. 2, p. 5.
أصل هذه التسمية غامض ؛ كما أن الأشوريين كانوا يسمونها «هيكوبتاه» ، أى بيت روح بتاح . أنظر . مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، صفحة من تاريخ القبط ، الإسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٩ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٨٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t2, p. 5
يذكر المقريزى أنه اسم جد للمصريين . الخطط ، ١ ص ٢٨ .

(٤) لسان العرب ، ٧ ص ٢٣ — ٢٥ ؛ انظر . صفحة من تاريخ القبط ، ص ٩ . ينسب المقريزى «مصر» أيضاً إلى شخص (الخطط ، ١ ص ٢٧ وما بعدها) ، وهى لم ترد فى كتاب يوحنا النقيوسى إلا لتعنى اسم بليدة غامضة . أنظر ما قيل عن ذلك فى : Ency. de l'Isl, (art Misr) t3, p. 591.

(٥) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود شاكر ، ٢ ص ١٣٢ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٤ .

(٧) القرآن ١٠ : ٨٧ ؛ ١٢ : ٢١ ، ١٠٠ ؛ ٤٣ : ٥٠ .

(٨) انظر . Driot et Vand : Op, cit, p. 3; 18.

استطاع هذا الجنس أن يكوّن حضارة تُعتبر من أقدم الحضارات[١]، التي يمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الإسكندر الأكبر في ٣٣٢[٢] ق.م، وخضعت بعد ذلك للبطالمة والرومان والبيزنطيين، إلى أن جاءها العرب كغزاة. ومع ذلك فمصر خلال احتلال هذه الشعوب الغريبة عنها ظلت تكوّن شعباً منفصلاً في الجنس،[٣] واللغة[٤]، والتقاليد.

ومع أن مصر عاشت بدينها الأول آلاف السنين، إلا أنها اضطرت إلى تركه في ظل الحكم الروماني، بسبب أن المحتل شوهه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه وأباطرته؛ ولذلك تحولت مصر منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي كانت تنادي ضد الظلم الروماني، وفي جوهرها تشبه ديانتها القديمة[٥]. فلعل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح، وهو القديس مرقس[٦]، كما أنه ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة[٧]؛ وإن كان ولا ريب

---

(١) أنظر. Ibid. 16 sqq؛ أيضاً ما يقوله ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) أنظر. بل، ترجمة عواد وعبد اللطيف، ص ٦٠.

(٣) أنظر. Les Fallahs de la Haute-Egypte, trad- : Blackman - Franc. Marty. Paris, 1948, p. 15. وهو يبحث عن الأصل المصري من الناحية الانثروبولوجية حتى وقتنا.

(٤) أنظر. Op. cit, p. 7—8 : Driot et Vand. حيث أن اللغة القبطية هي آخر مظهر للغة المصرية القديمة. أنظر. صفحة من تاريخ القبط، اللهجات القبطية، بقلم يسى عبد المسيح، ص ٣٦؛ أيضاً Coptic Dictionary- Oxford, 1929: Crum.

(٥) فمثلا الثالوث في المسيحية يشبه ثالوث أوزوريس وإيزيس وحورس في الديانة المصرية القديمة؛ كذلك الإيمان بحياة آخرة وخلود الروح والثواب والعقاب وتحريم الطلاق. صفحة من تاريخ القبط، ص ٦٠.

(٦) سعيد بن بطريق، ١ ص ٩٥ س ٥ — ٦.

(٧) أول راهب هو أنبا أنطوان الذي بنى الديارات وجمع الرهبان. أنظر. سعيد ابن بطريق، ١ ص ١٣٧ س ٢٠ — ٢١؛ The Coptic, : O'Leary Cnurches and Egyptian Monasticism. (The Legacy of Egypt ed Glanville). Oxford, 1941, p. 317 sqq.

فى أن المسيحية انتشرت فى جميع أنحاء مصر فى القرن الثالث الميلادى، بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها للمصريين[١]. وحتى بعد أن جاءت بيزنطة ـ وارثة الرومان فى الشرق ـ التى جعلت ديانتها المسيحية، نجد أن المسيحية المصرية تتخذ صبغة تتفق وعقلية أهلها: وهو الإعتقاد فى الطبيعة الواحدة للمسيح « Phusis »؛ بأن الله اختلط ببدن عيسى اختلاط الماء باللبن[٢]، أو ما عُرف بالأرثوذكسية أى الدين الصحيح، أو أيضاً باليعقوبية[٣] نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى بشر بها؛ وذلك على عكس البيزنطيين الذى قالوا بالطبيعتين الإلهية والبشرية للمسيح، أو ما عُرف بمذهب الملكانية[٤]، نسبة إلى الملك أو الامبراطور البيزنطى. وقد كان الموقف الدينى من جانب المصريين ـ على الرغم من المجامع التى عُقدت لتقريب وجهات النظر[٥] ـ سبباً فى أن جعل المسيحية فى مصر تواكبها حركة قوميه[٦] منذ ظهورها، وخصوصاً أن البيزنطيين كانوا كالرومان يضطهدون المصريين اليعاقبة، ويزيلون بطاركة كنيستهم[٧]؛ ويستحلون سفك دمائهم. ولكن المصريين قاوموا البيزنطيين كما فعلوا مع الرومان من قبل، وكانوا يثورون ويقتلون بطاركة

---

(١) أنظر . Milne : A History of Egypt under Roman Rule. London, 1924, p. 128 ; 212.

(٢) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٤٨، ١٩٥ س ١٦ ؛ ابن حزم، الملل، ١ ص ٤٩ ؛ فخر الدين الرازى، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٨٤ ؛

انظر . Munier : L'Egypte Byzantine. Précis de l'hist-d'Egypte, Paris, 1932, t2,p. 48 ؛ سيدة كاشف، مصر فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧، ص٥.

(٣) نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى سمى هكذا، لأنه كان يلبس البراذع والثياب البالية المخرقة ؛ وهو قس من أهل نصيبين . تاريخ النسطوريين (P.O.) ٧/٢ ص ١٤١ (٤٩)؛ سعيد بن بطريق، ١ ص ١٩٥ .

(٤) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٨٢ س ١٨ ؛ إعتقادات، ص ٨٤ .
لعل هذه الكلمة نسبة إلى شخص ظهر ببلاد الروم (الشهرستانى، ١ ص ١٧٣)، أو نسبة إلى ملك اى الإمبراطور البيزنطى. أنظر. قبله .

(٥) مثل : مجمع نيقية فى ٣٢٥، وأفسوس فى ٤٣١، وخلقدونية فى ٤٥١ . سعيد ابن بطريق، ١ ص ١٥٥، ١٥٧ ؛ انظر . قبله .

(٦) ساويرس، سير الآباء البطاركة(P.O.) ، ١ ص ٤٩٨ ؛ انظر . Munier : Op. cit, p. 48 ؛ بل، مصر، ص ٢٢٢ .

(٧) سعيد بن بطريق، ١ ص ٢٠٠ س ٥ — ٦ .. هذه الكلمة تعريب الكلمة اللاتينية Patricius ؛ انظر . قبله .

أعدائهم ، ويولون عليهم سراً بطاركة من عندهم عُرفوا فى أول الأمر باسم «البابا»[1] ؛ ليتميزوا عن البطاركة البيزنطيين . وأخيراً لما جاء الأمبراطور هرقل[2] «Heraclius» أرسل نحو المصريين حاكماً «Praefectus Augustalis» فى عام ٦٣١ م ، كان قد عُرف بقسوته فى القوقاز ، اسمه قيروس «Cyrus» — وقد تكون تسمية المصريين له بالمقوقس[3] سخرية أى القوقازى — ليحوّل المصريين إلى عقيدة بيزنطة . ولكن بنيامين[4] «Benjamin» البطريرك المصرى أرسل إلى القسوس والشعب يطلب إليهم المقاومة والتمسك بمذهبهم ، وهرب بنفسه إلى الصحراء فى أديرة الرهبان ، واستمر فى مخبئه حتى جاء العرب .

وقد عهد الخليفة عمر بفتح مصر إلى عمرو بن العاص[5] ، أشهر قواد المسلمين بعد خالد — وكان قد أسلم معه سنة ثمان — واشترك فى قمع الردة ، ويرجع إليه الفضل فى فتح فلسطين المجاورة لمصر . ويُوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً أعظم الهامة عريض

---

(١) نفسه ، ١ ص ٩٦ س ٤ وما بعدها ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٥ . وهى مأخوذة من الكلمة أب أى جد ، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى أسقف رومية لتدل عليه ؛ بحيث أن بطريرك مصر عرف فقط « بأبا » .

(٢) أنظر . ساويرس ، تاريخ ، ١/٢ ص ٤٨٩ ؛ Chronique de Jean, publ et trad, par Zotenberg. Paris, 1879, p. 237.

؛ انظر بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١١٨ ؛ بل «مصر» ص ٢٥٦ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحقيق Torrey ، طبعة New Haven ، ١٩٢٠ ، ص ٧٢ س ١٧ . وهو الذى يسمونه خطأ عظيم القبط ؛ ويبدو بوضوح أنه رومى (نفسه ، ص ٧٢ س ١٧ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد أبو حديد ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٧٥ وما بعدها) ؛ وإن كان أصل تسمية المقوقس غامضة . أنظر . Ency. de l'Isl, (art al-Mukawkas), t3, p. 761, sqq ؛ أيضاً . Lane-Poole: A History of Egypt. London, 1901, p. 6—7 n (1).

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ س ٢١ . يسميه أبو يامين . أنظر . Lane—Poole : A History of Egypt, p. 2.

(٥) المعارف ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ انظر . Ency de l'Isl, (art 'Amr B. al - 'As) tI, p. 338 sqq.

ما بين المنكبين(١)، معروفاً بالدهاء(٢)، وهو مظهر الزعامة بين العرب، وأنه عارف بمصر التى دخلها فى الجاهلية(٣). وقد صحبه فى الحملة على مصر بعض مشاهير الصحابة وأبنائهم(٤)؛ مما يدل على أهمية هذه الغزوة.

وعلى العكس تحاول بعض الروايات العربية أن تجعل فكرة غزو مصر آتية من عمرو بن العاص وحده(٥)، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن الخليفة كان غير راغب فيه، وأنه أرسل إليه كتاباً يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل فى أرض مصر؛ ولكن القائد المخاطر لم يلق بالاً إلى أوامر الخليفة واجتاز الحدود المصرية، ليضع خليفته أمام الأمر الواقع. ولكننا نرى أن مثل هذه الرواية ليس لها أساس واقعى(٦)؛ ففتح مصر قد يغلب عليه أنه أتى نتيجة تفكير الخليفة وقواده فى مؤتمر الجابية حين مجيئه الشام(٧). لأهميته بالنسبة للامبراطورية العربية الناشئة. ولعل التردد الذى تنسبه الرواية العربية إلى عمر؛ قد يكون مبعثه تخوفه على سلامة المسلمين(٨). ولدينا نص قاطع أورده ابن اسحق(٩)، يأمر فيه الخليفة عمرو بن العاص بالتوجه بعسكره إلى مصر، بمجرد قراءة كتابه؛ مما يدل على أن خطة الفتح كانت مدبرة من قبل الخلافة ذاتها.

---

(١) ابن عبد الحكم، ص ٥٨ س ٤ — ٥.

(٢) الجاحظ، رسالة برأيه فى معاوية والأمويين، تحقيق عزت العطار، مصر ١٣٦٥ / ١٩٤٦، ص ١٥ — ١٦.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٥٣ س ١٧ وما بعدها؛ انظر. على إبراهيم، مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٩، ص ٢٣.

(٤) المقريزى، الخطط المقريزية، ٢ ص ٧٤.

(٥) ابن عبد الحكم، ص ٥٦ — ٥٨؛ سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢١.

(٦) أنظر. Wellhausen: Skizzen und Vorarbeiten. Berlin, 1899, VI, p. 93.

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٥٣ س ١٧. وهى قرية قرب دمشق. أنظر. معجم البلدان، ٣ ص ٣٣.

(٨) سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢١ س ٣؛ ابن عبد الحكم، ص ٥٦ س ٤؛ انظر. Cheïra: La lutte, p. 51.

(٩) فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥ هـ، ص ٤.

ففتح مصر كان ضرورياً للقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة سورية، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك مباشرة [1]: فقد كان على العرب أن يعملوا ألف حساب لرد فعل يأتى من الجيوش البيزنطية الكثيرة فى مصر؛ وخصوصاً أن بعض قوات فلسطين كانت قد انسحبت إليها [2]؛ هذا وحتى لا تقع جيوش العرب بين رحى جيوش آسية الصغرى، وجيوش مصر.

ومن ناحية أخرى كان احتلال بيزنطة لسواحل مصر وما تهيئه لأساطيلها من قوة بحرية، فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها من هجوم أسطول بيزنطى فى البحر الأحمر على سواحلها، أو فى البحر الأبيض على سواحل سورية. ولعل العرب أنفسهم طمعوا فى احتلال سواحل مصر بقصد مصر إنشاء قوة بحرية [3]، تمهيداً للتغلب على البيزنطيين فى البحر كما تغلبوا عليهم فى البر.

وأخيراً لا ننسى أن مصر كانت معروفة عند العرب من الذين زاروها منهم فى الجاهلية [4]، أو من تجار القبط الذين كانوا يذهبون إليهم بثرائها الواسع [5]؛ فهى فى نظرهم المدرة [6] السوداء أى الخصبة، وأنها أكثر من سورية والعراق أموالاً [7]؛ مما يجعل من فتحها قوة للمسلمين وعوناً لهم. فضلاً عن إمكان إضعاف بيزنطة بحرمانها من هذا القطر الغنى بميرته ورجاله [8].

---

(١) أنظر . Le lutte, p. 51. : Cheīra

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٤ . ٢٤ ؛ انظر . شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٤ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٩ ؛ انظر . La lutte, p. 51. : Cheīra

(٤) أنظر . قبله .

(٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، مصر ١٣٢٧ هـ ، ١ ص ٦٩ س ٤ .

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ٤ س ٨ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢٧٧ .

(٨) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ .

على كل حال اجتاز الجيش العربى الحدود المصرية من ناحية الشام سنة ٦٣٩/١٨[١]، فى فئة يسيرة تبلغ أربعة آلاف جندى[٢]: فاستولى على رَفَح[٣] أول رمال الصحراء المصرية، ثم العَرِيش[٤] على ساحل بحر الروم، وكان يسكنها قوم من العرب المتنصرة، ثم سار بقرب الساحل فى طريق صحراوى وعر مملوء بالكثبان إلى أن وصل إلى الفَرَما[٥]، Pelusium، القديمة، وهى حصن على الساحل معظم سكانه من القبط، فوقعت فى أيدى العرب بعد حصار استمر نحو أمن شهرين[٦]، قاتل القبط والروم فيهما قتالاً شديداً؛ وبسقوطها أمَّن العرب الطريق المؤدية إلى مصر، وربطوا بينهم وبين قواعد تموينهم فى الشام.

وبعد الفَرَما سار العرب إلى بِلْبِيس[٧] فى أول الدلتا، حيث قاتلوا فيها، ومنها ساروا إلى عَيْن شمس[٨] «Heliopolis» أو أون القديمة، وكان معظم حاميتها من القبط ومن أهل النوبة «النوب»[٩]، فقاتلوا العرب حتى أشرفوا

---

(١) أختلف فى تاريخ الحملة، انظر. الكامل، ٢ ص ٣٩٤؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٨.

(٢) ابن عبدالحكم، ص ٥٦ س ٦. أختلف فى عددهم، فقيل أيضاً ثلاثة آلاف وخمسمائة.

(٣) عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ ص ٢٦٦، ٦ ص ٣٧٧.

(٤) ابن اسحق، فتوح مصر، ص ١٢ س ١٩؛ معجم البلدان، ٦ ص ١٦٢، ٣٧٧.

(٥) ابن عبدالحكم، ص ٥٨ س ١٨. قد يكون اسم يونانى (معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ وما بعدها)، أما بلوزيم «Pelusium»، فهى على اسم أحد أفرع النيل.
History, :Lane-Poole انظر؛ Geog. 1:2:31 (Book 1), p. 141: Strabo of Egypt, p. 2.

(٦) ابن اسحق، ص ٤٦؛ Chronique de Jean. p. 23. يقول سعيد ابن بطريق، (٢ ص ٢٢ س ٢)، إن حصارها كان شهراً. أنظر أيضاً ابن عبد الحكم (ص ٥٨ س ١٨)، الذى يذكر أن القتال من جانب الروم.

(٧) معجم البلدان، ٢ ص ٢٦٢، ٦ ص ٣٧٨؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٢٩٦؛ ابن عبد الحكم، ص ٥٩.

(٨) معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٦؛ Chronique de Jean, p. 231؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art 'Ayn Shams) 2 ed, t 1, p. 811.

(٩) القلقشندى، ١٣ ص ٣٢٤؛ الكامل، ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٧. هذا يدل على أن الأواصر القديمة بين الشعبين كانت وطيدة، حتى عند مجىء العرب إلى مصر.

على الملكة، ولكنهم سلّموا أخيراً، فمنحهم العرب الأمان . وبعد ذلك سار هؤلاء إلى أم دُنين[١] القريبة - ولعلها اسم عربي لمنف القديمة (٢) - فقاتلهم الروم فيها بشدة بقيادة ثيودوروس «Theodoros» (٣) البيزنطي ، ولكن الروم هُزمت حينما وصل للعرب مدد عبر الصحراء بقيادة الزبير بن العوام أحد الصحابة (٤) . ثم أحاط العرب بمركز حصين قرب النيل اسمه بابليون (٥) «Babylonia» أو فقط «الحصن» أو حتى «قلعة الشمع» ؛ كان فيه الروم وقيروس الحاكم البيزنطي ، ومعهم حامية من القبط قاتلت العرب بحماس ، وكانت ترى أن الموت أهون عندها من التسليم (٦) .

ولما طال الحصار دخل قيروس في مفاوضات مع عمرو بقصد عقد هدنه (٧) ؛ وإن كنا لا نعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك : فلعله قدّر

---

(١) هي المقس في عهد الفاطميين (قرب الأزبكية حالياً) . معجم البلدان، ١ ص٣٣٣، ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) عن هذا ، انظر . Lane-Poole : . (1) Hist of Eg, p. 3; n .
لعله أخو الإمبراطور هرقل كما ذكرنا .

(٣) أنظر Sebêos, p. 230. : Ency. de l'Isl, 2, p. 6

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٥٩ س١٢ وما بعدها ، ص ٦١ ؛ انظر Chronique, de Jean, p. 231 ؛ سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢٢ . أختلف في عدد المدد ، فقيل أربعة آلاف (نفس المصدر)، وفي رواية أخرى اثنى عشر ألفاً؛ وأنه جاء تباعاً. معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٨ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ س ٩ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٧٢ .

(٥) ابن عبد الحكم، ص٦١ س٢،٦٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٣٧٩. هو حصن قديم (الخطط،٢ ص ٦١)، ولعله سمي هكذا بسبب أن أحد فراعنة مصر جلب جماعة من أسرى بابل، وأنزلهم في هذا المكان(أنظر ماقاله بتلر،فتح العرب لمصر،ص١٨١)،أولعله مشتق من اسم مصري قديم (أنظر · (Ency de l'Isl, (art Babylone) 1, p. 560—561) ، وبقاياه لا زالت موجودة حتى الآن (أنظر . Guest : The Foundation of Fustat, (J. R. A. S. 1907, p. 49 sqq)، ولعلها سميت قلعة الشمع؛ لأنه كان يوقد عليها الشمع.

(٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ س ٢ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣ س ١٧ ؛ السيوطي ، ١ ص ٥١ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٩٧ س ٦—٧ .

الهزيمة أو رغب فى كسب الوقت للمقاومة . ولكن كان على قيروس أن ينقل شروط الهدنة إلى هرقل ليقرها[١]، أو على الأقل يكتب إليه ليعلمه (٢) ؛ وإن فضل قيروس السفر إلى بيزنطة. وعلى الرغم من موت هرقل سنة ٢٠ / ٦٤١ (٣)، مما كان سبباً فى تأجيل عقد الهدنه ؛ إلا أن خلفه وحفيدة قنسطانز الثانى «KonstasII» (٦٤٢ — ٦٦٨ م) وأمه ، كانا غير راغبين فى مواصلة القتال (٤)، لحاجتهما إلى القوات البيزنطية فى مصر لقتال عناصر الصرب والكروات فى البلقان[٥]، واللومبارديين فى إيطاليا (٦) ؛ ولذلك سمحوا لقيروس بإمضاء الهدنة (٧).

وفى أثناء غياب قيروس فى بيزنطة كان العرب قد انتشروا فى طول مصر وعرضها : فاستولوا على الفيوم (٨) فى وسط مصر وقتلوا القائد القبطى يوحنا، كما استولوا على حصن بابليون (٩)، وعبروا النيل فى الدلتا ليتجهوا إلى الإسكندرية العظمى ـ عاصمة مصر منذ أن فقدت استقلالها على يد اليونان ـ يقيناً منهم أنها إذا فتحت انتهت مقاومة الروم فى مصر[١٠]. ولكن العرب قوبلوا من

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧١ س ٣ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٢٧٩ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ س ١٨ — ١٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٥٢ آخر هذه الصفحة .

(٤) أنظر . Sébêos, p. 140

(٥) أنظر . بعده .

(٦) أنظر بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١٢٠ .

(٧) أنظر . Chronique de Jean, p. 247—248 ؛ سيدة ، كاشف . مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٤ .

(٨) أنظر . Chronique de Jean. p. 228;236.; 232 ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٤١٤ — ٤١٦ .

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣ س ١٦ .

(١٠) السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٥٢ ؛ معجم البلدان، ١ ص ٢٣٤ .

القبط في قرى كثيرة من منطقة الدلتا بمقاومة (١) عنيفة ، مثل : طوخ (٢) وسلطيس (٣) ودمسيس (٤) وقرطسا (٥) ومصيل وبلهيب (٦) ودمياط (٧) ودميرة وأشمون وتنيس (٨) ؛ بحيث أن العرب لم يستطيعوا فتح هذه القرى إلا بعد أن أحرقوا المزارع، وسبوا أهلها(٩): فكانت مصر - كما نرى - تقاوم من قراها(١٠). وأخيراً وصل العرب أمام الإسكندرية العظمى وحاصروها(١١)، وإن بدت صعبة الفتح بسبب حصونها المتينة(١٢) ، ولإحاطتها بالبحر الأبيض والبحيرات .

والواقع إن مقاومة المصريين للعرب تدل على أنهم كشعب حر لم يكونوا يريدون أن ينتقلوا كسلعة إلى العرب بعد الروم ، وهم الذين كانوا منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومى يتمثل في اللغة والأدب والفن القبطى : الذى كان يعبّر عن شخصية مصر القديمة . ولكن يظهر أن أغلب مؤرخى المسلمين لم يرضوا أن يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً ، حتى لا يظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين : وذلك لأن مصر فيما بعد ستتحول إلى الإسلام ، وتحتل مركز الزعامة فيه . وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا الغزاة ،

---

(١) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص٢٩٧ س٤ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ س٣ — ٤ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨٢ ؛ Chronique de Jean, p. 236.

(٢) قرية بالحوف الغربى . معجم البلدان ، ٦ ص ٦٧ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٨٢ س ٣ . يذكرها مع بلهيب .

(٤) قرية قرب سمنود . نفسه ، ٤ ص ٧٢ .

(٥) نفسه ، ٧ ص ٥٥ .

(٦) نفسه ، ٢ ص٢٨٢ . كانت هذه البلدة مركزاً للثورة على العرب بعد فتحهم مصر . الخطط ، ١ ص ١٢٨ .

(٧) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٨) نفسه ، ص ٨٨ .

(٩) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٨٢ س ٤ . ذكر نفس المصدر أن بعض السبى أرجعه عمر إلى أهله ، بعد أن خرج الروم .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ س ٣ — ٤ ؛ الخطط ، ١ ص ٢٦٨ س ٢١ — ٢٢ .

(١١) هى المدينة التى بناها الإسكندر وسماها على اسمه ، كما سمى ثلاث عشرة مدينة غيرها باسمه ، ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(١٢) الخطط ، ١ ص ٢٤٦ .

وأنهم كانوا يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلوفة (١)، ويصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور لتسهيل تنقلات جيوشهم ، بل وجعلوا المقوقس الحاكم البيزنطى — الذى رضخ لهم — عظيم القبط (٢) . ولكننا نستطيع أن ندرك مقاومة المصريين للعرب مما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر ، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها ، وهى مسألة فتح مصر : وهل كان بصلح أو عنوة (٣) ، أو حتى هل كان للمصريين عهد، أو أن بعضها فُتح بالسيف، وبعضها صلحاً (٤).

ولكن تخاذل البيزنطيين من ناحية، وإدراك المصريين ألا فائدة من مقاومة جيوش العرب التى لم تقف أمامها جيوش بيزنطة أو فارس ، جعل مقاومتهم تفتر . ومع ذلك استمر أهل الإسكندرية - وأغلبيتهم من القبط - يقاومون وقتاً (٥) ، حتى أن الخليفة وجد أن حصار الإسكندرية قد طال (٦) . ولكن مجىء قيروس بعد أن أمضى الإتفاقية، وقبوله الإذعان للعرب ، بحيث اتهمه القبط بتسليم مصر للمسلمين (٧) ، وأرادوا رميه بالحجارة، جعلهم يرضخون للأمر الواقع . وتنفيذاً لنصوص الاتفاقية (٨) ، خرج الروم من الإسكندرية بمالهم ومتاعهم وأهلهم سنة ٢١ (٦٤٢) ، حيث حملتهم المراكب ؛ واحتل العرب مصر . ومع ذلك يذكر يوحنا النقيوسى أن مصر ظلت تقاوم

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٤ س ١٦ — ١٧ ، ٧٣ س ٤ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٣ ؛ الخطط، ١ ص ٢٦٣.

(٢) ابن عبد الحكم ، ص٤٦ س ٩.

(٣) نفسه ، ص ٨٤ — ٩٩ ؛ الخطط ، ٢ ص ٧٢ وما بعدها ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٥ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٢٦٧ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٨٠ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ ، ١ ص ٤ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٢٢٠ ؛ Chronique de Jean, p. 253

(٦) الطبرى ، ١ : ٢٥٨٢ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٣ س ٤ ؛ الخطط ، ١ ص ٢٣٦ س١٦ — ١٧ .

(٧) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ١٨ .

(٨) أنظر عن هذه المعاهدة : Chronique de Jean, p. 247—8 ؛ سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٤ ؛ طه بدر ، مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٣ — ١٤ .

اثنى عشر عاماً أخرى [١]، كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتفض مصر فى أى وقت[٢].

وقد أتهم العرب باطلا أثناءاحتلالهم الإسكندرية بأنهم خرّبوا مكتبتها[٣] الضخمة « Bibliothêkê » ، التى أنشأها ملوك البطالمة. ويظهر أن قصة حرق هذه المكتبة، لم تظهر إلا أخيراً: ولعل البيزنطيين هم الذى بدأوا بتبديدها فيها، وخصوصاً أن من شروط الصلح أن يخرج الروم بكل ما يستطيعون من المال والمتاع [٤]. ومن ناحية أخرى نعرف أن المكتبة احترقت حينما جاء يوليوس قيصر[٥]« Cesar » مطارداً پومبى« Pompeius » حتى الإسكندرية ؛ فلعلها احترقت أثناء حصار المصريين لقيصر.

وكرمز لاحتلال العرب مصر ، أنشأوا فيها مدينة لهم قرب حصن بابليون سموها «الفسطاط»[٦] — وهو اسم غير عربى لعله من اللاتينية« Fossatum » بمعنى الخيمة أو المدينة[٧] — فسكنتها قبائلهم فى خطط أو قطائع [٨]. فقد أبى الخليفة عمر أن يجعل الأمير الذى أقامه فى مصر وجيشه يتخذ الإسكندرية العظمى

---

(١) أنظر . Chronique de Jean, p. 236

(٢) ابن عبد الحكم ، ص١٧٥ س ١١ .

(٣) أنظر ما قاله المؤرخ ابن العبرى (Barhebraeus) . عن هذا : مختصر تاريخ الدول ، تحقيق أنطون صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٧٦ ؛ بل ، مصر ، ص ١٠٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٤ س ١٠ — ١١ ؛ Chronique de Jean, p. 251.

(٥) أنظر . Histoire des Lagides, trad, p. 407 : Bevan

(٦) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٧ وما بعدها . مى تقرأ أيضاً فسطاط وفساط وفستاط . نفسه، ٦ص ٣٨٠ . من معانيها أيضاً بيت من الشعر . الخطط ، ٢ س ٥٩.

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ س ١٩ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩ ؛ الخطط ، ٢ ص ٧٦ س ١٢ ؛ انظر . بتلر ، فتح العرب مصر ، ص ٢٥٠ .

(٨) الخطط ، ٢ ص ٧٦ وما بعدها ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٧ .

ـ العاصمة اليونانية ـ مقاماً ، أو بنزل العرب بمكان يفصلهم فيه عن جزيرة العرب قنوات المياه المتشابكة الآخذة من النيل[١]. وقد سميت الفسطاط «مصر[٢]»، لكونها مدينة للعرب على الحدود[٣]، مثل البصرة والكوفة؛ وإن عرفت أيضاً «بفسطاط مصر[٤]»، أى بالاسمين معاً. ولقد أصبح هذا المعسكر مدينة عظيمة[٥]، حتى لما أقام الفاطميون القاهرة[٦]؛ فعرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة. وكذلك بنى عمرو فيها مسجداً[٧]، مكان إحدى كنائس القبط، مازال يحمل اسمه حتى الآن، وذلك على نسق الجوامع التى كانت تقام فى مد الأمصار.

ولقد بقيت مصر بعد هذا الفتح بعيدة عن حوليات[٨] مؤرخى الشرق إلى العصر العباسى، فطول هذه المدة كانت الخلافة لا تهتم بمصر إلا من حيث إنها تنتج الحنطة أو القمح[٩]، الذى كان ينقل إلى الحجاز عن طريق قناة حفروها من النيل إلى بحر القلزم، عرفت باسم: «خليج أمير المؤمنين[١٠]»، بحيث أعتبرت مصر خزانة أمير المؤمنين[١١]،

---

(١) ابن عبد الحكم، ص ٩١ س ٥؛ معجم البلدان، ٦ ص ٣٧٩؛ الخطط، ١ ص ٢٦٠ — ٢٧٠.

(٢) الخطط، ٢ ص ٧٦. أنظر ماذكرناه عن هذا الاسم؛ أيضاً.
Ency. de t'Isl, (art Misr) t3, p. 591.

(٣) أنظر. قبله.

(٤) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٦٢.

(٥) معجم البلدان، ٦ ص ٣٨٢.

(٦) الخطط، ٢ ص ٩٥. أحرقت الفسطاط فى عهد الفاطميين، نتيجة لمهاجمة الصليبيين.

(٧) ابن عبد الحكم، ص ٩١ — ٩٢؛ ابن اسحق، فتوح مصر، ص ٥٢ س ٢٣.

(٨) أنظر Etudes sur le siècle des Omeyyades, : Lammens p. 305.

(٩) سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢٦ — ٢٧؛ انظر. Geschichte der, : Weil Chalifen. Mannheim. 1846. I, p. 130 sqq.

(١٠) الكامل، ٢ ص ٣٩٥ س ١؛ الخطط، ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٦٨.

(١١) معجم البلدان، ٨ ص ٧١.

التى يُحمل منها القوة والمال إلى جنده؛ كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين(١). ولقد ثار المصريون عدة مرات على حكامهم بخاصة الأمويين، الذين اعتبروا أن مصر فتحتْ عنوة وأن أهلها عبيد، لهم أن يزيدوا عليهم ما يشاءون من المال(٢). كذلك فى عهد العباسيين قام المصريون بثورة هائلة فى سنة ٢١٦(٣)/ ٨٣١، اضطرت الخليفة المأمون إلى الحضور بنفسه إلى مصر للقضاء عليها؛ فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ومنذ ذلك لم تقم للقبط قائمة. فلعل هذه المقاومة تبطل فرية السيوطى فى أن أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلب(٤). ولكن لظروف(٥) عديدة أقبل المصريون على الإسلام، كما أنهم تركوا لغتهم القديمة، وساعد على ذلك وجود أصول سامية فى حروفها وتراكيبها. وعند ذلك بدأت تظهر شخصية مصر الإسلامية فى عهدى الطولونيين والإخشيديين، إلى أن أصبحت مركزاً للخلافة الشيعية فى عهد الفاطميين، وللخلافة السنية فى عهد المماليك(٦).

وبعد فتح مصر سار عمرو إلى بَرْقة(٧)، أو ما يسميه اليونان بنطاپولس(٨) «Pentapolis»، أى المدن الخمس، وإلى طَرَابُلس «Tripolis»، أى المدن الثلاث: وكلاهما عبارة عن صقع كبير يتكون من شريط ساحلى، تتوافر فيه الزراعة بسبب

(١) أنظر. بل، مصر، ص ١٢٩، ٢٣٦، ٢٤١.
(٢) الكامل، ٢ ص ٣٩٧ س ٢٦.
(٣) الخطط، ١ ص ١٢٧ — ١٢٨، ٤ ص ٣٩٦.
(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧٨ س ٢٢.
(٥) ليس مجال ذكر هذه الظروف هنا.
(٦) معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣ وما بعدها. وهى محرفة عن الكلمة اليونانية «Cyrenaica»، التى اشتقت من مدينة قورينة «Kyrène» الإغريقية. أنظر Cary. : Oxford Classical Dict. s. v.
(٧) يحرف العرب هذه الكلمة إلى أنطابلس. معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣.
(٨) وهى تسمى أيضاً طرابلس. نفسه. ابن غلبون، تاريخ طرابلس، تحقيق الزاوى، ... ١٠ هـ؛ انظر.

سقوط الأمطار فى أودية تنساب إلى برك، ولوجود المياه فى الآبار، وخلفه صحراء مجدبة أو جبال؛ حيث يكون جزءاً من البلاد الممتدة حتى المحيط، التى كانت تعرف قديماً بلوبية[١] «Libya»، وللعرب «بالمغرب»[٢].

وكان يسكن برقة وطرابلس عنصر من الناس يعرف للعرب باسم «البربر[٣]»، لعلهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامى[٤]، وهم من نفس الجنس الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة[٥]: فكانت أغلبيتهم كالعرب يعيشون فى قبائل معظمها من البدو، الذين يتنقلون بين الوديان والجبال للانتجاع؛ أما من كانوا قد اختلطوا منهم بحياة الروم فيسمون «بالأفارق[٦]» أى المتحضرين؛ وقد كانت أهمّ قبائل برقة وطرابلس: لوّاتة وهوارة ونفوسة[٧].

وكانت هذه البلاد تخضع غالباً للدول المسيطرة فى مصر، فاحتلها البطالمة والرومان[٨] ومن بعدهم البيزنطيون، الذين غزوها عن طريق البحر[٩]. ويظهر أن البيزنطيين كانوا عند الغزو العربى — تحت ضغط هجرات البربر — اقتصروا على احتلال عدة مدن قليلة محصنة بالأسوار مثل طرابلس.

---

(١) نفسه، ٧ ص ٣٤١. تطلق هذه الكلمة الآن على برقة وطرابلس وفزان. أنظر. الزاوى، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، القاهرة ١٩٥٤، ص ٢. أنظر أيضاً Strabo : Ceog, 1 : 2 ; 25 (Books 1—11), p. 119,

(٢) معجم البلدان، ٨ ص ١٠٣.

(٣) حسن المحاضرة، ١ ص ٦٢؛ معجم البلدان، ٢ ص ١٠٤، ١٣٤. سموا هكذا لرطانتهم بلغة غير مفهومة للعرب. ابن خلدون، المقدمة، ص ٩ س ١١ وما بعدها.

(٤) أنظر. Seligman : Les Races de l'Afrique, trad, Franc, Payot. Paris, 1935, p. 86.

(٥) أنظر. Driot et Vand : Op. cit, p. 171.

(٦) الكامل، ٣ ص ١٣ س ٩؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Barka) 1, p. 677.

(٧) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠ — ١٧١؛ حسن المحاضرة، ١ ص ٦٣؛ الكامل، ٣ ص ١٣.

(٨) أنظر. Bevan : Hist. des Lagides, trad. Lèvy, p. 32.؛ نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، القاهرة ١٩٤٦، ١ ص ٣٢، ١١٦.

(٩) البلاذرى، فتوح، ص ٢٢٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ٥ ص ٢٩ س ٥؛ الكامل، ٣ ص ١٣.

ونحن لا نرى سبباً لغزو هذه المنطقة ؛ إلا رغبة العرب فى تأمين الحدود الغربية لامبراطوريتهم ، وخصوصاً أن وجود بعض الحاميات البيزنطية فى مدن برقة وطرابلس كان فيه تهديدلهم. ولذلك خرج عمرو بعد أن انتهى من فتح مصر متجهاً نحو برقة فى سنة ٦٤٢/٢١[١]،فاستولى عليها بعد أن قاتل أهلها، وحينما ذهب إلى طرابلس وحاصرها رحل الروم عنها فى السفن[٢]،وتبع ذلك أن سلمت مدينة سَبْرَة بدون قتال[٣]، ولما توغل فى فِزّان[٤]، استولى على زَويلة فى الجنوب ، قرب بلاد السودان[٥].

وعلى عكس ماحدث فى مصر لم يبق العرب فى هذه البلاد ، وإنما اكتفوا بفرض ضريبة ، وأجازوا لأهلها بيع أبنائهم ليدفعوا جزيتهم[٦]. ولكى يضمنوا خضوعها ،كانوا يرسلون من وقت لآخر السرايا من مدن مصر بقصد الغنيمة ، ولإشعار البربر بسطوتهم[٧]؛ فكانت هذه السرايا تصل إلى المناطق المجاورة لطرابلس فى إفريقية[٨].

---

(١) الكامل، ٢ ص ١٣٤ ؛ البلاذرى، فتوح ، ص ٢٢٤ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ . وهى مدينة على شاطىء البحر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الكامل، ٣ ص ١٣ ؛ معجم البلدان، ٥ ص ٢٨. وتسمى أيضا سبرت . أنظر. ابن عبد الحكم ، ص ١٧٢ .

(٤) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٥) نفسه ، ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٦) حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ . نشك فى صحة هذه الوسيلة لدفع الضريبة ؛ لأننا لم نقابلها فى فتوحات العرب الأخرى المتعددة .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٤٤ — ٤٥ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 64.

(٨) اسم البلاد الواسعة قبالة جزيرة صقلية . معجم البلدان، ١ ص ٣٠٠ وما بعدها .

وكما أراد عمرو تأمين حدود الامبرطورية العربية الغربية بإرسال حملة إلى برقة وطرابلس ، أرسل حملة أخرى إلى جنوب مصر ، أو ما كان يعرف فى وقت الفتح العربى بالنوبة(١)، وقديماً للمصريين باسم كوش ووات(٢): وهى البلاد الواسعة العريضة فى الشطر الجنوبى من وادى النيل ، التى تمتد من أسوان(٣) آخر صعيد مصر ، حتى أواسط أفريقيا .

وكان يعيش فى هذه المنطقة جنس من السود « الأساود(٤)» استعمره المصريون القدماء منـــذ الأسرة السادسة ، ثم نقـــلوا إلى سكانه لغتهم ودياناتهم وحضارتهم(٥). ولـكن يبدو أنه بعـــد العصر الفرعونى انتقلت إليها هجرات من داخل إفريقيا مجهولة الأصـــل عرفت « بالنوبة(٦)» أو « البرابرة » ، تجرى فى عروقها الدماء الزنجية ، وتتـكلم لغة خاصة ؛

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ . هـــذا الاسم على ما يظهر فرعونى من كلمة « نب » ، بمعنى ذهب ، ذكره استرابون باسم : « Nobai » - Geog : Strabo 17 : 768 — 819 ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Nûba) t 3, p, 1009 كذلك يذكر الإدريسى أنها نسبة إلى مدينة نوابة على مبعدة من النيل (أنظر . المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق Dozy و deGoeje، طبعة Leyde، ١٨٦٦، ص ١٣). ويبدو أن كلمة السودان هى كلمة عامة ، تشتمل على البلاد التى تمتد من المحيط حتى البحر الأحمر، والتى انتشر فيها السود. أنظر. ياقوت، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ س ٥ ؛ Ency. de l'Isl, (art Sudân) t 4, p. 518

(٢) أنظر . Op. cit, p. 3 : Driot et Vand . يذكر الإدريسى أنه يوجد بالسودان بلدة اسمها كوشه . أنظر . المغرب وأرض السودان ، ص ١٤ .

(٣) عن هذه المدينة ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٤٨ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٨٢ س ٩ .

(٥) أنظر . Op. cit, p. 208 ; 377—378 : Driot et Vand

(٦) معجـــم البـــلدان ، ٨ ص ٣٢٣ ؛ انظر أيضاً : Mac Michael A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1923, 1, Islam in the Sudan. London, 1949, : Triminghan ; p, 14 sqq ; p.39 Ency. de l'Isl, t 3, p. 1008-1009 . يقول ياقوت إن ملوكهم من حمير .

بحيث استطاعت أن تكون فى جنوب مصر عدة ممالك منها[١] : النوبة ومقرة وعلوة ؛ أما شرقى النوبة ، بين النيل والبحر الأحمر ، فكان يسكنه عنصر بدوى أسود يعرف بالبجة أو البجاة . وكما فى العهد الفرعونى حرص المصريون المسيحيون على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية أو اليعقوبية بينهم[٢] ؛ وذلك على الرغم من أن البيزنطيين كانوا يعملون من جانبهم على نشر عقيدتهم الملكانية[٣]، ويعارضون إنتشار العقيدة المصرية . ولكن بقيت أغلبية سكان جنوب الوادى تعيش عيشة بدائية ، فهم عراة لا يلبسون شيئاً ، ولا ديانة لهم إلا فى الإعتقاد فى السحر ، وفى بعض عقائد الأجداد الفطرية[٤] .

ومع أن معلوماتنا غير دقيقة عن الحملة التى أرسلها عمرو إلى النوبة سنة ٢١/٦٤٢[٥]، فيبدو أنه لم يكن يقصد غزوها ، ولكن فقط إشعار النوبيين باحتلال العرب لمصر ، حتى لا يهاجموا صعيدها كما كانوا يفعلون غالباً[٦] ، أو لتأديب النوبة « النوب » ؛ بسبب أنهم عاونوا المصريين فى موقعة عين شمس . ولكن النوبيين قاوموا هذه الحملة ، بحيث أضطر العرب إلى التقهقر بعد أن لحقت بأغلبيتهم الجراحات وفقدوا حدقهم من سهام النوبيين ، حتى أنهم سموهم : « رماة الحدق[٧] » . وقبل ذلك ، أرسل عمرو غزوة فى البحر إلى الحبشة المجاورة ؛ لأنها أصبحت على أطراف بلاد الإسلام ؛ ليعجم عودها ، ولكن العرب هزموا أيضاً[٨] .

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٣ ؛ الخطط ، ١ ص ٣١٣ و ٣١٨ و ٣٢٠ ؛ الإدريسى ، ص ١٣ — ١٤ و ٢٠ — ٢١ و ٢٦ .

(٢) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٦ ؛ انظر . Bonet - Maury : Le Christianisme en Afrique, p. 46

(٣) أنظر . Ency. de l'Isl, 13, p. 1009

(٤) أنظر . Ibid, 4, p. 519

(٥) الخطط ، ١ ص ٣٢٣ س ٥ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٣١٥ . (٧) أنظر . قبله .

(٨) فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ؛ انظر Quatremère : Mém. sur l'Eg. et sur quelques contrées voisines. Paris, 1811. 2, p. 42 suiv.

(٩) الكامل ، ٢ ص ٣٩٨ ؛ انظر . يوسف أحمد ، الإسلام فى الحبشة ، ص ٢١ .

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان ؛ توجه عامل مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح بحملة قوية نحو النوبة فى سنة ٣١/٦٥٢[١]، استطاعت أن تصل إلى دنقلة أو دمقلة[٢]، التى على ما يظهر كانت وقتئذ عاصمة النوبة ومقرة متحدتين[٣]؛ فوضع أمامها المنجنيقات ودمر الكاتدرائية. لذلك سعى الملك المسمى قليدوروث إلى طلب الصلح[٤]، وقبل ابن أبى سرح - الذى أنهك القتال جيوشه - عقد الهدنة. فاتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المبهمة: «بقط[٥]»؛ وهى أن يكون بينهما هدنة وأمان ، وأن يسمح بتنقل التجار ، وأن يسلم النوبيون الهاربين من عبيد المسلمين - لعل قصدهم المصريين - وأن يحافظوا على المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة ، ولعلهم بذلك قصدوا التمهيد لنشر الإسلام . كما نص الاتفاق على أن تحمل النوبة كل سنة إلى ولاة مصر ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق غير المعيب المتوسط العمر . ويبدو أن النوبة تعودت من جانبها - وإن لم تذكر المعاهدة ذلك - أن تأخذ من مصر قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً عند دفع البقط[٦] ؛ وبخاصة إذا ما حلت المجاعات بها. وقد كان عقد هذه المعاهدة يدل على أن العرب لم يكن فى نيتهم ضم بلاد النوبة إليهم ، أو العودة إلى غزوها ، بل أنهم وافقوا على قيامها على حدودهم ؛ ومثل هذا الاتفاق جعل أهل النوبة فى نظر العرب :

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ .

(٢) مدينة كبيرة على شاطىء النيل . معجم البلدان ، ٤ ص ٨٢ ، ٨ ص ٣٢٣ .

(٣) نفسه ، ٨ ص ٣٢٣ . لقب ملك النوبة يدل على ذلك .

(٤) الخطط ، ١ ص ٣٢٣ س ١١ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٣٢٢ وما بعدها ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٥ وهامش (٥) ؛ Ency. pe l'Isl, (art Bakt) I, p. 621 أصل هذه الكلمة غير واضح ، فلعله من العربية بقط بمعنى البقل والعشب (الخطط ، ١ ص ٣٢٢)، أو من اللاتينية «Pactum» أى اتفاق (أنظر (1) Trimingham. p. 62) ، أو من الكلمة المصرية القديمة باك بمعنى عبد (أنظر Ency. de l'Isl, I, p. 621). وهذا العهد لا يشمل علوة ، وإنما النوبة إلى حدود علوة فقط (الخطط ١ ص ٣٢٤) ؛ وإن كتب عهد مشابه مع البجة . المصدر السابق ، ١ ص ٣١٦ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٣٢٤ س ٧ - ٨ .

« مُصَالحين(١) » ، وهو ماعرّفه الفقهاء باسم : « أهل العهد(٢) » .

وقد ترتب على عقد هـــذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية فى النوبة ، وهى التى أصبحت وحدها مسيطرة فى مصر بسبب زوال الدولة البيزنطية ، بحيث أنه لما طلبت النوبة إرسال أساقفة ، أرسل إليهم البطريرك المصرى أساقفة من اليعاقبة(٣) ، كما امتد نفوذ هذه الكنيسة حتى عَلوة فى الجنوب(٤). وفوق ذلك تحولت الحبشة التى كانت حليفة بيزنطة وعلى مذهبها إلى اليعقوبية المصرية(٥) ، فكانت مصر تُرسل إليها أساقفتها أيضاً ، وكان ملكها يلقّب : « بأوحد ملوك اليعقوبية(٦) » ، وما زالت الحبشة تخضع روحياً للكنيسة القبطية حتى الآن . وستبقى أغلبية النوبة مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، إلى أن يرسل إليها سلاطين المماليك فى مصر القبائل العربية والجيوش ، فتتحول إلى الإسلام(٧). ولا ريب أن بقاء النوبة مسيحية حتى ذلك التاريخ ، كان سبباً فى أن الإسلام لم ينتشر فى أعماق قارة إفريقيا(٨) ، بحيث أن بعض سكانها مازالوا وثنيين حتى الآن .

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٢٤ س ٢٦ .

(٢) الماوردى ، ١ ص ١٢٣ ؛ انظر . Cheira : Les Statuts des Pays, des Ahd aux 7e et 8e Siécles. Ann of the Fac. of Arts. Ibrahim Univ. Vol I, 1951, p. 43 sqq.

(٣) الخطط ، ٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٦ س ٢ — ٣ .

(٥) أنظر . قبله .

(٦) صبح الأعشى ، ٦ ص ٨٥ .

(٧) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، القاهرة ١٩٤١ ، ٢ / ١ ص ١٦١ .

(٨) وإن كان إسلام البجة حدث فى وقت مبكر منذ عهد الأمويين . الخطط ١ ، ص ٣١٥ س ٢٦ .

هذه الفتوحات والصراع مع أكبر دول العالم: البيزنطيين والفرس، قوّى من وحدة الأمة الإسلامية، التي وضع بذورها النبي، وكانت على وشك الضياع لولا تصميم أبي بكر في الإبقاء عليها؛ ولكن من الآن — في عهد عمر — لم يعد يُسمح إلا بدين واحد في الحجاز هو الإسلام(١). وعملاً بهذه السياسة نقل عمر إلى الشام والعراق؛ نصارى نجران(٢)، ويهود خَيْبَر(٣)، خيابر، أي ما حولها(٤)، وحتى مسيحي دُومَة الجندل(٥)، بحيث أصبح الحجاز خالصاً للمسلمين العرب وحدهم.

وعلى العكس كان المقاتلة العرب في الامبراطورية المفتوحة يعيشون في معسكراتهم كأقلية وسط شعوب تختلف عنهم كل الإختلاف في الجنس واللغة والدين؛ فقد كانوا يعسكرون: إما في «الأمصار(٦)» جمع «مصر» وهي المدن التي أنشئت على حدود الأراضي، أو في «الأجناد(٧)» جمع «جُند» وهي المناطق الحربية في الشام والتي كانت تقابل التقسيم البيزنطي المعروف باسم «Thema»، أو في «الثغور(٨)» جمع «الثغر» وهي مواقع الحصون عن الحدود البيزنطية التي عُرفت فيما بعد «بالعواصم»، لأنها كانت تعصم حدود المسلمين، أو في «الرباط»(٩) جمع

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨ س ٢؛ الماوردي، الأحكام، ص ١٥٠.

(٢) مع أن النبي وأبا بكر سمحا لهم بالبقاء على حدود الحجاز الجنوبية. أنظر. البلاذري، فتوح، ص ٦٥، ٦٦؛ ابن سعد، ١/٢ ص ٨٥ س ٢٧.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٢٣، ٢٨.
سميت هكذا لتكونها من عدة حصون. معجم البلدان، ٣ ص ٤٩٤ — ٤٩٥.

(٤) مثل فدك. البلاذري، فتوح، ص ٢٩.

(٥) معجم البلدان، ٤ ص ١٠٧ (٦) أنظر. قبله.

(٧) فتوح البلدان، ص ١٣٢. يقول كل ناحية لها جند يقبضون أعطياتهم بها تسمى جنداً. ويقول ياقوت: التجند التجمع وجندت جنداً أي جمت جماً. معجم البلدان، ١ ص ٤٢٥.

(٨) معجم البلدان، ٣ ص ١٦ وما بعدها، ٦ ص ٢٣٧؛ انظر Ency. de l'Isl- (art Thughùr) 4, p. 777.

(٩) القرآن (٨ : ٦٠). الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو أو الجهاد، وأصله أن يربط فيه الخيل (لسان، ٩ ص ١٧٣ وما بعدها؛ انظر. Ency. de l'Isl (art Ribât) t 3, p.1230 sqq. كانت الرباطات أغلبها على الساحل، كما في الإسكندرية. أنظر. ابن عبد الحكم، ص ١٩١ وما بعدها.

«ربط» أو «رابطة»، وهى أماكن محصنة قد تكون على الساحل أو على الحدود لمراقبة العدو وجهاده. وفى كل هذه المعسكرات كان العرب يعيشون عيشتهم القبلية فى «خطط»(١) » أو « قطائع(٢) »، وإن كان لا بد أن يكون لهم فيها مسجد(٣) ؛ لكى يقوموا بفروض دينهم، وليجتمعوا فيه لاتخاذ قراراتهم .

كذلك لم يعد العرب بعد أن فتحوا هذه الإمبراطورية الواسعة يكتفون بالعيش على الغنيمة ، كما كان الحال فى عهد النبى وأبى بكر على أن يأخذ الخليفة الخمس(٤) ؛ ولكن منذ عهد عمر صار المقاتلة من الحجاز، أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة «روادف(٥) » ، يتسلمون هم وعائلاتهم من الصبيان والنساء مرتبات ثابتة تسمى : «العطاء(٦) »، إذا قيدوا فى سجلات ، وهو ما عُرف بالديوان(٧) — كما كان معروفاً عند البيزنطيين والفرس(٨) — ولذلك قيل إن عمر أول من دوّن الدواوين. وكان العطاء يقدّر على حسب قرابتهم للنبى(٩) ، أو شهودهم بدراً ، أو المواقع المشهورة مثل القادسية واليرموك(١٠)؛ وحتى

---

(١) وهى جمع خطة. ابن عبد الحكم، ص ٩١ ؛ الخطط، ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) الكامل، ٢ ص ٣٦٨ (آخر الصفحة) ؛ اللسان، ١٠ ص ١٥٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ — ٩٢ ؛ الكامل، ٢ ص ٣٦٩ س ١ ؛ انظر . قبله.

(٤) الكامل ، ٢ ص ٢٧٣ س ١٣ .

(٥) نفسه، ٢ ص ٣٥١ س ٦ ؛ انظر . المصباح المنير ، ١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٦) البلاذرى . فتوح ، ص ٤٤٩ س ٣ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٥١ س ١٦ . يسمى أيضاً رزق. الكامل ، ٢ ص ٣٥٢ س ١ .

(٧) الكامل، ٢ ص ٣٥٠ ، ٣ ص ٣١ . كلمة فارسية تعنى السجل أو المكان الذى فيه الكتاب. ابن خلدون، المقدمة ، ص ١٩٢ ؛ انظر . بعده .

(٨) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٩٢ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة، ص ١٩٢ — ١٩٣ ؛ أبو يوسف، الخراج، ص ٥٠ .

(١٠) الكامل ، ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

النساء اللاتى حضرن هذه المواقع كن يتميزن فى عطائهن . وقد استمر العطاء يدفع للعرب حتى سقوط الدولة العربية وقيام الدولة العباسية، التى اعتمدت على الفرس والترك ، فمنع العرب فى عهد الخليفة العباسى المعتصم من تسلم العطاء[١]. وعلى العكس استمر سكان الجزيرة العربية منذ قمع حركة الردة يدفعون الزكاة، التى كان أغلبها من الإبل[٢]؛ بحيث وجد ما يعرف بأمراء الصدقة[٣]، كما أن عمر فرض على بضائع تجار الجزيرة ضريبة «العشر[٤]» ، وخصوصاً أن العرب كانوا مشهورين بتجارتهم الرابحة .

أما غير العرب من سكان البلاد المفتوحة، فكانوا يعرفون وقتئذ بأسماء منها: «رعية[٥]» بحكم أن العرب رعاتهم ، أو «ذمة[٦]» إذا كانوا من أهل كتاب، كالمسيحيين واليهود والمجوس والصابئة[٧]، أو « موالى[٨]» إذا أسلموا بحكم أنهم صاروا أتباعاً للعرب . وقد كان على سكان البلاد المفتوحة أن يقدموا العطاء للعرب؛ بحيث أن هؤلاء أصبحوا يعيشون على حساب الشعوب المفتوحة. وكان هناك رأى: أن تقسم الأراضى المفتوحة[٩]، ولكن عمر وجد أن هذه الطريقة قد تؤدى إلى مشكلات من الأولى تجنبها ؛ ولذا قرر :أن الأرض

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق Lévi-Provneçal و Colin ، طبعة Leyden ، ١٩٤٨ — ١٩٥١، ٢ ص ٤٠ س ٥.

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٩ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٧٦ س ١٣ .

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٤٦٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٦٧ .

(٥) الكامل، ٣ص ٣٠ س ٨؛ انظر. المصباح المنير، ١ ص ٣٥٤؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٧ .

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ س ٧ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٣ ، ٢٩ ؛ انظر. ترتون، أهل الذمة فى الإسلام، ترجة وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩ .

(٧) الماوردى، الأحكام، ص ١٢٨ ؛ انظر . Menant : Les Zoroastriens, de Perse. R. M. M. Oct. 1907, vol. 3, p. 196.

(٨) لسان ، ٢٠ ص ٢٨٨ وما بعدها ؛ ابن الأثير، الكامل، ٤ ص ١٥٨ ؛ انظر. Ency. de l'Isl, t 3. p. 479.

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ص ٦٨ .

لا تقسّم وتبقى فى أيدى أهلها؛ الذين عليهم أن يبقوا بجوارها يزرعونها ولا ينتقلون عنها(١) ؛ على أن يدفعوا ضريبة الأرض أو الخراج(٢)، التى كانت تفرض فى الممتلكات البيزنطية: وذلك للدلالة على خضوعهم للعرب ، بحيث كانت تسمى أيضاً « جزية (٣)» . وتشتمل(٤) هذه الضريبة على المال الذى يجبى كل سنة على الأرض المزروعة ، وعلى الواجبات العينية من حنطة وعسل وزيت وغيرها من منتجات القرية، وهى تختلف بحسب طبيعة الفتح(٥) : فإذا كانت البلد فتحت صلحاً ، فى هذه الحالة يتفق على قيمة الضريبة، أما إذا أخذت عنوة فهى تعتبر غنيمة للفاتح وتكون « فيئاً(٦)» للمسلمين . وفى الواقع لم يكن هناك تمييز بين الأرض المفتوحة صلحاً أو عنوة ، وكان الجميع يدفعون ضريبة الخراج ، حتى ولو أسلموا(٧) . أضف إلى ذلك أنه قرر على أهل القرى من دون المدن ضيافة المسلمين إذا مروا بهم ثلاثة أيام(٨) ، على ألا

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ س ٢٢ ؛ انظر . Gaud-Platonov: Le Monde Musul. et Byz, p. 202.

(٢) أنظر . الماوردى ، ص ١٢٦ وما بعدها ؛ انظر . Van Berchem : La Propriété territoriale et l'impôt foncier. Thèse de Leipzig, 1861, p. 20 ؛ Ency de l'Isl, (art Kharâdj) t 2, p. 955—956 ؛ Massé : L'Islam. Paris, 1940, p. 63. ؛ رونسيمان، الحضارة البيزنطية ، ترجمة، ١٩٦١ ، ص ١٠٨ — ١١٢ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ ؛ انظر . بعده .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١١٢ — ١٢٣ ؛ انظر . Van Berchem : La Prŏpriété, p. 49.

(٥) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣١ ؛ السيوطى ، ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ .

(٦) هذه الكلمة تعنى المال الذى لا يؤخذ قهراً ، ولا تخمس كما فى الغنيمة ، ولعلها مال المسلمين (الماوردى ، الأحكام ، ص ١١١ وما بعدها) ، وهى ذكرت فى القرآن (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ٥٩ : ٦) . أيضاً ، انظر . Ency. de l'Isl (art. Faî') t 2, p. 41—42

(٧) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣١ — ١٣٢ . وإن ذكر أنه يجوز أن تسقط بإسلامهم . أنظر . بعده .

(٨) نفسه ، ص ١٢٩ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ .

يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا يجاهروا بشرب الخمر، ولا يركبوا الخيل.. الخ.
كذلك فرضت ضريبة أخرى على سكان البلاد المفتوحة تعرف بالجزية(١)، وتكون بدفع المال على الرءوس(٢)، وذلك للدلالة أيضاً على عزة الإسلام. وهذه الضريبة التي ذكرت في القرآن(٣)، وجباها النبي(٤)، كان يفرضها البيزنطيون(٥) على رعاياهم باسم : Laographia ، كما أن الفرس(٦) كانوا يأخذونها من اليهود والمسيحيين في بلادهم. وكانت الجزية في أول الأمر بسيطة أقصاها ديناران في العام(٧)، ولا تؤخذ إلا عن كل نفس من البالغين(٨) ، ولا تجبى من النساء والصبيان والشيوخ أو من العبيد ؛ وكانت قابلة للتعديل بحسب حالة الشخص. أما الذين كانوا يعتنقون الإسلام ، فإنه كان من المفروض أن يعفوا(٩) منها ipso facto ، وإن كان عليهم دفع الزكاة ؛ ولكن ولاة العرب استمروا في فرضها(١٠) ، مما كان سبباً في ثورة الشعوب(١١) . وقد كان من يدفعها في مصر يوضع حول عنقه ختم من رصاص(١٢)، دليلاً على

---

(١) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٢٦ وما بعدها ؛ الموطأ ، ص ١٢٩ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص١٦٨ ؛ أنظر . فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص٦ ؛ وأيضاً . Ency. de l'Isl, (art Djizya) t I, p. 1082—1083
(٢) وهي تسمى أيضاً الجماجم . أنظر . الخطط ، ١ ص ١٥٩ س ١٠ .
(٣) القرآن ٩ : ٢٩ . (٤) فتوح البلدان ، ص ٦٨ .
(٥) رونسيان ، الحضارة البيزنطية ، ١٩٦١ ، ص١٠٨ — ١١٢ . أنظر. Greek-English. Lexicon : Liddil - Scott . يظهر أنها كانت في أول عهد الفتح العربي لمصر لها أسماء أخرى وردت في الأوراق البردية ، مثل :.Diagraphon و Andrismoss أنظر . Cheïra : La Documentation Papyrologique de l'Epoque Arabe. Alexandrie, 1948. cf
(٦) أنظر . Menant . Les Zoroastriens. R. M. M. n. 10 Oct, 1917, p. 196.
(٧) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٢٤ س ٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ س ٥ .
(٨) حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ س ٢٦ ؛ الموطأ ، ص ١٢٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ س ٦ — ٧ ؛ الماوردي ، الأحكام ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٩) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٣٠ س ٥ . (١٠) الخطط ، ١ ص ١٢٥ .
(١١) أنظر ما بعده . (١٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ س ١٥ .

أنه دفعها للعرب وهو صاغر ، كما نص القرآن(١) ؛ ولذلك كانت بعض القبائل(٢) العربية غير المسلمة تعفى من دفعها ، لما فيها من إذلال .

هذا وقد أبقى عمر على النظام الإدارى الذى وجده فى البلاد المفتوحة بدون تعديل كبير ، وذلك لأن العرب فى ذلك الوقت لم تكن لهم أية حضارة ، أو تجارب حضارية تمكنهم من قلب الأوضاع وإحلال نظم جديدة ؛ ولذلك كان لعمر من المرونة ما جعله يوافق على إدخال نظم فارسية وبيزنطية عديدة فى نظام الدولة الإسلامية(٣) . فقد أبقى عمر على الدواوين — أى السجلات — تكتب بلغة أهلها : فكان ديوان الشام باليونانية ، وديوان فارس أو العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية(٤) . وكان مظهر عمل الدواوين الأساسى هو إخراج المال لأعطية الجند وسائر الكلف(٥) ، أما ما يفضل فكان أغلبه يحمل إلى بيت المال فى المدينة(٦) ، حتى ولو كان من الضريبة العينية كالحبوب(٧) . كذلك أبقى عمر على نظام العملة التى كانت فى التداول ، على الرغم من أنها كسروية وهرقلية(٨) ، ومنقوش عليها العقيدة المسيحية أو بيت النار ، وتواريخها قديمة قد يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام بأربعمائة سنة(٩) ؛ ولكن عمر أضاف إليها عقيدة الإسلام ، وكلمة «جائز»(١٠) ، للدلالة على أنها عملة جيدة ، حسب المعيار الرسمى الذى

(١) القرآن ٩ : ٢٩ ؛ أيضاً : الماوردى ، الأحكام ، ١ ص ١٢٧ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٤٣ — ١٤٥ ؛ انظر Ency. de l'Isl, t 1, p. 1082 ، وذلك كما فعل عمر مع بنى تغلب ، وأهل نجران .

(٣) أنظر . فون كريمر . الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٦٠ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٥٨ س ١٠ — ١١ ؛ انظر Cheira, La Documentation Papyrologique de l'Epoque Arabe. Alexandrie, 1948 cf. عن معنى الديوان وتطوره انظر الهامش قبله وأيضاً : Ency. de l'Isl, (art Dîwân), tl, p. 1006

(٥) الخطط ، ١ ص ١٥٦ س ١٩ — ٢٠ .

(٦) نفسه ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٩ ، ٣ ص ٣١ .

(٧) أنظر . قبله .

(٨) المقريزى ، النقود الإسلامية ، طبعة قسطنطينية ١٢٩٨ هـ ، ص ٥ .

(٩) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧١ س ٧ .

(١٠) أنظر . المقريزى ، النقود ، ص ٩ ؛ Lavoix : Catalogue des, Monnaies Musulmanes, : Khalifes Orientaux, t 1, Préface. p. 1, 3—4; 8; 9; 10; 13; 15 (50); 17 (57).

أقرّه النبي وأبو بكر من قبل(١)؛ فبقيت وحدة العملة – كما كانت من قبل – بالدينار الذهبي والدرهم الفضي(٢). وفوق ذلك لم يغيّر عمر في التقسيم الإدارى للبلاد المفتوحة: ففي مصر بقيت الكورة(٣) «Cuira» أى المركز، وفي فارس «الرساتيق(٤)» أى الولايات، وإن ولّى على البلاد حكاماً من قبل الخليفة، هم عادة قواد الفتح يُطلق عليهم: «صاحب العمل»، كما يلقبون «بالأمير(٥)».

أما الشئون القضائية في البلاد المفتوحة فكان يشرف عليها بالنسبة للعرب رجل دين يسمى القاضي(٦)؛ وإن كان عليه أن يشرف على الفيء والغنائم أيضاً(٧). أما الشئون الخاصة بالقضايا بين الرعية، يشرف عليها رجال الدين من أهالى البلاد المفتوحة، وإن صارت المنازعات القضائية للقبط في مصر تُعرض على قاضي المسلمين(٨). ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في عهد عمر، بحيث إنه كان من الجائز أن يشكو أحد الرعايا عامل الخليفة للخليفة(٩).

كذلك يرجع الفضل إلى عمر في تنظيم مسألة التاريخ الهجرى(١٠)؛ فالعرب كانت تتبع تواريخ مختلفة على حسب الأحداث الجسام، مثل: يوم الفيل. ولكن

(١) المقريزى، النقود، ص ٤.
(٢) الدينار أصله لاتيني «Denarius»، استخدم في عملة روما، فنقل إلى العربية بتحريف خفيف «دينار». وعلى العكس فإن درهم لفظة فارسية معربة. أنظر: أنستاس مارى الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٣–٢٥؛ والملاحظات.
(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ١١٦.
(٤) روستاق من روستاى أو روستا، بمعنى الكور أو المخاليف. معجم البلدان، ٧ ص ٤٠٢؛ انظر.
A Comprehensive Persian English Dictionary 3ed, : Steingass London, 1947, p. 594.
(٥) الكامل، ٣ ص ١٥–١٦؛ انظر. حسن إبراهيم وعلى، النظم الإسلامية، القاهرة ١٩٣٩، ص ١٩٧.
(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٤؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٨٦.
(٧) الكامل، ٢ ص ٣١١ (آخر الصفحة).
(٨) الكندى، الولاة القضاة، تحقيق Guest، ص ٣٥١.
(٩) الكامل، ٣ ص ٣٠.
(١٠) نفسه، ٣ ص ٣١؛ السخاوى، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق ١٣٤٩ / ١٩٣١، ص ٨٠.

بمجىء الإسلام وقع إختيار المسلمين على سنة هجرة النبى إلى المدينة (٦٢٢م) مبدأ التقويم بهم، لأن تاريخ مبعثه مختلف فيه: كما أن وفاته كانت تثير عندهم الشجن، مما حدا بهم إلى إختيار الهجرة لأنها — فى رأيهم — فرّقت بين الحق والباطل، وأنهم لم يختلفوا فى تاريخها. ومع ذلك فمن المؤكد أن التاريخ الهجرى لم يتخذ أساساً للتقويم؛ إلا فى عهد الخليفة الثانى: عمر بن الخطاب حوالى العام ١٧/٦٣٨[١]: والذى دعاه إلى ذلك هو أن الامبراطورية الإسلامية كانت قد اتسعت، واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتأريخ كتبه إليهم، أما قبل ذلك فى عهد النبى وأبى بكر فكان يؤرخ بسنى إقامة النبى فى المدينة[٢].

وقد اتخذ العرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية[٣]، وهى التى وردت فى القرآن عدة مرات: ﴿هُوَ الذى جعَلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدَّرَهُ منازِلَ لتعلَمُوا عددَ السنين والحساب ١٠:٥﴾. ولكن على الرغم من أن الهجرة كانت فى ربيع الأول، فإن المسلمين اختاروا شهر المحرم بداية لتاريخهم، لأنه شهر حرام[٤]، ولأنه أول الشهور فى العدة ومنصرف الناس من الحج. فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتى: المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، وذو الحجة. كذلك اتخذ التاريخ الهجرى الليالى أساس التوقيت نظراً لاعتمادهم على السنة القمرية، ولأن الليل سابق النهار، وذلك على عكس المسيحيين، الذين اعتمدوا على السنة الشمسية، واتخذوا النهار أساساً للتقويم. وقد ظهر للعرب — بسبب إختيار الليالى فى التاريخ — بعض التعبيرات الخاصة، منها: أول ليلة فى الشهر لأول العام (السنة أو الحول) أو لغرّته أو لليلة خلت، ثم لليلتين

---

(١) ابن الجوزى، تاريخ عمر، ص ٤ انظر. Ency. de l'Isl, (art Hidjra) 2, p. 321.

(٢) السخاوى، ص ٧٩، ٨١.

(٣) نفسه، ٧٩؛ صبح الأعشى، ٢ ص ٣٥٨، ٣٨٨.

(٤) السيوطى، كتاب الشماريخ فى علم التاريخ، تحقيق Seybold، طبعة Leiden ١٨٩٤؛ صبح الأعشى، ٣ ص ٣٦٤.

خلتا ، ثم لثلاث خلون إلى العشر ، فخلت إلى النصف ، فلنصف من كذا ، وهو أجود من الخمس عشرة خلت ، بعد ذلك نقول لأربع عشرة ليلة بقيت إلى العشرين، ثم لعشر بقين إلى آخره ، فلآخر ليلة أو لسلخه أو لانسلاخه .

* * *

ولكن عمر بن الخطاب الذى أعتبر متمماً لأعمال النبي وأبى بكر ، قتل فى أواخر سنة ٢٣/٦٤٤[١] ، على يد عبد فارسى اسمه أبو لؤلؤة المجوسى، لأسباب غير واضحة لعل منها الحقد الشخصى ؛ وبذلك ختمت حياة رجل عظيم من رجال الإسلام، كان يعبر بشخصيته القوية وطوله البائن ، عن شموخ دولة الإسلام .

وقبل موته عيّن ستة من أكابر صحابة النبي، ليختار المسلمون واحداً منهم ليكون خليفة بعده، وقد عرف هؤلاء: « بأهل الشورى[٢] »، لتشاورهم فى هذا الأمر الخطير ، وهم [٣]: عثمان بن عفان ، وعلىّ بن أبى طالب، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله . وقد بدا منذ تشاورهم فى منزل عائشة؛ أنهم يميلون ـ كما حدث فى إختيار الخليفة سابقاً ـ إلى تفادى تولية علىّ حتى لا تتحول الخلافة إلى ملك وراثى فى بنى هاشم[٤]، وخصوصاً أن عمر أيضاً رفض أن يعهد بها إلى ابنه عبد الله[٥]. وعلى العكس كانوا يميلون إلى تولية

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٦ ، ٢٨ س ٣ — ٤ ؛ ابن الجوزى ، تاريخ عمر ، ص ١٥٢ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٦ . لعل عمر لم يجد من يستأهلها حتى يعينه ، كما فعل أبو بكر . أنظر . الماوردى ، ص ٩ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٥ ؛ البلاذرى ، أنساب الأشراف ، تحقيق Goïtein ، ٥ ص ١٦ س ٧ — ٨ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٣٧ س ٢٧ — ٢٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٤ .

عثمان(١) بالذات لسابقته فى الإسلام ، وإصهاره للنبي مرتين فى ابنتيه رقية ثم أم كلثوم، ولهجرته إلى الحبشة ،ومفاوضته المكيين قبيل صلح الحديبية .هذا وأن عبد الرحمن كان صهره(٢)، وسعداً من أقربائه(٣). وطلحة(٤) غائب عن المدينة ، ولعل الزبير انضم إليه أيضاً . ولكن قبل أن تعلن الأغلبية رأيها فى الاختيار ،كان كل واحد من أهل الشورى يخلع نفسه ، ويفوض غيره فى إختيار الخليفة(٥)، إلى أن إنتهى الأمر إلى عبد الرحمن(٦)، الذى أعلن تولية عثمان الخلافة، وذلك فى المحرم سنة ٢٤ / ٦٤٤(٧). أما على فإنه اعتبر إختيار عثمان تحاملاً جديداً على بيت النبي(٨) ، ولكنه أضطر(٩) إلى المبايعة مثلما حدث سابقاً عند اختيار أبي بكر وعمر ؛ وإن لم يمنع هذا أن يبدى بنو هاشم(١٠) وأمراء(١١) الأمصار إمتعاضهم من هذا الإختيار، وخصوصاً أن عثمان هو أحد أفراد الأسرة الأموية(١٢)، التى كانت منافسة لبنى هاشم فى الجاهلية، وعارضت النبي والإسلام .

ومن المحقق أن عهد عثمان كمّل العهدين السابقين،ففى عهده نجد أن العرب الذين كانوا قد احتلوا سواحل الشام ومصر الطويلتين ، أخذوا يفكرون(١٣)

---

(١) أنساب، ٥ ص ١—٢ ؛ انظر. طه حسين، عثمان، القاهرة ، ص ٥٠—٥٤ .
(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٨ س ٤ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٥ (آخرها) .
(٤) أنساب ، ٥ ص ٨ س ٢١—٢٢ .
(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٦ ؛ الماوردى، الأحكام ، ص ٩ .
(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٦ .
(٧) أنساب ، ٥ ص ٨٥ س ٢١ .
(٨) الكامل، ٣ ص ٣٧ س ٩ وما بعدها .
(٩) أنساب ، ٥ ص ٢٢ س ١٥—١٨ .
(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣٥ .
(١١) نفسه ، ٣ ص ٣٧ .
(١٢) أنظر تأييد بنى أمية لعثمان . نفسه، ٣ ص ٣٧ س ١٣ .
(١٣) أنظر إلحاح معاوية على الخليفة عمر فى القيام بالغزو فى البحر. الخطط، ٣ص ٣٠٨ .

جدياً فى القضاء على قوة بيزنطة البحرية، التى أصبحت مصدر تهديد لامبراطوريتهم الناشئة: فقد كان احتفاظ بيزنطة بالسيطرة البحرية مما جعلها تقاوم فى مدن الشام الساحلية مدة طويلة، كما استطاعت أن تعود إلى مهاجمتها فى سنة ٢٣(١) /٦٤٤، فاحتلت بعض مدنها لولا همة عامل الشام معاوية؛ وأنها هاجمت أيضاً الإسكندرية فى سنة ٢٥(٢)/ ٦٤٥، وإن طردهم عمرو بن العاص. وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البرية قوة بيزنطة البحرية تتحداهم، وأن السواحل التى احتلوها تقف حائلاً دون تقدمهم.

وفى أول الأمر لم يكن العرب يستطيعون شيئاً ضد هذه القوة البحرية، التى كانت تصول وتجول أمام سواحلهم، وتسيطر على معظم جزره، بحيث سُمى البحر الأبيض باسم: «بحر الروم(٣)»؛ وذلك لأن العرب أمة بدوية لم يكن لهم خبرة بركوب البحر وإنشاء السفن(٤). ولكى يقضوا على خطر عدوهم البحرى لجأوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور، منها: إصلاح الحصون الساحلية القديمة(٥)، التى تركها البيزنطيون فى مصر والشام، وأخذ بيوت على الساحل، لتحويلها إلى قلاع للمقاومة تسمى «أخائذ»(٦)، وإنشاء «مناظر» أى أماكن يُراقب منها العدو، كانت تتخذ «المواقيد»(٧)، لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجىء. كذلك رُتب الجند بطول الساحل، حيث كانوا يتغيرون كل ستة أشهر(٨)؛ وفى

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١١٦—١١٧، ١٢٦—١٢٧، ١٤٠—١٤٢؛ انظر: La lutte, p. 97—98. : Cheira

(٢) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥؛ انظر. La lutte, p. 98—99. : Cheira

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٩ س ١٩.

(٤) نفسه، ص ٢٠٠؛ الخطط، ٣ ص ٣٠٩ س ١٦. أنظر وصف عمرو للبحر بقوله: «فيه كدود على عود». الخطط، ٣ ص ٣٠٨.

(٥) البلاذرى، فتوح، ص ١٢٨.

(٦) ابن عبد الحكم، ص ١٣٠. وهى كلمة من أخذ منزلا.

(٧) البلاذرى، فتوح، ص ١٢٨؛ انظر. La lutte, p. 88-89. : Cheira؛ العدوى، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣، ص ٥٠.

(٨) ابن عبد الحكم، ص ١٩٢.

الوقت ذاته عمل على تكوين صفات بحرية للعرب ، بأن شجعوا على سكنى السواحل وهو ما عرف ، بالرباط(١) ، وذلك بمنحهم الإقطاعات(٢)، حتى يكونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية .

ولكن فى عهد الخليفة عثمان بدىء فى تجهيز أسطول عربى(٣) ، ليكون ضماناً للقضاء على أى هجوم معاد من البحر ، فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد ضد أملاك البيزنطيين(٤) . وقد وكل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة فى الصناعة(٥) ، أى أن صناعة المراكب البحرية فى البلاد المفتوحة فى كل من مصر(٦) والشام(٧) ، وبخاصة إلى القبط(٨) ، الذين أسهموا بنصيب كبير فى بناء الأسطول الإسلامى فى دور صنعاتهم ، التى عرفت بجزيرة مصر أو الروضة(٩) ، بحيث لم تأت سنة ٣٣/٦٥٤ حتى كان للعرب أسطول يتكون من أكثر من ألف وسبعمائة قطعة(١٠) ، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية فى البحر الأبيض ، ويستولوا على بعض جزره .

وكان نشاط الأسطول العربى كبيراً فى أول عهده: فقد كان يشحن فى السفن المقاتلة ونساؤهم(١١) — على عادة العرب فى القتال — من ثغور مصر والشام ،

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٧٥ ؛ انظر . أغابيوس (Agabios) ، العنوان ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ ، ٢ ص ٢١٩ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 91.

(٣) الكامل ، ٣ ص ٤٨ س ١٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٣ .
هذه الكلمة غير عربية (الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ — ٦) ، ولعل أصلها يونانى ، تطلق على مجموع السفن الحربية وعلى السفينة الواحدة . أنظر . عبادة ، سفن الأسطول الإسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ١٠ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٨ هامش (١) .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ٢٠ — ٢١ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ، ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ؛ انظر . Bell : Catalogue of the Greek, Papyri in the Brit. Mus. IV, 1376 ; 1410.

(٧) أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٣ .

(٨) الطبرى (طبعة مصر) ، ٣ ص ٣٤١ .

(٩) الخطط ، ٣ ص ٢٨٩ .

(١٠) أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٠ .

(١١) الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ (آخر الصفحة) ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ س ٩ .

صيفاً وشتاء(١) ، للغارة على سواحل العدو ، حتى أن عبدالله بن قيس الذى استعمله معاوية فى البحر غزا خمسين مرة(٢). ولكن جل جهود أسطول الشام كانت موجهة نحو جزيرة قُبْرُس(٣)، التى كانت تسيطر عليها بيزنطة ، وتتخذها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر : فغزاها معاوية بنفسه بقصد الإغارة فى سنة ٢٨(٤)/٦٤٨ ، ولعله غزاها ثانية فى سنة ٢٩/٦٤٩ . ولكن فى سنة ٣٣(٥)/٦٥٤ غزاها العرب من مصر والشام بقصد احتلالها ، وفعلاً أبقوا فيها الحاميات ، وأنشأوا المساجد .

ويظهر أن هذا النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة ، بحيث أن امبراطورها قنسطانز الثانى(٦) «Konstas II» (٦٤٢ — ٦٦٨م)، جمع عدداً من المراكب لم يجمعها من قبل — تزيد على ألف مركب(٧) — وسار بها بقصد ملاقاة أسطول العرب ، أو بقصد احتلال الإسكندرية ، أكبر موانى البحر الأبيض. فخرجت إليه أساطيل العرب فى أعداد كبيرة(٨)، بقيادة عامل مصر عبدالله

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٦ .

(٢) نفسه ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) عنها ، انظر ٠ معجم البلدان ، ٧ ص ٢٦ :

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٣ ؛ انظر ٠ نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٣ ؛ عبادة ، سفن الأسطول ، ص ٢١ ؛ Cheïra : La lutte, p. 99.

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص١٥٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ ؛ ابن عبدالحكم ، ص١٧٥؛ انظر ٠ Cheïra : La lutte, p. 101.

(٦) الكامل ، ٣ ص ٥٨ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ — ١٩١ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س٢ .

(٨) أختلف فى عددها : فقال أغابيوس ١٧٠٠ (أنظر ٠ العنوان ، ٢ ص ٢٢٠) ، وابن عبد الحكم مائتين (فتوح مصر ، ص ١٩٠) ، والبلاذرى خمسمائة ٠ فتوح البلدان ، ص ١٥٣ .

ابن سعد بن أبي سرح. فتقابل الأسطولان قرب سواحل آسية الصغرى سنة ٣٤/ ٦٥٤، فى معركة عرفت باسم: «ذات السوارى(١)»، لكثرة سوارى المراكب. وقد كان القتال عنيفاً بين الطرفين، فبعد ليلة أمضوها فى العبادة، نظم القواد الجند على ظهر المراكب فى صفوف، ثم قربت السفن بعضها ببعض بعد ربطها، واقتتل العدوان بالسيوف والخناجر، فقتل من البيزنطيين مالا يحصى، ودمرت معظم مراكبهم، وأنقذ الامبراطور حياته بصعوبة، بفراره إلى جزيرة صقلية. وقد كان النصر فى هذه الموقعة حاسماً، حتى أنه شبه بموقعة اليرموك، التى لم تقم للبيزنطيين بعدها قائمة فى الشام، ومهد لسيطرة العرب البحرية، فأخذوا يغيرون على جزر صقلية(٢)، ورودس(٣)، وإن كان العرب لم يستفيدوا من هذا الانتصار الباهر فى مهاجمة القسطنطينية مباشرة(٤)، التى كان من الممكن أن تسقط بين أيديهم.

---

(١) الكامل، ٣ ص ٥٨—٥٩؛ ابن عبد الحكم، ص ١٩١ س ١؛ الطبرى (طبعة مصر)، ٣ ص ٣٤١؛ انظر. Chronog. : Theophanis ed de Boor. p 332;344 345؛ انظر. Die Kampfe der Araber, : Well. mit den Rômaern. Nachrichten der König., Gesellschaft der Wissensch, Phil. Hist. Klasse. Gottingen 1901, p.420 :Canard؛ Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende. J. A. Jan-Mars. 1926, p. 63—94. : Cheïra؛ La lutte, p. 102—3.

وتكتب أحياناً صوارى. الخطط، ٣ ص ٣٠٩؛ انظر. Dozy: Suppl, aux Dict. Arab., 1, p. 651. تسمى أيضاً موقعة فونيقية (أغابيوس، ٢ ص ٢٢٤)؛ لوقوعها قرب ثغر "Phoenicus"، على ساحل آسية الصغرى أنظر. Canard : Les Expéd, p. 63—64.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٦؛ انظر. زيادة، صور، ص ٤٦.

(٣) أغابيوس، ٢ ص ٢٢٢؛ الخطط، ٣ ص ٣٠٩.

(٤) أنظر. Canard : Les Expéd, p. 67.

أما فى البر فقد كان الجيش العربى منهمكاً فى إتمام فتح فارس ، وكان قتل يزدجرد فى سنة ٣١[١]/٦٥١، له أثره فى إنهاء المقاومة فى هذه البلاد ، ومد سيطرة المسلمين فيها إلى الشمال ناحية الترك[٢]، وإلى الشرق ناحية الهند[٣] . ومن ناحية أخرى كانت الخلافة تشجع الجهاد[٤] ، بقصد تأمين أطراف الامبراطورية : فكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يشن الغارات على البلاد المجاورة لمصر فى إفريقية غرباً[٥] ، وفى النوبة جنوباً[٦]، حيث عقد مع ملك هذه الأخيرة معاهدة « البقط »، كما كان معاوية فى الشام يبث غاراته فى بلاد الروم ذاتها[٧]، مستفيداً من انتصارات المسلمين البحرية .

ولكن أهم ما حدث فى البر فى عهد عثمان هو فتح أرمينية[٨] : وهى صقع عظيم واسع يمتد إلى جبال القَبق (أو القوقاز [٩]) والبحر الأسود شمالاً ، وبعض الجزيرة جنوباً ، وبحر الخزر [١٠] (أوقزوين) وهضبة آذربيجان شرقاً ، وآسية الصغرى والجزيرة غرباً ؛ فيشمل الأراضى الجبلية التى كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها[١١]: الدجلة والفرات فى الجنوب، والكر «Kyros» والرس «Araxe» فى الشمال .

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٥٩ ؛ انظر . قبله .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١٤ ، ٥٤ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٦٥ س ٩ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٥ س ٨ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 69 sqq.
(٥) الكامل، ٣ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ؛ عن إفريقية ، انظر . معجم البلدان، ١ ص ٣٠٠ وما بعدها .
(٦) أنظر . قبله .
(٧) الكامل ، ٣ س ٤٤ .
(٨) عنها، انظر . معجم البلدان، ١ ص ٢٠٣ وما بعدها؛ صبح الأعشى، ٤ ص ٣٥٢ : Ency. de l'Isl, (art Arménie) t 1, p. 441 sqq ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١١٣ .
(٩) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧ .
(١٠) نسبة إلى شعب الخزر . معجم البلدان ، ٣ ص ٦٦ — ٦٧ ؛ [illegible] له أسماء عدة منها بحر قزوين بسبب بلدة قزوين القديمة. عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٧٩ وما بعدها .
(١١) التنبيه ، ص ٦٢ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٠٣ ؛ . Enc. de l'Isl, t 1 p 442 .

وكان يسكن هذه البلاد شعب أسيوى لا نعرف أصله ، يُنسب إلى هذه البلاد ويُعرف بالأرمن(١) ، تحوّل إلى المسيحية من عهد مبكر(٢)، مما كان سبباً فى أن بدأت تظهر له شخصيته ، التى لا يزال محتفظا بها إلى الآن. كذلك كان يعيش فى أرمينية جماعات يهودية ومجوسية(٣) ، أتته من البلاد المجاورة .

ولكن وقوع هذه البلاد بين شعوب متعادية جعلها طعمة لجيرانها منذ قديم الزمان(٤): كالسلوقيين والرومان والبيزنطيين من ناحية، وممالك إيران من ناحية أخرى. ويظهر أن فرعاً من أسرة الأرشكانيين(٥) (البارثيين) الفارسية، استطاعت أن تكوّن فيها ملكاً دام مدة أربعة قرون . وبعد زوالها من أرمينية سيطر الساسانيون على جزء كبير منها ، فكانوا يعينون عليها حاكماً «مرزباناً(٦) »؛ وإن كان البيزنطيون من ناحيتهم استولوا على الأجزاء المجاورة لهم(٧). وقد كان ظهور شعب الخزر(٨) فى المناطق الشمالية المجاورة لأرمينية — وهو شعب مجهول الأصل يتكلم لغة مخالفة للغة الترك ـ مما جعل الفرس تبنى قلاعاً أو قصوراً من الحجارة على أفواه شعاب جبال القبق أو القوقاز عُرفت بالأبواب ، لمنع غاراتهم ؛ ومع ذلك تمكن الخزر من الاستيلاء على بعض أجزاء أرمينية(٩) . ويبدو أن الروم فى عهد هرقل (١٠)

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٩٩ س ٩ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. t I., p. 442

(٢) أنظر . Sébêos, p. 109 sqq . منهم الكاثوليكية .

(٣) البلاذرى . فتوح ، ص ٢٠٠ .

(٤) أغابيوس ، ٢ ص ٢٠٣ ؛ Sebêos, p. 4sqq ؛ انظر . Ency. de l'Isl, tI. p. 442—8.

(٥) أنظر . Sébêos, p. I ؛ Langlois : Collection des Historiens, anciens et modernes de l'Arménie. tome I et. II, Paris.1867-9,p.80

(٦) أغابيوس ، ٢ ص ٢٠٣ ؛ Sebêos, p. 4 sqq

(٧) معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٤ ؛ انظر . Laurent: L'Arménie entre Byzance et les Arabes Paris. 1919, p. 304.

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٩٥ س ١٠ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٢ وما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Khazar) t2. p. 99 sqq .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٩٤—١٩٧ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٩ .

(١٠) أغابيوس ، ٢ ص ٢٠٤ ؛ انظر . H. et Del : Op. cit, p. 356.

استطاعوا أن يضموا الجزء الأكبر منها بعد هزيمتهم الفرس، بحيث أنهم جلبوا إليها الجموع الكثيرة(١)، وإن كان الأرمن دائمى الثورة عليهم للإختلاف فى المذهب(٢). وقد كان لطمع جيران أرمينية، ولطبيعة أرضها الجبلية، أن قُسمت منذ القدم إلى أقسام مختلفة، مثل(٣): أرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى، أو أرمينية الداخلة أو الخارجة، بل ثلاث أو أربع أو خمس أرمينيات.

ونحن لا نرى فى أسباب مهاجمة العرب لأرمينية: إلا أنهم أصبحوا على حدودها، بعد أن فتحوا بلاد الجزيرة ومنطقة آذَرَبيجان الفارسية(٤)، بحيث أنهم فى عهد عمر كانوا قد منحوا بعض أهلها المجاورين للجزيرة الأمان(٥)، وفتحوا بعض مدنها(٦). أضف إلى ذلك أن غزوها كان ضرورة لتأمين حدود امبراطوريتهم فى الجزيرة والشام لوجود حدود مشتركة(٧). وأن العرب أرادوا تضييق الخناق على دولة الروم بآسية الصغرى بحرمانها من أرمينية الخاضعة لها، تمهيداً للقضاء عليها كما قضوا على فارس من قبل.

على كل حال نجد أن الخليفة عثمان يمهد لغزو أرمينية، بجمع القيادة فى الشام والجزيرة لمعاوية سنة ٢٠(٨)/٦٤٦. فأرسل هذا الأخير قائداً عُرف بحروبه مع بيزنطة، وهو حبيب بن مسلمة الفهرى(٩)، ليغزوها بجنود من الشام والجزيرة

---

(١) الكامل، ٣ ص ٤٣؛ Sebêos, p. 107

(٢) أنظر. Sebêos, p. 109 sqq

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ١٩٣ — ١٤٩، ١٩٩؛ ابن حوقل، تحقيق de Goeje، ص ٢٩٥؛ معجم البلدان، ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤؛ انظر. Ency de, l'Isl, I p. 479.

(٤) أنظر. معجم البلدان، ١ ص ١٥٩ — ١٦٠.

(٥) الطبرى (Annales) ١ : ٢٦٦٥ — ٢٦٦٦. ؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٦٣.

(٦) أنظر. معجم البلدان، ١ ص ١٩٠ — ١٩١، ٢ ص ٩٠.

(٧) أنظر. Cheira : La lutte, p. 70.

(٨) فتوح البلدان، ص ١٧٨؛ انظر. Cheira : La lutte, p. 72

(٩) فتوح البلدان، ص ١٩٧؛ الكامل ٣ ص ٤٠.

والعراق والحجاز . ومع أن العرب قوبلوا فى أرمينية بمقاومة من الروم الذين جمعوا جموعاً عظيمة من الأرمن وشعوب الخزر، فإن مدن أرمينية الهامة أخذت تقع فى أيديهم، وعقد حبيب مع أهلها معاهدات أمان وصلح(١) ، مثل : قاليقلا(٢) مركز أرمينية الرومية، ودبيل (٣) مركز أرمينية الفارسية، وتفليس(٤) الواقعة على نهر الكر، قرب بلاد الخزر . كذلك خرج قواد آخرون متوغلين فى جميع أجزائها ، حتى أن العرب فى انسياحهم بلغوا بلنجر عاصمة الخزر(٥)، وبرذعة(٦) فى أقصى نواحى آذربيجان الفارسية، وشمشاط(٧) فى أقصى أرمينية الرومية على شط الفرات. لكن بدلاً من أن يتولى حبيب عمل أرمينية، ولى عثمان حذيفة بن اليمان(٨) ، لينتفع بحبيب كغاز فى ثغور الشام والجزيرة. والواقع إن خضوع أرمينية للعرب، كان يعتمد على معاهدات الصلح(٩)، أكثر من اعتماده على حاميات العرب، وبذلك حققت الدولة العربية هدفها فى تأمين حدود بلادها، وتضييق الخناق على دولة الروم .

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ — ١٩٨ ، ٢٠٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص١٧ .قد تكون «Erzurûm» . أنظر . Ency. de l'Isl, tI, p. 443.

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٥ . هى ماتعرف بـ(Dwin) . أنظر . Ency. de l'Isl, tI. 444.

(٤) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٩٦ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٧٨ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ١٢١ .

(٧) نفسه ، ٥ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٨) فتوح البلدان ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ . توفى سنة ٣٥ أو ٣٦ . أنظر . شذرات الذهب ، ١ ص ٤٤ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٤٧ .

(٩) أنظر . Sebêos, p. 133 ; Cheïra : Les Statuts de pays, des Abd, p. 47.

ومن الجائز أن يكون لغزو أرمينية أثره الكبير في جمع القرآن في نص موحد: فقد ذهل حذيفة بن اليمان ـ أحد قواد العرب ـ بسبب الإختلاف في قراءة القرآن بين جنوده من أهل العراق والشام؛ فقدم على عثمان، وقال[١] له: «أدرك الأمة قبل أن يختلفوا إختلاف اليهود والنصارى»؛ لذلك عمل الخليفة على جمع القرآن في نص موحد.

أما قبل ذلك فلم يرد إلينا ما يؤيد أن النبي قام بجمع القرآن في كتاب واحد؛ وإنما كان يملي ما ينزل به الوحي على بعض الصحابة، الذين عرفوا بكتّاب الوحي[٢]، فكانوا يكتبونه على الرقاع والعسب والأكتاف والأقتاب واللخاف والقراطيس وقطع الأديم، حيث كانت تقوم مقام الورق وقتئذ. وإن كنا لا نعرف كيف كان الإملاء، وخصوصاً أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة على النبي، وإنما مفرقاً[٣]، وأنه كان ينزل عليه ليلاً وهو نائم[٤]، أو نهاراً حتى وهو راكب ناقته[٥]؛ كما أن النبي كان ينسخ[٦] بعض الآيات التي أملاها، ويأتي بأخرى محلها.

ولا ريب أن النبي لم يفكر في جمع القرآن في كتاب واحد؛ لأنه كان

---

(١) أنساب، ٥ ص ٦٢ س ١٩؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١ ص١٠٢؛ انظر: Blachère · La Coran. Introd. Paris, 1947, p. 53.

(٢) الإتقان، ١ص ١٠١ ــ ١٠٢. الرقاع مفردها رقعة تكون من جلد أو ورق، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل، والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة، كانوا إذا جف كتبوا عليه، والأقتاب جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير؛ واللخاف وهي الحجارة الدقاق، والقراطيس جمع قرطاس وهو الورق، أما الأديم فهو الجلد.

انظر أيضاً: Schwally · Gesch des Qorâns. Die Sammlung des Qorâns. Leipzig, 1919 p. 13 n. 2, 3, 4, 5, 6, 7.

(٣) الإتقان، ١ ص ٤٨.

(٤) نفسه، ١ ص ١٣، ٣٤، ٣٧.

(٥) ابن خلدون، ١.

(٦) القرآن ٢: ٦

مثل بقية العرب يحبذ الحفظ فى صدور الرجال على الكتابة(١)، وأن الله هو خير حافظ له فى الصدور(٢)؛ وأنه وإن كان أملا ممتفرقاً فلكى يحفظ لا ليكون عليه الاعتماد(٣)، ولذلك كان النبي يرسل بقراء القرآن إلى أنحاء الجزيرة لتعليمه للعرب(٤) ، ولا يرسل ما كُتب منه. وعلى العكس نحن لا نظن إطلاقا بأن النبي لم يجمعه فى كتاب بسبب أنه أمى(٥)، فهذه الكلمة فى القرآن لا تعنى الجهل ؛ وإنما تعنى أن العرب ليسوا من أهل الكتاب ، كالنصارى واليهود .

كذلك لم يفكر أحد فى حياة النبي فى جمعه؛ لعدم ضرورة ذلك لوجود صاحب الرسالة(٦). ولكن بعد موته وُجد حماس لجمع القرآن بين بعض الصحابة ، مثل: على(٧)، وعبد الله بن مسعود(٨)، وأبى بن كعب(٩)، وأبى موسى الأشعرى(١٠)...الخ فكل من هؤلاء كان عنده نسخة من القرآن جمعها باجتهاده وبطريقته الخاصة؛ وقد انتشرت هذه النسخ مع الفتوح وأصبحت عماد الدين . ولعل أهم ما جمع منها هو نسخة الخليفة أبى بكر، الذى أمر(١١) زيد بن ثابت ـ أحد كتاب الوحى للنبي ـ بجمع القرآن فى كتاب بسبب أنه أخترم عدد كبير من القراء يوم اليمامة سنة ٦٤٢/١١؛

---

(١) كشف الظنون ، ١ ص ٢٦ . ينسب إلى النبي بعض الأحاديث بأنه نهى عن الكتابة ، لتبق العرب على ملكة الحفظ . نفسه ؛ الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٣٣ .

(٢) (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥ : ٩) . أنظر أيضاً القرآن ٧٥ : ١٧ .

(٣) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، ص ٦٨ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٥٦ س ٥ .

(٥) القرآن ٧ : ١٥٨ ؛ انظر . Noldeke : Geschichte des Qorâns, Gottingen, p. 16.

(٦) أنظر . Blachère : Introd. au Coran, d. 25

(٧) السيوطى ، الإتقان ، ١ ص ١٠٠ . يقال إنه أول من بدأ بجمعه .

(٨) نفسه ، ١ ص ١٠٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٥٥ . توفى فى خلافة عثمان . أنظر . أنساب الأشراف ، ٥ ص ٣٧ س ٢٢ .

(٩) الإتقان ، ١ ص ١٠٧ ، ١٢٤ . توفى فى خلافة عثمان . أنظر . Schwally : Die Sammlung des Qorâns, p. 30 sqq.

(١٠) الإتقان ، ١ ص ١٢٤ . كان مصحفه يسمى لباب القلوب . الكامل ، ٣ ص ٥٥ . توفى عام ٦٧٢/٥٢ .

(١١) الكامل ، ٢ ص ٢٤٧ ، ٣ ص ٥١ ؛ الإتقان ، ١ ص ٩٩ عن زيد ، انظر Encyc. de l'Isl. (art Zaid B. Thâbit) 14. p. 1261—2.

لئلا يذهب القرآن. فلما جمعه زيد بقي عند أبي بكر إلى أن توفاه الله ثم عند عمر، فلما توفى عمر أخذته حفصة. وإن كان من المعلوم أن أبا بكر أو عمر لم يفرض هذا القرآن على أحد، وذلك بسبب عدم رغبتهما في القيام بعمل لم يعمله النبي.

ولكن الخليفة عثمان بن عفان أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك، لأنه في عهده اختلف في قراءته بسبب تعدد لهجات العرب(١). كذلك قد يكون هناك غرض سياسي بقصد التقليل من نفوذ القراء، الذي تزايد بسبب أنهم وحدهم يعرفون مضمون القرآن، بأن يوجد له نصاً مقروءاً. وقد اعتمد عثمان في تنفيذ هذا المشروع على جماعة منهم(٢): زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ وقال لهم إذا اختلفتم فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وقد اتخذ هؤلاء قرآن أبي بكر الذي طلبه عثمان من حفصة(٣) أساساً لعملهم؛ فكان هذا الاختيار موفقاً؛ لثقة(٤) التابعين في أبي بكر، وإن اعتمدوا أساساً على ذاكرة القراء، وجعلوا النص قرينة على صحة الحفظ(٥). فلما أتموا جمعه نسخوا منه عدة نسخ أرسلها الخليفة إلى كل أفق(٦): في مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين، وأمر بإحراق ما سواه(٧)، والاعتماد عليه دون غيره.

وقد كان هذا القرآن الذي جمع يسمى: «مصحف عثمان(٨)»، أو فقط «المصحف(٩)»،

---

(١) الإتقان، ١ ص ١٠٣؛ انظر. يحيى نامي، أصل الخط العربي، ص ٨٧؛ Ency. de l'Isl, (art Othmân) t3, p. 1078.

(٢) الكامل، ٣ ص ٥٦؛ الإتقان، ١ ص ١٠٢. ولي عثمان في حياته زيداً الديوان وبيت المال. نفسه، ٣ ص ٩٨ س ٢١.

(٣) الإتقان، ١ ص ٥٦.

(٤) انظر Noldeke : Qorâns, p. 205

(٥) الخطيب البغدادي، ص ٦٨.

(٦) اختلف في عدد النسخ فقيل أربع أو خمس أو سبع. الإتقان، ١ ص ١٠٤؛ انظر Noldeke : Qorâns, p. 234

(٧) الكامل، ٣ ص ٥٦.

(٨) هذا المصحف لم يتبق لنا، وإن ذكر ابن بطوطة وجوده في الجامع الأموي بدمشق. انظر رحلته؛ أيضاً: Kratchkovky : Avec les Manuscrits. p. 182. sqq.

(٩) الإتقان، ١ ص ١٠٢؛ انظر Noldeke : Qorâns, p. 193 n (1).

وقسم إلى سور بلغ عددها مائة وأربع عشرة سورة(١) ، فيها ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية(٢) ؛ وكل سورة فيه تبدأ بيسم الله الرحمن الرحيم ، ما عدا سورة براءة(٣)، التي يبدو من سياقها أنها جزء من سورة الأنفال السابقة لها . ويبدو أن الذاكرة العربية لم تع الترتيب التاريخي لنزول الآيات ، فرتبتها على حسب قصرها وطولها ، بأن صيرت الطوال مع الطوال والقصار مع القصار(٤)، مما كان سبباً في أن جعل بعض السور المدنية تظهر فى أول المصحف والمكية في آخره. وقد ورد عن النبي أنه كان يأمر كتاب الوحي بوضع الآية كذا بعد آية كذا(٥). ومع ذلك فإننا نرى أن القرآن كتاب للدعوة الدينية ، وليس كتاباً تاريخياً .

ولكن ماقام به عثمان فى جمع القرآن لم يكن عملاً تاماً ، لأن سكان البلاد المفتوحة حينما أسلموا لم يكن في استطاعتهم قراءة القرآن ؛ إلا بمساعدة أهل الحجاز وحفظه عن ظهر قلب(٦)، وذلك لخلو اللغة العربية وقتئذ من التنقيط(٧)، فكانت حروفها متشابهة . ويظهر أن الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الأمويين أخذ على عاتقه وضع النقط للقران ، مما سهل قراءته. وإن كان لبعض الفقهاء لهم رأى فى ذلك: هو أن التنقيط مكروه ؛ لأنه يسيء الظن بالنص .

---

(١) لعل أصلها من السؤر أى ما بقى من الشراب ، أو مأخوذة من التسور بمعنى التصاعد. الإتقان ، ١ ص ٧٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١١٢ .

(٣) إذا عدت الأنفال وبراءة سورة واحدة ، فإنه يكون عدد سوره مائة وثلاث عشرة سورة . الإتقان ، ١ ص ١١٢ .

(٤) أنظر . القرآن .

(٥) الإتقان ، ١ ص ٥٢ ، ١٠٤ .

(٦) أنظر . Blachère : Introd, p. 66.

(٧) أنظر . يحيى نامى الخط العربى ، ص ٨٧ .

(٨) كشف الظنون ١ ص ٤٦٧ — ٤٦٨ ؛ انظر . بعده .

(٩) نفسه ، ١ ص ٤٦٨ س ٤ .

مهما يكن فقدحدث فى آخر عهدهذا الخليفةما يسميه المؤرخون المسلمون بالفتنة(١) : ويقصدون بها انفصام وحدة المسلمين السياسية وإختلاف آرائهم(٢)،وهى الوحدة التى أو جدها أبو بكر بقمع الردة وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم . وقدترتب على هذه الفتنة حروب بين المسلمين راح الخليفة نفسه ضحيتها ؛ ونحن لا نعرف أسباباً مباشرة لوقوعها ، وإن كنا نرجحها بعدة عوامل :

لعل أهمها تغيّر ظروف المجتمع العربى: فقد أثرى أهل الحجاز بخروج اليهود والنصارى من بلادهم ، وبما وردلهم من غنائم الأمم المفتوحة التى أخذت تترى عليهم كالسيل، وباستقبال القصّاد من الحجاج المسلمين . وقد خاف الخليفة عمر أن يكون هذا الثراء الطارىء سبباً فى فساد رجال قريش ، فتؤثر التنعم على الجهاد والفتوحات،لذلك حصر كبارهم بالمدينة،ولم يسمح لهم بالانطلاق(٣) إلى البلادالمفتوحة لتكوين الثروات،واكتفى بتقرير العطاء. ولكن عثمان الذى تولى الخلافة لم يسر على خطا سلفه ، وإنما زاد فى العطاء وأسرف فى منح الإقطاعات والجوائز والصلات ، وسمح لقريش بالانتشار فى الأمصار(٤)، بحيث وجدنا أن الصحابة قد اغتنوا ، فمثلاً : طلحة جمع مائتى ألف دينار(٥)،والزبير خلف خمسين ألف دينار ، وألف فرس ، وألف عبد ؛ وألف أمة ، والخليفة نفسه، كان له عند خازنه يوم قُتل، خمسون ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما ؛ مائة ألف دينار ، وخلف خيلاً وإبلاً كثيرة(٦).

وقد كان نتيجة هذه الثراء أن ظهر الترف واللهو فى المجتمع العربى : فعاد أهل الحجاز إلى حيـــاة الحواضر القديمة(٧)، فنعموا بسماع قصائد

---

(١) الكامل ٣ ص ١٠٣ س ١٩ .
(٢) لسان العرب ، ١٧ ص ١٩٣ ، ١٩٦ .
(٣) الكامل ٣ ص ٩١ س ١٣ . (٤) الخطط ، ٣ ص ٩١ .
(٥) أنساب الأشراف ، ٥ ص ٨ س ٢٠ — ٢١ .
(٦) مروج الذهب ، ٤ ص٢٥٣ — ٢٥٥ . (٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٣٩

الحب[١]، كما جلبوا القيان الفارسيات والروميات[٢]، بحيث اشتهرت مدينة النبي ومكّة في عهد عثمان بوجود أمهر المغنين أمثال[٣] : طويس وابن محرز وابن سريج . وقد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورفاهية : فشد أسنانه بالذهب[٤] ، وكان يأكل اللحم والسمن وصغار الضأن والدقيق المنخول[٥] ، وينظر إلى عمر على أنه حمّل نفسه مالا تطيق ؛ فقد كان عمر يعيش على العيش الخشن ، وخبز الشعير ، والثوب الخام المرقوع ، والقناعة باليسير[٦]. وقد كان نتيجة هذا الثراء واللهو حدوث رد فعل بين كثير من عقلاء المسلمين وأتقيائهم ، ظهر أثرها في عودة أبي ذر الغفاري[٧] ـ أحد أصحاب النبي ـ الذي أخذ يجوب الأقطار بين مكّة والمدينة ودمشق داعياً إلى ترك الرفاهية واكتناز الأموال ، وأن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته ؛ وكان يثير الناس ضد عثمان وعماله؛ بحيث أن معاوية ـ عامل عثمان في دمشق ـ اضطر إلى إرجاعه إلى المدينة ، فنفاه عثمان إلى الربذة[٨] ـ من قرى المدينة ـ ولم يخلص منه إلا بموته سنة ٣١ هـ

ثم إن عثمان لم يراع المصلحة العامة بقدر رعايته لمصلحة أقربائه: فقد عزل[٩]

---

(١) أنظر شعر عمر بن أبي ربيعة . La Littérature arabe,: Nallino p. 86

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٣٩ س ٤ .

(٣) عنهم ، انظر . الأغاني ، (طبعة بولاق) ٤ ص ٣٨ ؛ دائرة المعارف الموسيقية تأليف Rouant ، ترجمة شلفون ، ص ٥٨ حاشية (١) .

(٤) أنساب الأشراف ، ٥ ص ٤ س ٦ .

(٥) الطبري (طبعة مصر) ٣ ص ٤٣٠ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٥٧ ؛ الذهبي، دول الإسلام ، ١ ص ٣ ؛ الأنساب ، ٢ ص ٥٢ وما بعدها ؛ انظر. عبد الحميد العبادي ، صور من التاريخ الإسلامي ، ص ١٠٨ — ١١٦ .

(٧) هذا الصحابي اشترك في فتح مصر ، وغزا أفريقية في عهد عثمان . المالكي، رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٨) الكامل ٣ ص ٥٦ وما بعدها. عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢.

(٩) أنساب ، ٥ ص ٢٩ س ١٥ ـ ١٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤١ .

معظم العمال الذين كانوا اقدولاهم عمر بن الخطاب، وعين بدلهم أقرباءه من الأمويين؛ مع أن عبد الرحمن بن عوف قبل إعلان خلافته أخذ عليه المواثيق ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس(٢): فولى مروان بن الحكم(٣) — ابن عمه — على المدينة، وكتب له بخمس غنائم إفريقية(٤)، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح(٥) - أخوه من الرضاعة(٦) - على مصر، مكان عاملها الكفء عمرو بن العاص، وعبد الله ابن عامر(٧) - ابن خاله - على البصرة، وسعد بن أبي وقاص والوليد(٨) ابن عقبة وسعيد بن العاص - وكلهم من أقربائه - على الكوفة(٩). وكان معظم هؤلاء العمال غير جديرين بمناصبهم، وكان عرب الأمصار يشكون منهم، ويتمنون زوالهم(١٠). فقد كان أبو مروان يسمى طريد النبي(١١)، وعبد الله بن سعد مطعون الخلق والدين، قد هدر النبي دمه؛ بسبب تغييره في القرآن عند كتابته الوحي لولا شفاعة عثمان(١٢)، والوليد بن عقبة كذب على النبي(١٣)، ونزلت هذه الآية بسببه: ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ٤٩: ٦ ﴾، وأنه كان يشرب الخمر(١٤)، وسعيد بن العاص كان يعبث بالأموال وينزع نحو التمتع بالملك كأي ملك من الفرس أو الروم، بحيث كان يقول إنما هذا السواد بستان لقريش(١٥)؛

(١) أنساب، ٥ ص ٢٥ س ١٥ — ١٦.
(٢) نفسه، ٥ ص ٢٢ س ٨ — ٩. (٣) نفسه ٥ ص ١٢٥.
(٤) نفسه، ٥ ص ٢٥ س ١٧، ٢٧ س ٢٣.
(٥) نفسه، ٥ ص ٢٦ س ٥؛ انظر. جاد المولى، إنصاف عثمان، القاهرة: ١٩٤٤ ص ٣٢.
(٦) أنساب، ٥ ص ٢٨ س ٢. عن عزل عمرو، انظر. الكامل، ٣ ص ٤٥ س ٦.
(٧) أنساب، ٥ ص ٣٠ س ٣.
(٨) هو أخو عثمان لأمه. نفسه ٥ ص ٢٩ س ١٨؛ النويري، ٤ ص ٨٩.
(٩) الكامل، ٣ ص ٤٢، ٦٩.
(١٠) مثل عرب مصر الذين كانوا يتمنون زوال عبد الله بن سعد. أنساب، ٥ ص ٢٦ س ٦، ٩، ١١ — ١٢.
(١١) نفسه، ٥ ص ١٢٥.
(١٢) أنظر. جاد المولى، عثمان، ص ٣٢.
(١٣) أنساب، ٥ ص ٣٥ س ١١ — ١٢؛ انظر. طه حسين، عثمان، ص ٩٣.
(١٤) أنساب، ٥ ص ٣١ س ٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٠ س ٢٩.
(١٥) أنساب، ٥ ص ٤٠ س ١٧.

وأخيراً سعد بن أبي وقاص ، الذي عزل عن الكوفة بسبب اتهامه بالعبث بأموال الصدقة(١) .

أضف إلى ذلك أن عثمان ينتمي إلى الأمويين، مما جعل بني هاشم يقفون له بالمرصاد، ويعدون عليه هناته، لما بينهما من تنافس قديم يرجع إلى أيام الجاهلية(٢). وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريئاً في شخص رجل يُعرف باسم عبدالله ابن سبأ(٣)، ويتلقب بابن السوداء، يبدو أنه كان يهودياً من اليمن، وأسلم زمن عثمان. فقد كان هذا الرجل يجوب الحجاز والعراق والشام ومصر داعياً ضد عثمان، الذي اغتصب الخلافة مع وجود علي وصي النبي(٤)، بل أتهم عثمان بتبديل بعض السور التي تشير إلى وصاية النبي لعلي في إمامة المسلمين، وخصوصاً أن حرق مصاحف الصحابة أوجد المجال لمثل هذه الاتهامات(٥).

ومع ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين عرب الأمصار، الذين كان معظمهم جفاة من صميم البادية، لا تهمهم قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الإسلامية سيراً حسناً(٦)، فضلاً عن حقدهم على قريش مكانتها ، لظهور الإسلام فيهم، وتمتعها بمعظم خيرات الفتوح . فهؤلاء الذين قامت الفتوح على أكتافهم ، كانوا يريدون أن يكون لهم رأي مسموع في إختيار الخليفة ، بحيث إنهم أرسلوا أمراءهم « أمراء الأجناد(٧) » إلى المدينة بعد موت عمر .

---

(١) الكامل ، ٣.ص ٤٢ س ١٩ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ٢ ص ١١٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٧٢ س ٢١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allāh b. Saba) tl. p. 30 ؛ طه حسين، عثمان، ص ١٣١ وما بعدها.

(٤) الكامل ، ٣. ص ٨٧ ؛ النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٢٢ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٤٠ . بعض كتب الشيعة تعلن البراءة منه . أنظر . كاشف الغطاء ، الشيعة ، ط ١٠، ص ١٠٦ .

(٥) أنساب ، ٥ ص ٦٢ س ١٧ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ٨ ، ١٤٠ ؛ الكامل ٣، ص ٨٧ س ١٧.

(٧) الكامل ، ٣ ص ٣٧ س ٨ .

وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفتين الأولين دون معارضة فلمكانتهما ؛ ولجسامة الظروف فى ذلك الوقت ، وهى ظروف ارتداد العرب والفتح ولكن هذه الظروف الحرجة كانت قد انتهت ، واقتصرت الفتوح فقط على تأمين حدود الأمبراطورية ، فلم تعجبهم طريقة إختيار خليفة الإسلام دون مشورتهم(١)، ومن وراء الكواليس . ومن ناحية أخرى لم ير أهل المدينة تحقيقاً للوعد الذى بذله لهم المهاجرون فى سقيفة بنى ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء (٢) : فهم لم يستشاروا إطلاقاً فى إختيار عثمان .

لذلك نجد أنه فشت القالة بين عرب الأمصار بنقد الخليفة وتصرفاته(٣)، وساعد على ذلك لينه وحلمه بعد شدة عمر(٤)، وأيضاً كبر سنه، فقد بلغ الثانية والثمانين من عمره(٥)؛ مع العلم بأنه لم يجرؤ أحد من قبل على نقد أبى بكر وعمر؛ حيث كان كل منهما يسوس الأموال والمناصب بالعدل والقسطاس. كذلك وجدنا بعض الصحابة(٦)، وبخاصة علىّ يقف موقف المدافع عن سنة السلف والعدل ، ويلوم عثمان على توليته لأقاربه ، وانحرافه عن طرق الخلافة

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١١١ س ١١ ؛ انظر . Lammens : Études sur, le siècle des Omeyyades, p. 193.

(٢) أنظر . قبله .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ١٦ .

(٤) أنساب ، ٥ ص ٢٥ س ١٥ ؛ انظر . طه حسين، علىّ وبنوه ، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣ .

(٥) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٣٣ . هناك رواية أخرى تفيد أن عمره خمسة وثمانون سنة . أنساب ، ٥ ص ٩٩ س ٥ — ٦ .

(٦) قد يكون منهم عائشة وطلحة والزبير . أنظر . أنساب ، ٥ ص ٢٦ س ١٣ — ١٥ ؛ ص ٣٤ س ١٦ ، ص ٤٩ س ٩ وما بعدها ، ٨٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Alī B. Abī Tālib) tI, p. 285.

وسياستها قبله . وقد ظهرت المعارضة بشكل جدى حينما تزعمها القراء الأمصار[١]، وأخذ الخليفة يرضى معارضيه بعزل عماله على الكوفة ومصر والبصرة أكثر من مرة[٢].

وفى سنة ٣٥/٦٥٥ ، خرجت جماعة من المنحرفين على عثمان من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة للوم الخليفة[٣]، أما الشام فلم يظهر منها امتعاض، لوجود معاوية القوى[٤]. وبدلاً من أن يظهر الخليفة قوة وحزماً أمام عرب الأمصار ، ضعف ولجأ إلى مفاوضتهم، ووعدهم بإصلاح الأخطاء، واعترف بأنه زل وتاب [٥]؛ مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأمصار .

ولكن بعد رحيلهم عن المدينة ، ادعى عثمان فى إحدى خطبه أن عرب الأمصار اعترفوا له بأن ما بلغهم عنه باطل [٦]. ولما كان أهل المدينة على علم بحقائق الأمور، فقد استكثروا على الخليفة الكذب، وحينما خطبهم، حصبوه بالحجارة حتى وقع مغشياً عليه[٧]. ومن ناحية أخرى وقع فى يد عرب مصر الفسطاط ، كتاب مرسل من عثمان إلى عامله يأمره بجلد المتمردين والتنكيل بهم وطول الحبس[٨] . ولذلك أسرع عرب الأمصار بالعودة إلى المدينة ليجابهوه بالكتاب ، ولكنه أنكر ، مما أوغر صدورهم ؛ وجعلهم يحاصرون بيته بقصد تعطيشه ومنع القوت عنه[٩] ، حتى يخلع نفسه عن

---

(١) نفسه ، ٥ ص ٤٤ س ٢٠ .

(٢) ابن خلدون ، ص ١٧٠ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٩ .

(٣) أنساب ، ٥ ص ٣٠ س ٦ وما بعدها ، ص ٥٩ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٧٥ س ١١ .

(٥) أنساب ، ٥ ص ٤٦ س ٢١ ، ٦٤ ، س ٧ — ١٣ ، س ١٨ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٢ س ٩ ، س ١٩ — ٢٠ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٨٢ س ٥ — ٦ .

(٧) أنساب ، ٥ ص ٢١ س ١٢ — ١٣ .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٦٢ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٦٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ١٥ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٦٥ .

(٩) الجاحظ ، رسالة فى معاوية والأمويين ، ص ١١ .

الخلافة . ولكن عثمان رفض وقال[١] : « لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله » .
ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة ، وخرج بعض الصحابة من المدينة ،
حتى لا يظن بأنهم المحركون للمتمردين على الخليفة ؛ فخرج عليّ إلى مكان
مجاور للمدينة ، كما أن جلة المهاجرين والأنصار لم يحركوا ساكناً[٢] .

فلما سمع المحاصرون بأن عثمان قد كتب إلى معاوية وعماله فى الأمصار[٣] ،
يستنجد بهم ويأمرهم بإرسال الجنود إليه ، أشعلوا النار فى باب داره
واقتحموه ، وكان جالساً فى محرابه يقرأ القرآن ، فضربوه بالسلاح ، وبعجوا
بطنه بالحراب ، وشدخوا هامته بالعمد ، فسال دمه على المصحف فى حجره[٤] .
وقد حاولت زوجته نائلة بنت الفرافصة[٥] — التى تزوجها من قبيلة كلب
على حدود الشام — إتقاء سيوف الثوار بيدها ، فقطّعوا أصبعين من
أصابعها ، فكشفت عن قناعها ، ورفعت عن ذيلها ، ليكون ذلك ردعاً لهم ،
ولكن هذا لم يمنع من قتل زوجها ، الذى ألقى بجسده فى الأوساخ .
وقد سعت نائلة إلى دفن زوجها ، وأرسلت بقميصه المخضب بالدم وأصابعها
التى قطعت إلى معاوية ابن عمه : لتحريضه على الأخذ بثأر الخليفة المقتول ؛
مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين .

* * *

(١) الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ٢٩ .

(٢) الجاحظ ، رسالة ، ص ١٢ — ١٣ .

(٣) أنساب ، ٥ ص ٩٧ س ٥ — ٦ ؛ الكامل ، ٣ ص ٨٥ س ٢٦ .

(٤) أنساب ٥ ص ٨٣ ؛ الجاحظ ، رسالة ، ص ١١ — ١٢ ؛ محمد بن يحيى (٦٧٤ — [illegible] هـ) : التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان [illegible]

(٥) [illegible]

بعد مقتل عثمان أصبح عليّ وشيك تنفيذ رغبات قلبه فى تولى الخلافة، فقد جاءه الناس كلهم يهرعون وهم يقولون : أمير المؤمنين[١] وفى الحقيقة أن عليّا كان قد شعر فى قرارة نفسه — وهو قريب النبي — أنه نحى عن الخلافة ، وأن قريشاً تحاملت ضده لأنه من بيت هاشم الذى ظهرت فيه النبوة، وعارض عشائرها إلى أن بسط الإسلام سلطانه ؛ فاضطروه إلى بيعة أبي بكر وعمر ، وأخيراً بيعة عثمان بحد السيف[٢] . ولذلك قبل عليّ الخلافة من عرب الأمصار وأهل بدر والمهاجرين والأنصار عامة لما عرضوها عليه[٣] ؛ وإن كان بعض الصحابة توقفوا عن بيعته حتى تنجلى الأمور[٤]. فاتخذ عليّ بجانب ألقاب الخلافة لقب : « الإمام[٥] » ، لما فيه من معنى أحقيته لإمامة المسلمين كما فى الصلاة[٦]؛ وبذلك أضفى عليّ على الخلافة سلطة دينية بجانب سلطتها الزمنية ، حتى لا يسهل معارضتها .

ولكى يؤكد عليّ سلطته فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية أرسل بالكتب يشرح فيها سبب قبوله الخلافة من أيدى عرب الأمصار ، أهل المدينة[٧] . ولكن هذه البيعة جعلت العرب فى مناطق الأعمال تنقسم على نفسها ؛ بحيث لم يكن يخلو قطر من أقطارها من وجود أعداء له أو حاقدين عليه . وفى الوقت ذاته بادر عليّ تحت تحريض الثوار بعزل العمال الذين عيّنهم عثمان ؛ وقد أذعن جميعهم ما عدا معاوية فى الشام، الذى كان هدده

(١) أنساب ، ٥ ص ٧٠ س ٩ .

(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٢ س ١٥ — ١٨ .

(٣) نفسه ، ٥ ص ٧٠ ؛ العقد ، ٢ ص ٣٩٨ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٩ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٩٨ س ٧ . تدل كلمة « إمام » على عدة معان فى القرآن ، منها : « مقدم » و « هاد » و « زعيم » و « قدوة » . أنظر. القرآن ٢١ : ٧٣ ، ٢٥ : ٧٤ ، ٤٦ : ١٢ . عن هذا اللقب . انظر أيضاً . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٧٢ — ٧٣ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ١٠٤ .

إن نال الخلافة بالمقاومة[١]. فكان معاوية يعلّق على المنبر فى دمشق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة[٢]، ويحرض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة المقتول.

ويظهر أن أعداء علىّ لم ينتظروا طويلاً فى إعلان مقاومتهم لبيعته، فقد تجمع فى مكة ذاتها الأمويون الهاربون من المدينة[٣]، والحاقدون عليه قبوله الخلافة من أيدى قتلة عثمان[٤]. ومن بينهم أزواج النبي وعلى رأسهن أم المؤمنين عائشة[٥]. ومن المحقق أن عائشة كانت مؤهلة للقيام بدور سياسى فى تاريخ المسلمين، فهى بالإضافة إلى أنها أحب النساء إلى النبي[٦]، كانت تعتبر حجة للرجال والنساء فى الدين[٧].

وقد ازداد العداء لعلىّ بمجىء طلحة[٨] والزبير[٩] من المدينة ـ وكلاهما من صحابة النبي وأنصار عثمان ـ فادعيا أنهما بايعا عليّاً بالإكراه[١٠]، وأنه ليس أهلاً للخلافة[١١]

---

(١) الكامل، ٣ ص ٨١ س ٨ — ٩.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة، ١ ص ١٣٣؛ الأغانى (طبعة بولاق) ١٥ ص ٧٠؛ انظر. جاد المولى، عثمان، ص ٨٧.

(٣) الكامل ٣، ص ٩٩ س ٣، ١٠٦ س ١٥.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٠٦. كان عثمان يحج بهن كل عام. نفسه، ٣ ص ٩١ س ١٨.

(٥) كان يشاركها فى هذا اللقب معظم زوجات النبي (ابن هشام، ٢ ص ١٠٠١؛ انظر. Essad Bey : Mah, p. 211). ولا ريب أنها كانت لاتزال تحقد عليه منذ ذلك اليوم الذى تاهت فيه فى الصحراء أثناء إحدى غزوات النبي، حينما انسل عقدها وخرجت تبحث عنه، فلما رجعت كانت القافلة قد رحلت، وهى تجر هودجها ظناً منهم أنها فيه، فأحضرها أحد الأعراب إلى النبي وكثر قول أهل الإفك، فأشار علىّ على النبي بطلاقها، ولكن القرآن برأها، وعرف ذلك «بالافك» أو بحادثة «العقد». أنظر. البخارى، ٥ (مجلد ٢) ص ١١٦؛ ابن هشام، ٢ ص ٧٣١ وما بعدها؛ طه حسين، علىّ وبنوه، ص ٢٩.

(٦) الكامل، ٣ ص ١١٠ س ٢٠.

(٧) أنظر. Essad Bey : Mah, p. 214.

(٨) هو أحد ذوى قربى أبى بكر، أسلم صغيراً وشهد بدراً، ودافع عن النبي يوم أحد، ووقى رسول الله بيديه. الكامل، ٣ ص ١٠٩؛ ابن سعد، ٣/١ ص ١٥٢ — ١٦١؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Talha) t 4, 673 sqq.

(٩) أسلم وقت إسلام عثمان (أنساب، ٥ س ١)، وهو حوارى الرسول، وأحد العشرة الذين وعدوا بالجنة، وكان قائد المدد الذى أرسل لفتح مصر (أنظر. قبله)، وأحد أصحاب الشورى. المعارف، ص ١١٣؛ انظر. Wüstenfeld : Die Familie el-Zubeir, Göttingen, 1878, p. 23 sqq.

(١٠) الكامل ٣ ص ١١٠ س ١، ١٢٢.

(١١) نفسه، ٢ ص ٨٠ س ٣ — ٤، س ٩ — ١٠.

بعد عثمان ولا أولى بها منهما . ولكن لما كانت مكة بلداً حراماً لا يُقاتل فيها، اتخذ أعداء على طريق العراق ؛ وخصوصاً أنه كان لطلحة والزبير بها أنصار يرشحونهما للخلافة[1]، ويحقدون على علىّ قبوله الخلافة من قتلة عثمان .

وقد كان على هذا الثالوث: عائشة وطلحة والزبير، أن يواجهوا أنصار علىّ فى العراق . وقد حاولت عائشة أن تثير العرب فى هذه النواحى على علىّ[2] ، على أساس أن غايتها « الإصلاح[3] » ، حتى يختار المسلمون من يرغبون فى ولاية أمرهم . ولكن كثيراً من العرب استكبروا على زوجة النبى خروجها من بيتها[4]: وانقسمت القبائل على بعضها[5]: فيما بين مؤيد لها ومعارض. ولما كان أنصار علىّ كثيرين فى البصرة، اضطرت إلى محاربتهم وانتصرت عليهم، وحكمت على عامل البصرة من قبل علىّ بالضرب، ونتف لحيته[6]. كذلك كاد يحدث انقسام بين طلحة والزبير على إمامة الصلاة ـ بقصد الزعامة ـ لولا تدخل عائشة ، بأن أسندت الصلاة يوماً إلى طلحة ويوماً إلى الزبير[7].

وقد كان لابد لعلىّ أن يترك المدينة ويسير إلى العراق ، فخرجت عائشة وأنصارها للقائه ، وأخذت مكانها فى المعركة وهى جالسه فى هودج على جمل كالراية لتحميس الجند ، إلا أن علياً لم يستطع أن ينال النصر إلا بعد أن دارت معركة حامية قُتل فيها طلحة والزبير[8]، وعُقر جمل عائشة ، الذى قُتل حوله سبعون رجلاً[9]. ولذا عُرفت هذه الموقعة التى دارت رحاها

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٠ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٠ ، ١١٢ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ١٠ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١١٠ س ٢٢ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ١٢٥ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ١١٠ س ١٦ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ١٠٧ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ .
(٩) نفسه ، ٣ ص ١٢٧ .

فى سنة ٦٥٦/٣٦ بموقعة الجمل [١] . ومع موقف عائشة العدائى ، فإن عليّاً أعادها إلى مكّة معززة مكرّمة [٢] ، حيث عاشت بعد ذلك عيشة هادئة إلى أن ماتت فى سنة ٥٨ [٣] /٦٧٧ ، بعد حوالى سبعة وأربعين عاماً من موت النبي . وبذلك خضعت العراق لعليّ ، وإن هرب منها قوم ، فصاروا إلى معاوية ليحاربوا معه [٤].

وقد استفاد معاوية - عامل الشام الجرىء - من هذه العداوة الطارئة ، ليتأهب للقاء عليّ ، كما سعى إلى تحسين علاقته بالبيزنطيين ، برد أسراهم وعقد الصلح معهم [٥]، خوفاً من أن ينتهزوا الفرصة فيهجموا على الشام. فلما تم لمعاوية ذلك، خرج فى سنة ٣٧ [٦] /٦٥٧، على رأس أهل الشام، الذين كان عثمان - الخليفة المقتول - قد تزوج من كلب إحدى قبائلهم الكبيرة [٧]؛ بحيث أن منهم من أقسم ألا يغتسل أو ينام على الفراش حتى يقتل قتلة عثمان [٨]، كما كان يحدث عند الأخذ بالثأر فى الجاهلية . فتلاقى جيش الشام مع جيش عليّ من أهل العراق، أمام «صفّين» [٩]، وهى قرية قديمة غربى نهر الفرات ، ليس بينها وبينه غير غيضة ماء ، وطريق مفروش بالحجارة. وبذلك عادت ذكرى العداء القديم بين عرب

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١٠٥ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣٢ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢١٠ ؛ انظر . Mah, p. 214 : Essad Bey

(٤) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٥ س ١٤ .

(٥) أنظر . Sebêos, p. (1) ؛ الدينورى ، ص ١٦٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ؛ أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة طه بدر ، ص ١٣١ ؛ La lutte, p. 105 : Cheïra

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٤٧ .

(٧) أنظر . قبله .

(٨) الكامل ، ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٩) أنظر . Chronog. p. 423 : Theophanis ؛ الدينورى ، ص ١٧٠ ؛ Ency. de l'Isl, (art Siffîn,) t 4, p. 347 . عن صفين ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ .

العراق وعرب الشام ، وهو عداء ليس مبعثه النزاع بين العرب حلفاء الفرس أو الروم — كما كان الحال سابقاً — وإنما الآن بين أشياع عليّ وأنصار معاوية ، وهم جميعاً من المسلمين .

تراصت القبائل العربية المتعادية أمام بعضها فى صفوف براياتها لتدافع عن أحسابها[1]، وبدأت الحرب بتبادل الخطب الحماسية والمبارزات الفردية؛ وإن كان عليّ فى هذه المرحلة الأولى استطاع بقيادة قائده الأشتر النخعى السيطرة على مشارب الماء [2] . كذلك تبادل كل من عليّ ومعاوية الرسل ، وكان قصد عليّ من ذلك أن يبايعه معاوية ، أما معاوية، فصمم على أن يسلّم إليه عليّ قتلة عثمان ، وأن يتخلى عن الخلافة ويجعلها شورى؛ ولكن عسكر عليّ أجابت على ذلك أمام رسل معاوية بأنها جميعها قتلة عثمان [3]. ويروى المؤرخون وقوع معارك عنيفة بين الطرفين بلغ عددها تسعين معركة[4]: خاض فيها عليّ ومعاوية وقائع رهيبة، وأبديا من صنوف الشجاعة الشيء الكثير.

ولكن يظهر أنه مع تصميم كل من عليّ ومعاوية على القتال إلى آخر رمق؛ فإن الرغبة فى الاستمرار فى القتال عند أتباعهما أخذت تضعف[5]: وبخاصة عند أتباع عليّ بين عصبة القراء والحفاظ الكثيرين[6]؛ الذين قدّروا بحكم حماسهم

(١) الكامل ، ٣ ص ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ الدينورى ، ص ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٥ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٤٥ ؛ نفسه ، ص ١٧٠ — ١٧١ . الأشتر عرف فى حروب الروم (فتوح البلدان ، ص ١٦٤) ، واشترك فى موقعة الجمل . أنظر . عنه Ency. de l'Is', (art al-Ashtar) tI, p. 492—93

(٣) الدينورى ، ص ١٦٥ س ٧ .

(٤) التنبيه ، ص ٢٩٥ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ .

(٥) الدينورى ، ص ١٩١ ؛ انظر . رضا ، عليّ ، ص ١٧٣ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٥٢ س ٤ ، ١٥٦ س ١٨ ، ١٥٩ س ٩ ؛ الطبرى (Annales) ١ : ٣٢٧٢ ، ٣٢٨٣ ، ٣٢٩٢ .

للإسلام، أنه إن استمر العرب فى إراقة دمائهم ، رجع الروم والفرس إلى قتالهم والطمع فيهم(١) ؛ وفقدوا فتوحاتهم الواسعة التى درّت عليهم الشرف والعطاء. لذلك أخذ الحماس للقتال يفتر بين الطرفين ، فكانت المعارك تدور يوماً ، ثم لا تلبث أن تخمد فى اليوم التالى . ولا ريب أن عمرو بن العاص، الذى عُرف بالدهاء(٢) واستطاع معاوية أن يستميله إلى صفه ، أحس بهذه الروح الفاترة للحرب بخاصة فى جيش علىّ ، فنصح معاوية بربط مصحف دمشق الأعظم على خمسة رماح، يحملها خمسة رجال أمام المحاربين ، بقصد التحكيم إلى كتاب الله وسنة نبيه، ووقف إراقة دماء المسلمين، ولمّ شعث الأمة وصلاحها(٣). وكان نتيجة ذلك أن أجبر علىّ على إيقاف القتال مع تعارض ذلك لمصلحته، وخصوصاً أن كفته كانت الراجحة. وتحت إلحاح المعارضين فى القتال وبخاصة من القراء، قبل علىّ التحكيم وكتبوا لهذا صحيفة(٤)، بدأت بذكر أسماء المتقاضين، وهم: علىّ ومعاوية دون أن يذكروا للأول لقب أمير المؤمنين، وإنما اسمه واسم أبيه، وحددوا زمان التحكيم فى أجل غايته إنقضاء رمضان، وإلا فالطرفان فى حل من العودة الى الحرب، وأن يكون باذرُحْ مكان وسط بين أهل الشام والعراق(٥)، وسموا الحكمين اللذين سيحكمان فى هذا النزاع، وهما عمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية، وأبو موسى الأشعرى ممثلاً لعلىّ(٦)

(١) الدينورى ، ص ١٩١ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ١٤١ س ٥ . يوصف بأنه ناب من أنياب العرب . نفسه . ٣ ص ١٤١ س ٨ .

(٣) الدينورى ، ص ١٩١ — ١٩٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٦٧ ؛ انظر . Ency, de l'Isl, (art Siffîn) t 4, p. 424.

(٤) الكامل ، ٣ ص ١٩٧ — ١٦٣ ؛ انظر مجموعة الوثائق، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ١٦١ . يخلط المؤرخون بينها وبين دومة الجندل ، ولكن مى ولا ريب أذرح . الكامل ، ٣ ص ١٦٣ س ١٥ — ١٦ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٧٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Adhroh) tI, p. 138

(٦) كان قاضياً على الكوفة من قبل عمر (المقدمة ، ص ١٧٤ س ٢١ — ٢٢) ، ثم عاملا لعثمان (ابن سعد ٤ ، ١ ص ٧٨ وما بعدها ؛ فتوح البلدان ، ص ٥٥) ، ولكنه عزله . أنظر . Ency. de l'Isl. (al - Ash'arî) tI, p. 488 ؛ جاد المولى ، عثمان ، ص ٥٤ ؛ طه حسين ، على وبنوه ، ص ٢٥ .

على أن يتخذا القرآن والسنة وحدهما أساساً لحكمهما؛ ويراعيا فى ذلك الذمة؛ وأن يقبل علىّ ومعاوية حكمهما وليس لهما أن ينقضاه: وقد صدّق شيعة علىّ وأنصار معاوية على هذه الصحيفة .

والواقع إن قبول علىّ لهذه الهدنة كان أول الوهن، فقد أحدث انقساماً فى صفوف أتباعه . فنجد جزءاً من جيشه، ينكر عليه وضع حقه فى الخلافة — وهو مقدس — للتحكيم بين الناس، مع أن عثمان رفض التنازل عنها وقُتل فى سبيلها ؛ بدلا من أن تكون المعركة وحـــدها هى الناطقة بحكم الله : على عادة العرب فى القتال؛ فعرفوا بسبب ذلك: بالمحكّمة[1]. وانسحبوا إلى حروراء — مكان قريب من الكوفة — وعُرفوا : بالحرورية[2]؛ حيث اختاروا واحداً منهم جعلوه زعيماً لهم، هو عبدالله بن وهب الراسبى[3]. وقد بدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة فكرة الخروج، التى لا تحمل لقريش أو لقرابة علىّ للنبى أى درجة ؛ وأن الخلافة يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله ؛ وبسبب ذلك عُرفوا أيضاً : « بالخوارج » ، أى الخارجـــين على علىّ ومعاوية .

ولكن جماعة أخرى كان التحكيم هو السبب فى ظهورها، هى المعتزلة، لأنها اعتزلت بيعة علىّ[4]، وامتنعت عن محاربته أو المحاربة معه؛ فلم تنغمس فى حرب

---

(١) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١١٣ ، ١٥٥؛ انظر Ency. de l'Isl, (art . Kharidijtes) t2, p. 957 sqq.

(٢) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ س ٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٣) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٧ . راسب حى من الأزد .

(٤) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٥٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٣١ س ٢٠ .

الجمل، ولم تشترك فى موقعة صفين. ولعل هذه الجماعة التى اعتزلت السياسة هى أسلاف المعتزلة،(١) التى كان لها آراء دينية متعددة فى العقيدة والقرآن(٢).

وعلى العكس ظهرت فرقة أخرى وقفت موقف التأييد على الأقل من الأمويين، هى: المرجئة(٣)، التى نشأت هى الأخرى فى هذه الفتنة؛ وسميت هكذا لأنها قالت بإرجاء الاختلاف فى الحكم على الناس فى إيمانهم وأعمالهم إلى الله(٤). فهى فرقة لا تقبل رأى الخوارج، ولا تريد أن تنغمس فى الفتن، وتريد أن تسالم الجميع، وتترك الأمور إلى الله؛ وهذه العقيدة المحايدة هى أساس فرق المرجئة بفروعها(٥).

وفوق ذلك فإن صحب علىّ وأتباعه(٦)، وهم الذين عرفوا: بشيعة علىّ أو فقط بالشيعة، كانوا يرون أن الخلافة من أركان الدين والمصالح العامة، لا تفوض(٧)

---

(١) النوبختى، فرق الشيعة، ص ٥.

(٢) أنظر. الشهرستانى. الملل والنحل، ١ ص ٢٩ — ٣٠؛ Ency. de, I'Isl, (art al-Mu'tzila) 13. p. 341 sqq.

(٣) النوبختى، فرق الشيعة، ص ٦؛ Ency. del'Isl, (art al-Murdji'a 13, p. 784؛ أنظر: Macdonald: Mah. Studien, 3, p. 21: Gold. Irdjâ, :Van Vloten,: Develop. of Muslim Theology, p. 122 sqq Z. D. M. G. 45, 1891, pp. 161-171.؛ فون كريمر، الحضارة، تعريب طه بدر، ص ١٩، ٦٥، ٦٦ وما بعدها، وتعليق(١) ص ١٤٥.

(٤) الشهرستانى، الملل، ١ ص ١٨٥؛ البغدادى، الفرق بين الفرق، ١٩٠. لعل هذا الشعر هو أصدق مايعبر عن مبادىء هذه الفرقة.

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا	أن نعبد الله لم نشرك به أحداً
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار أو عندا
أما علىّ وعثمان فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

الأغانى (طبعة بولاق)، ١٣ ص ٥٢.

(٥) انقسمت إلى فرق أغلبها نسبة لمؤسسيها، منها: الجهمية فى خراسان، والغيلانية فى الشام، والماصرية فى العراق، والشكاك والبترية والحشوية. النوبختى، فرق الشيعة، ص ٦ — ٧.

(٦) نفسه، ص ١٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٥ س ١٢؛ الكامل، ٣ ص ١٦٥ س ٢٧.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٥، ١٦٨.

إلى نظر الناس: ولذلك أوصى بها النبي لعليّ في غدير خمّ (١)، وبناء على هذه الوصاية يعتبر عليّ: «وليّ الله»، وأجدر من يتولاها. ولعل المذهب الشيعي الذي قد يكون ظهر منذ موت النبي — كما يقول النوبختي (٢) — زادته هذه المحن تضامناً، حتى أنه لما خرجت طائفة المحكّمة من صفوف عليّ، أتت الشيعة لمبايعة عليّ(٣).

على العموم اجتمع حكما عليّ ومعاوية: أبو موسى الأشعري وعمرو ابن العاص في أذرُج بين الشام والعراق، في رمضان ٣٨ / ٦٥٨(٤)، وصحب كل منهما أربعمائة رجل من أنصاره. كما حضره كثير من أبناء الصحابة، مثل: عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو وعبدالله بن عباس(٥). ومع أنه لم يكن قد اتفق في الصحيفة على موضوع النقاش: فقد كان المفروض أن ينظر الحكمان في لمّ شعث الأمة الإسلامية وصلاحها على أساس ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه (٦) وقد رأى الحكمان بعد المداولة أن يخلعا علياً ومعاوية، ويولي الناس أمرهم من يحبون؛ واتفق على أن يبدأ موسى بخلع صاحبه ويتبعه عمرو، ولكن هذا الأخير على العكس عمل على تولية معاوية في الخلافة(٧)؛ مما جعل أبا موسى يعلن

---

(١) النعمان، دعائم، ١ ص ٢٠، ٥٢؛ الغزالي، فضائح الباطنية تحقيق Gold، طبعة Leyden، ١٩١٦، ص ٣٨. ففي أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خم، قام محمد خطيباً في الحجيج، فقال لهم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟»، قالوا: «بلى يارسول الله»، قال: «فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». النعمان، دعائم، ١ ص ٢١، ٢٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ٥١ وما بعدها.

(٢) النوبختي، فرق الشيعة، ١٧.

(٣) الكامل، ٣ ص ١٧٠ س ٢٦.

(٤) ابن حزم الفصل، ٤ ص ١٥٦.

(٥) الكامل، ٣ ص ١٦٦ — ١٦٧.

(٦) نفسه، ٣ ص ١٦٧؛ الدينوري، ١ ص ٢٠٣

(٧) الدينوري، ص ٢٠٤.

بين الحاضرين خدعة عمرو (١)، وقرر عليّ من جانبه العودة إلى القتال .

إلا أن الموقف في العراق لم يكن موطداً لعليّ، فإن المحكّمة أصبحت وقتئذ عقلية متعصبة تكفر بالناس في إيمانها للهفوة البسيطة (٢)، وتقتلهم، بحيث أثاروا الذعر في منطقة النهروان (٣)، وهي مركز قرى قرب المدائن . ومع أن علياً بذل جهده لاستمالتهم (٤) - وقد عاد إلى القتال - إلا أنهم رفضوا الانضمام إليه، وكفروه وكفروا الحكمين (٥)، وأعلنوا أن علياً لم يقبل حكم الله، وأنه إنما كان يقاتل لنفسه (٦)، وليس لمبدأ الخلافة . لذلك عزم عليّ على قتالهم، وحاربهم في منطقة تجمعهم بالنهروان، وكان يقول كلمته المشهورة (٧) . « الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل » ؛ فأنزل عليّ بهم هزيمة منكرة ، وذلك في أواخر سنة ٣٨/٦٥٨ ؛ وإن لم يقض عليهم نهائياً ؛ فقد ظلوا شوكة في جنب الدولة العربية ، وإن تفرقوا بدورهم إلى فرق عديدة (٨) .

في ذلك الوقت كان معاوية قد أخذ يستفيد من الفوز السياسي بإثارة الاضطرابات ضد عليّ في كل أرجاء الإمبراطورية العربية: فأرسل عمرو بن العاص في بداية سنة ٣٨/٦٥٨ ، ليخضع له مصر الغنية بخراجها (٩) ، والتي كانت تهدد

---

(١) الدينوري ، ص ٢٠٤ . يظهر أن أبا موسى هرب إلى مكة بعد ذلك. الكامل ، ٣ ص ١٦٨ .

(٢) الدينوري ، ص ٢٠٩ ؛ البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٠ .

(٣) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٤٧ .

(٤) الدينوري ، ص ٢١١ — ٢١٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٧٢ .

(٥) النوبختي، ص ١٥ — ١٦ . اعتلوا بقول القرآن الكريم (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ٥ : ٤٧) .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٧١ ؛ انظر . طه حسين ، عليّ وبنوه ، ص ١١٣ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٦٩ ؛ انظر . نفسه .

(٨) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٦ - ص ٥ ؛ انظر . بعده. كبار فرق الخوارج ستة : الأزارقة والنجدية والصفرية والعجاردة والأباضية والثعالبة . الشهرستاني، الملل ، ١ ص ٨٦.

(٩) الكامل ، ٣ ص ١٣٨، ١٨٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, tI, p. 286

وجوده فى الشام لكثرة أتباع علىّ فيها ؛ فاستطاع عمرو أن ينتزعها من يد عاملها من قبل علىّ وهو محمد بن أبى بكر الذى قتل(١). كذلك أرسل معاوية السرايا المتتابعة نحو العراق والجزيرة ومكة ، وضيق على علىّ الخناق فى كل مكان(٢). إزاء هذه المضايقات العديدة، ولكثرة ما أسيل من دماء ، قبل علىّ هدنة من معاوية على أن يكون نصيبه العراق والمشرق ، ولمعاوية الشام والمغرب ، ولا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة(٣).

زاد هذا الضعف من جانب علىّ والطمع من جانب معاوية من سخط الخوارج ؛ ولذا قرروا قتل علىّ ومعاوية ، واستعانوا فى سبيل ذلك باثنين: وجهوا أحدهما لقتل معاوية ، ولكنه لم ينجح فى قتله(٤) ، ووجهوا الآخر وهو عبدالرحمن ابن ملجم الخارجى لقتل علىّ ، فتمكن من قتله فى المسجد فى رمضان من سنة ٤٠/ يناير ٦٦١ ؛ وهو يردد(٥): الحكم لله لا لك يا علىّ ». ولكن قبل أن يموت علىّ أوصى بأن يقتل قاتله ، وألا يمثل به . وقد دفن الشيعة عليًا سراً فى قرية «النجف»(٦)، على حافة الصحراء بقرب الكوفة ، خوفاً من أن ينبش الخوارج قبره(٧)؛ وهى أصبحت مزاراً للشيعة فيما بعد يحجون إليها حتى وقتنا الحاضر .

* * *

(١) وليها من قبل علىّ عدة عمال منهم : قيس بن سعد(الكامل، ٣ص ١٣٠ س١٤)، ولكن علياً عزله ، وولاها قائده الأشتر، الذى توصل معاوية إلى قتله بالسم(نفسه ، ٣ص١٣٩، ١٧٨) ، ثم وليها محمد بن أبى بكر. ولكن بعد موقعة صفين نجد أن أنصار معاوية يكثرون ويتمكنون من قتل محمد بن أبى بكر ، وبذلك يتمكن عمرو من الاستيلاء على مصر. نفسه، ٣ ص ١٧٨ ؛ انظر . الشرقاوى ، كتاب تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٩٣ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٩٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٩٦ س ٥ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٢٦٦ ؛ انظر . Encr. de l'Isl, (art el-Nadjaf) t3, p. 871 sqq.

(٧) دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، الخانجى ، ص ٧٠ وما بعدها ؛ انظر . ماقيل عن ذلك والإختلاف فى ذلك :

وهكذا مهدت الأقدار لمعاوية التخلص من منافسه ، فوجد الفرصة سانحة ليعلن خلافته فى الشام[١]، وبهذا الإعلان انتهت خلافة «الصحابة» . أو ماسماهم المؤرخون «بالراشدين»[٢]، أى الذين كانوا مرشدين من قبل النبى للسير على سنته فى الحكم أما بعدهم فأتى الأمويون ، الذين غيّروا من نظم الخلافة . وبذلك خمدت ريح الفتنة ، وعاد المسلمون جماعة واحدة. بحيث سمى هذا العام ـ الذى أعلن معاوية فيه خلافته ـ بعام الجماعة[٣].

(الجزء الثانى تحت الطبع)[٤]

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١٧٨

(٢) أنظر . لسان ، ٤ ص ١٥٦ .

(٣) الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ١٠٩ .

(٤) التاريخ السياسى للدولة العربية الجزء الثانى، الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة ، بيروت ١٩٦٦ (مكتبة الجامعه العربية) .

للمؤلف

* نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ .
دراسة شاملة للنظم السياسية . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى . تعريف بمصادر التاريخ الإسلامى ومناهجه الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* السجلات المستنصرية . سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم ، قدس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ . (مكتبة دار الفكر العربى) .
* نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٥ .
دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمى ورسومه . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* التاريخ السياسى للدولة العربية، فى جزءين ،الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧.
* الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* التاريخ السياسى للدولة العربيـــة ، فى جزءين ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، تصنيف وتحقيق ، بالاشتراك مع علىّ البنا ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة دار الفكر العربى) .
* الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ .
(مكتبة الأنجلو المصرية) .
* مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٦٤ .
(مكتبة الأنجلو المصرية)
* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٤ .
دراسة شاملة للنظم السياسية . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الأول ،الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة،القاهرة١٩٦٥.
(مكتبة الأنجلو المصرية) .
* التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة ، بيروت ١٩٦٦ . (مكتبة الجامعة العربية)
* العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦.(مكتبة الجامعة العربية).
* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، الجزء الثانى (مكتبة الأنجلو المصرية)
دراسة شاملة لنظم بلاط المماليك ورسومه .
* ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، التاريخ السياسى [تحت الطبع] .
(مكتبة دار المعارف) .
* الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، طبعة ثانية [تحت الطبع] .
(مكتبة دار الفكر العربى) .



Histoire Politique De L'Etat Arabe

A. M. MAGUED
Prof - adjoint à l'Univ Aïn - Chams
Docteur ès - Lettres de la Sorbonne.

TOME 1

Librairie Anglo—Égyptienne
Tél. 914337.

رقم الايداع ٤٠٦٦/١٩٨٢

دار الطباعة الحديثة
٦ ــ كنيسة الارمن اول شارع الجيش
تليفون : ٩٠٨٣١٨